من اتجاهات التعبير عن الذات
في شعر القرن الرابع الهجري

دكتور
إبراهيم سعد قنديل
كلية التربيه جامعة المنصوره

تمهيد :

قبل الخوض فى الحديث عن شعر التعبير عن الذات يجب أن نقف على مفهوم الشعر ، ونظرة النقاد له قديما ، وحديثا ، وعلى أنواعه أو تقسيمات هؤلاء النقاد له ، وعلاقته بالذاتية والموضوعية .

ومن المعروف أن النقاد قد اختلفوا ـ فيما بينهم ـ حول نظرتهم للشعر ، وحقيقته ، وتفاوتت آراؤهم نتيجة لعوامل كثيرة ، وظروف متباينة كان لهذه الظروف ، ولتلك العوامل أثرها الواضح فى آراء هؤلاء النقاد قديما ، وحديثا .

يقول د . عز الدين إسماعيل : " ما يزال النقاد منذ عرف النقد يتعرضون لوضع التعريفات المختلفة للفن عامة ، وللشعر خاصة ، وطبيعى أن هذه التعريفات كانت تختلف أو تتفاوت فى مدى صحة فهمها للفن الشعرى ، باختلاف النقاد ، وتفاوت أمزجتهم ، وثقافاتهم ، وعقلياتهم وظروفهم العامة ، وقد أشار إلى ذلك سير " موريس بَوْرا " M. Bowra فى كتابه " تراث الرمزية " The heritage of Symbolism فقال : " لم يجد أحد حتى أرسطو ـ تعريفا كافيا للشعر ، ونحن جميعا نعرف ماذا يكون الشعر ، ولكن سرعان ما تجد أن فكرتنا عنه لا يشاركنا معاصرونا إياها ، فضلا عن كبار النقاد فى الماضى ، فكل تعريف يبدو فى الوقت نفسه واسعا جدا ، وضيقا جداء والحقيقة أن نظرية الشعر ، ومزاولته تختلفان من عصر إلى عصر ، فهو يعيش بالتعبير ، وهو دائم التجدد بما يدخل فيه من مستويات جديدة وفن جديد ، وما كان كافيا لفترة من الفترات لا يمكن أن يكفى أخرى " (1)

(1) الأسس الجمالية فى النقد العربى د . عز الدين اسماعيل ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الثالثة سنه ١٩٧٤ م ص ٣٤٦ .

ولاشك أن جوهر الشعر وحقيقته مصدرهما المشاعر والأحاسيس والمشاعر والأحاسيس إنسانية عامة ، ليست وقفًا على بيئة معينة أو حقبة زمنية محددة وما زلنا نقرأ أشعار القدماء فنهتز لها ، ونستجيب مشاعرنا وإحساساتنا لمشاعر هؤلاء الشعراء وإحساساتهم ، فنحس بما أحسوا به حين أبدعوا أشعارهم هذه ، يستوى فى ذلك العربى منهم ، وغير العربى .

يقول أحمد أمين " وأكثر الشعر لانسميه شعرا مالم يحرك شعورنا ويولد فينا كثيرا من الانفعال كالذى تولده الأغانى ، وتكون المنزلة الأولى فيه للشعور لا للعقل " . (1)

وتتفق آراء معظم النقاد على أن الشعر إلهام ، ونفثات روحية بعيدة عن التفكير العقلى ، والمنطق ، إلهام يعبر به الشعراء عن أحاسيسهم ، ومشاعرهم ، وما تختلج به صدورهم من خلجات ترتبط ارتباطا كاملا بعاطفة الشاعر ، ووجدانه ، فالشعراء لا يعبرون عن الواقع بأبعاده الحقيقية ، وإنما يعبرون عن واقعهم النفسى ، وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس ، ومما يؤيد أن الشعر إلهام ما جاء على لسان "أرسطو" وهو يتحدث عن الشعراء حين يقول : " لقد أدركت أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة ، أو موهبة قادرة على أن تبعث فيهم حماسة .. ثم يقول : " إذن فالشعراء – من هذه الناحية – لا يختلفون عن الأنبياء ، والكهنة الذين ينطقون بالكلام الحسن ، دون أن يعرفوا ماذا يقولون " (2)

(1) النقد الأدبى أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٣م ص ٥٧ .

(2) قواعد النقد الأدبى – آبروكرومبى – ترجمة محمد عوض محمد لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٤م ص ١٦، ٢ .

واستناداً إلى رؤية أرسطو هذه، يقول أحمد أمين : "إن الشعر يخاطب العواطف مباشرة وذلك لما عند الشاعر من قوة إلهام لا تكتسب بتعلم وللشاعر نوع غامض من لطف النظر، أو الإلهام أو اللقانة ، أو ما شئت فسمه ، ولهذا كان اليونان يسمون الشاعر خالقاً ، وكان للعبريين كلمة واحدة تدل على الشاعر ، والنبي معاً . ولعل هذا هو الذي جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر ، ويقول أحدهم " شيطانه أنثى ، وشيطاني ذكر" ولأمر ما خلط العرب بين النبي والشاعر ، فسموا النبي شاعراً أحياناً ، وكاهناً أحياناً "(1)

ويقول " تشارلتن " متحدثاً عن الفرق بين التعبير العلمي والتعبير الأدبي : " وإذاً فالمقياس الذي نقيس به الأدب هو قوة التعبير ، فكلما فاضت العبارة بمعانيها ، ومشاعرها وعواطفها ، التي قصد الكاتب أن يسوقها فيها كانت أدنى إلى الأدب الحي الصحيح على شريطة ألا يقصد من العبارة أن تؤدي معنى عقلياً خالصاً يمكن للرموز الجافة أن تؤديه بل لابد للألفاظ أن تحمل إلى جانب معانيها العقلية محصولاً من العواطف الإنسانية ، والصور الذهنية ، والمشاعر الحية ، التي تجمعت حول تلك المعاني العقلية على مر الدهور بفعل ما مرت به الإنسانية من تجارب " فاثنان واثنان تساوي أربعة " عبارة تؤدي معناها على أتم وأرقى ما يراد لها ، لكنك لا تسلكها في الأدب الرفيع بسبب أدائها المعنى أداءً تاماً وافياً ، لأن معناها عقلي خالص يخلو من العواطف والمشاعر الإنسانية ومن الممكن أن نستغني في أداء المعنى عن الألفاظ جملة ، ونستبدل بها

---

(1) النقد الأدبي ـ أحمد أمين ص ٦٢ ، ٦٣ .

رموزا . دون أن ينقص المعنى شيء ، كأن نسوقه فى أرقام كهذه ٢ + ٢ = ٤ (١)

والانفعال ـ بطبيعة الحال ـ يرتبط بعواطف الإنسان لا بأفكاره وبما تجيش به نفسه ويختلج به صدره ، لا بما يدور فى عقله ، وذهنه ، أو هو كما يعرفه " برجسون " : " هزة عاطفية فى النفس وعنده أن الانفعال نوعان : انفعال سطحى ، وانفعال عميق ، فالأول هو العاطفة التى تلى فكرة أو صورة متمثلة ، فتكون الحالة الانفعالية ناتجة عن حالة عقلية ، وهنا يبدو بوضوح أن الحالة الانفعالية تكون مكتفية بذاتها ، لا تتأثر بالانفعال الناتج عنها ، وإذا ـ تأثرت فإنها تخسر أكثر مما تربح لأنها تتعطل وتتشتت بدلا من أن تنمو ، وتتفرع ، أما الانفعال العميق فلا ينجم عن تصور بل يكون هو نفسه سببا لبزوغ عدة تصورات ، ولذلك يمكن وصف الانفعال السطحى بأنه انفعال " تحت عقلى " والانفعال العميق بأنه " فوق عقلى " وهذا الأخير هو وحده جوهر الإبداع فى العلم أو الفن ، أو فى الحياة الاجتماعية " (٢) .

وقد قسم النقاد الشعر قسمين : شعر ذاتى ، وشعر موضوعى ، يقول الأستاذ أحمد أمين : وقسمه بعضهم إلى قسمين : قسم يتحدث فيه الشاعر عن نفسه ، ووجدانه ، ونزعاته ونحو ذلك ، وقسم يتحدث فيه الشاعر عن الموضوعات الخارجية . ثم يقول : " والشعر الذاتى هو ما يسمى بشىء من

(١) فنون الأدب لتشارلتن هربت ترجمة د . زكى نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩م ص ١٦ .
(٢) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة د . مصطفى سويف ، دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ص ٢٠٩ .

التساهل : الشعر الغنائى [1] " الا أن الشعر الغنائى لم يكن مزدهرا عند اليونان لذا لم يدخله أرسطو ضمن أنواع الشعر اليونانى فالشعر عند أرسطو ثلاثة أنواع هى : " شعر الملاحم ، والمأساة ، والملهاة " [2] وأرسطو كان يتحدث عن الشعر فى واقعه .

والذى يهمنا فى بحثنا هذا هو الشعر الغنائى ، إذ أن البحث يدور حول الذاتية فى شعر القرن الرابع الهجرى .

يحاول " فنسن " تعريف الشعر الغنائى فيقول : " إننا لو أردنا أن نعرف الشعر الغنائى تعريفا سهل الفهم وجامعا ، بحيث لا يخرج من هذا النوع ما ينبغى أن يدخل فيه نقول - إننا لو أردنا ذلك نستطيع أن نعرفه كالآتى : " هو التعبير عن الإحساس الشخصى على شرط أن يفهم من هاتين الكلمتين - إحساس شخصى - أوسع معانيهما فلابد إذن أن يشتمل هذا الاصطلاح على كل أنواع الإحساسات منذ أكثرها هدوءً إلى أشدها عنفا [3]

ويوسع " فنسن " مفهوم الشعر الغنائى فلا يجعله مقصورا على نفس الشاعر بل يرى أن له مفهوما أوسع من ذلك وأشمل ، فهو إنسانى قبل أن يكون شخصيا يقول " فنسن " يمكن أن يقال إن نظرية لامارتين " و " موسيه " بالنسبة للشعر الغنائى إن لم تكن خاطئة فهى على الأقل ناقصة " لقد اتخذ

(1) النقد الأدبى لأحمد أمين ص ٦٩ ، ٧٠ .

(2) فن الشعر لأرسطو - ترجمة عبد الرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٣م - حاشية ص ٣ .

(3) نظرية الأنواع الأدبية - تأليف " فنسن " ترجمة د . حسن عون - منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٨م ص ١٣٤ - ١٣٥ .

"لامارتين" و "موسيه" والروما نطيقيون أنفسهم موضوعا لشعرهم فوصفوا لنا سرورهم ، وآلامهم ، وقد استنتج الناس من ذلك أحيانا أن الشعر الغنائي شعر شخصي ، بمعنى أنه اعتراف أو إفضاء بما يخالج النفس في نظم شعري ، ومثل هذا التعريف يعتبر غير جامع ، إذ أنه يستبعد من نوع الشعر الغنائي مجموعة عظيمة من الآثار الأدبية كانت دائما تعتبر بحق داخلة فيه ، فالشعراء الغنائيون من اليونانيين على وجه الخصوص لم يتغنوا بإحساساتهم الشخصية فحسب ، بل بإحساسات المجتمع الذي كان يعتبرهم ألسنته الناطقة ، فالشاعر "باندار" لا يتحدث عن نفسه إلا لماما ، إنه يعتبر بصفة خاصة المعبر عن إحساس المجتمع" (١)

ويقول الأستاذ / أحمد أمين : " وعلى الرغم من أن أساس الشعر الذاتي هو الشخصية فإنه يجب أن نتذكر أن أغلب الأشعار الذاتية العالمية العظيمة تدين بمكانتها في الأدب إلى حقيقة أنها تتضمن ما هو إنساني أكثر من شخصيته ، وفرديته ، حتى ليجد كل قارئ لها تعبيرا في التجارب والعواطف التي يستطيع أن يشارك فيها ، وفي هذه الحالة لا نحتاج أن نضع أنفسنا مكان الشاعر فالشاعر قد أراحنا بوضع نفسه مكاننا والدراسات التي عنيت بالأدب في جميع عصوره دلتنا على أن الشعر الذاتي بدأ بالرغبة في التعبير عن العواطف القبلية ، أو الجماعة الفردية ، فالشعر الجاهلي فيه "أنا" و "نحن" أكثر من أنا ، والشعر العبري كان من هذا النوع." (٢)

---

(١) المرجع السابق ـ نظرية الأنواع الأدبية ـ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٢) النقد الأدبي ـ أحمد أمين ص ٧٠ .

إذن فالذاتية – عامة – لا تعني اقتصار الشاعر على تجاربه الشخصية أو على ما يقع له من أحداث في الحياة فحسب ، فهو لا يعبر عن إحساساته ومشاعره بعيداً عن إحساسات الناس ومشاعرهم بل إنَّ الذاتية تعني – إلى جانب تعبير الشاعر عن إحساساته ومشاعره – أن يكون صاحب حس مرهف يستطيع من خلاله الغوص إلى أعماق النفس البشرية ، فيسجل أحاسيسها ومشاعرها ، وكأنه صدى لأنفس الناس جميعاً من حوله ، يردد ما يجول في خواطرهم ، وما تخفق به قلوبهم ، وما لا يستطيعون هم أنفسهم أن يعبروا عنه .

يقول د . عبد القادر القط حول هذا المعنى : " وليس المراد بالذاتية أن يقتصر الشاعر على التعبير عن ذاته ، وعواطفه ، وتجاربه الخاصة وحدها – وإن كان ذلك من أهم مظاهر الذاتية – بل أن يكون للشاعر كيان مستقل ونظرة متميزة للحياة والناس ووجدان يقظ يرصد المجتمع ، والطبيعة والنفس الإنسانية . (1)

من هنا يتضح أن الذاتية في الشعر الغنائي يمكن أن تكون في حديث الشاعر عن نفسه عن عواطفه ، ومشاعره ، وإحساساته ، عن نزعاته وميوله ويظهر ذلك جلياً حين " يعكف الشاعر على نفسه يحللها – كما يرى أستاذنا د . هدارة " (2) .

---

(1) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر – د . عبد القادر القط دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت سنة ١٩٧٨ ص ٢٧ .

(2) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د . محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف سنة ١٩٦٣م ص ١٧٤ .

ويمكن أن تكون الذاتية أيضا فى حديث الشاعر عن مجتمعه ، لأن حديث الشاعر عن مجتمعه لا ينفى ذاتيته طالما أنه يتحدث عن رؤيته الخاصة لمجتمعه أى أن يصور المجتمع من خلال ذاته .

إما إذا تحدث الشاعر الغنائى عن غيره أكثر مما يتحدث عن نفسه فهنا يكون شعره " غيريا " أكثر منه ذاتيا " أو بمعنى أصح " غيريا " فقط وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى اتهام الشعر العربى " بالغيرية " ونفى الذاتية عنه .

المشكلة إذن تكمن فى طريقة التعبير ، فالشاعر الغنائى حين يمدح يمكن أن يكون ذاتيا لو تحدث عن مشاعره التى يحسها إزاء الممدوح ، ويكون بعيدا عن الذاتية لو وصف الممدوح وصفا مجردا بعيدا عن إحساساته ومشاعره ، ومثل ذلك يقال فى الغزل ، فالشاعر إذا شغل فى غزله بإبراز مشاعره تجاه محبوبته كان ذاتيا فى غزله هذا ، إما اذا شغل بوصف محبوبته وصفا مجردا بعيدا عن إحساساته نحوها كان شعره شعرا غيريا " لانه شغل بغيره ولم تشغله ذاته (مشاعرها ، وإحساساتها) ، وأستاذنا الدكتور / هدارة يرى أن الشاعر القديم كان " قلما يلتفت إلى نفسه ، ويصف مشاعره ، فى صراحة ووضوح وبصوغ إحساساته فى حرارة ، وصدق . كان الشاعر حين يتغزل يصف محبوبته وصفا مجردا ، أو يطلعنا على جانب تقريرى من حبه ، ولكنه لم يكن يتتبع تأثير هذا الحب فى نفسه ، أو يتعمق فى خوافيه ، وارتباطه بكيانه وكذلك كان شأن الشاعر القديم بالنسبة لظاهر الطبيعة ، كان يصفها وصفا مجردا لا تظهر فيه ذاتيته ولا نتحسس فيه وجدانه ومشاعره . (1)

---

(1) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٧٤ .

إذن فالشعر الذاتى شعر غنائى ، وإنْ كان الشعر الغنائى ليس ذاتيها فى مجمله على عكس ما يرى بعض المحدثين الغربيين ، فالشعر الغنائى عندهم ــ على حد تعبير" فنسن " : فيض من الإحساسات الشخصية موضوعه شخص ، حيث يصف الشاعر حالاته النفسية ، أو بمعنى آخر ما يعبر عنه بضمير المتكلم " أنا " ميدانه الأحلام ، والآلام ، والسرور ، وموقف الشاعر هنا سلبى ، بمعنى أن الأحداث تؤثر فيه ، وليس هو المؤثر فى الأحداث وكما يقول " مالبرانش " Malbranche " إنه متأثر " (١) وهذا التعريف لا ينطبق على الشعر الغنائى كله ، بل ينطبق على الذاتى منه خاصة .

فالذاتية فى الأدب تعنى ــ أول ما تعنى ــ " العكوف على النفس وتحليلها " كما يرى أستاذنا الدكتور/ محمد مصطفى هدارة " (٢)

ولما كانت الأنفس مختلفة كما أراد الله لها أن تكون فلا بد أن يكون لكل شاعر خصائص تميز شعره عن شعر غيره ، وتفرده عمّن سواه ، من هنا يكون لشعر كل شاعر مذاقه الخاص مادام صاحبه قد أضفى عليه من سمات شخصيته الخاصة ما يجعله متفردا ، متميزا عن شعر غيره ، ظاهرة من خلاله إحساسات الشاعر ، ومشاعره ، ووجدانه .

يقول د . محمد زكى العشماوى : الأثر الفنى أيا كان نوعه ليس نتيجة تثبتها التجربة العلمية ، وإنما هو نتيجة ما فى الفنان من تباين وفردية بل إنّ قيمة الأثر الفنى لترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين ، وتلك الفردية مظهرين واضحين فى الإنتاج الفنى ، وهذه الفردية أو الذاتية التى تميز

(١) نظرية الأنواع الأدبية ص ٣٢ .

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٧٤ .

الفن من العلم عند النقاد ، وعلماء الجمال ، هو العنصر الأساسي الذي يجعل الفن عند خالقه يتسم بسمة الأصالة التي هي مجموعة الخصائص الفردية المميزة للأشخاص . إن هذه الأصالة هي التي تطبع الأدب بطابع الذات ، وهي التي تجعل من كل أثر فني صورة متميزة تحمل روح كاتبها ومزاجه ، ولفتات ذهنه ، وقدراته على التعبير ، ومدى ما يتصف به من صفات فنية مختلفة " (1) .

والذاتية بهذا المعنى ظهرت في الشعر العربي منذ نشأته وكثير من هذا الشعر يمثل أحاسيس الشعراء ومشاعرهم أصدق تمثيل ، وكثيرا ما نرى اختلافا بينا بين شعر الشاعر الجاهلي ، وشعر غيره من معاصريه وما ذلك سوى دليل قاطع على أن هناك شعرا كان يحمل سمات شخصية قائله ، وروحه ، ومزاجه ، وهذا شيء طبيعي في الشعر الذاتي لابد من وجوده وتحققه وإلا ما أطلق عليه " الشعر الذاتي " .

يقول " غوستاف فون غرنباوم " : إن الشعر العربي القديم الذي لم يتخذ أداة للسياسة كان فنا غنائيا ، ذا طابع وصفي عالج عددا محدودا من الموضوعات التقليدية ، ولما كان الشعر وسيلة البدوي الوحيدة للتعبير والترفيه عن النفس ، فقد تمثلت فيه حياته الروحية في أتم أوضاعها ، لذلك قلما عالج البدوي الظواهر الخارجية ، والصلات الاجتماعية رغبة فيها ، وإنما فعل ذلك ليجعل منها وسيلة يبسط بها ما في نفسه لا غير فملاحظاته تبلغ منتهى الدقة في أوصاف الحصان ، وحمار الوحش ، وأهوال الصحراء التي

(1) قضايا النقد الأدبي والبلاغة ـ د . محمد زكي العشاوي ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ص ٢ .

يجتازها متخذا من هذه الأوصاف وسيلة لزهوه برفعة منزلته ، مدللا على ذلك بحسن اختيارلحصانه المطهم ، وبراعته فى ملاحقه الطرائد وشجاعة فى اقتحام الأخطار التى تعترضه فى سفره" (1) .

لكن الذاتية بمعناها الأوسع والأشمل والأعم بدأت تظهر بشكل واضح وملموس فى الشعر العربى بعد ذلك ، وبخاصة فى شعر العصر العباسى عصر التقاء الثقافات والفلسفات عصرالازدهار الأدبى ، والضعف السياسى والانحلال الأخلاقى عصر التطور ، والتجديد ، عصر التعمق الفكرى والوجدانى ، يقول أستاذنا د ٠ هدارة متحدثا عن شعر القرن الثانى الهجرى ، وظهور الذاتية فيه بشكل ملحوظ : " أما فى القرن الثانى الهجرى فقد التفت الشعراء إلى أنفسهم ، يفتشون فى حناياها عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وعكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيبهم وتفتح مغاليق أسرارها لهم ، فلم يعد تغزلهم مجرد وصف حسى جامد لامرأة مثالية فى جمالها ، ولم يعد وصفهم لمظاهر الطبيعة بعيدا عن مشاعر نفوسهم وإحساساتها ، بل اندمجوا فى تلك المظاهر اندماج الألفة ، والمشاركة الوجدانية ، وكانوا يقيسون حالات نفوسهم بحالاتها ، ويقرنون خفقات قلوبهم بخفقاتها ، وهكذا تجدد الاتجاه الذاتى فى الشعر العربى ودخل مرحلة جديدة تتغور أعماق النفس ، ولا تكتفى بملامسة سطحها الظاهر مما أبرز شخصية الشاعر بعد أن كانت مطمورة تائهة فى أوصافه التى يخلعها على الأشياء وبين ممدوحيه ، بل نجد الشاعر فى القرن الثانى

---

(1) دراسات فى الأدب العربى ـ غوستاف فون غرنباوم " ترجمة د ٠ احسان عباس وآخرين ـ باشراف د ٠ محمد يوسف نجم ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت سنه ١٩٥٩م ص

الهجرى يستغل قصيدته فى المدح فى عرض مشاعره ، والتحدث عن ذات نفسه فى أول القصيدة .

ثم يكمل د . هدارة حديثه عن نزعة التعبير عن الذات وظهورها فى الشعر العربى فيقول عنها : " إنها وجدت فى المدح ، كما وجدت فى التغزل ، والرثاء ، والوصف ، وأغراض كثيرة أخرى ، والأهم من ذلك أنها وجدت فى قصائد ذاتية خاصة بناحية معينة من نفس الشاعر يريد أن يطلعنا عليها ". (١)

وهذا القول وإن اتصل بشعر القرن الثانى الهجرى فهو صحيح بالنسبة لما تلا ذلك القرن ، وبخاصة شعر القرن الرابع الهجرى ، الذى ظهرت فيه ذاتية الشعراء واضحة جلية ، وتباينت هذه الذاتية من شاعر إلى شاعر نتيجة لشخصية كل منهم ، وبيئته وظروف حياته ونوازعه وميوله فى هذه الحياة .

والقرن الرابع الهجرى — كما نعلم — يمثل عصرا من أزهى عصور الأدب العربى المختلفة ، فقد ظهر فى هذا القرن شعراء كان لهم دورهم البارز فى إثراء الحياة الأدبية ، وكانت لهم منزلتهم الرفيعة بين الشعراء وعند النقاد ، ولايزالون يتمتعون بهذه المنزلة ، وتلك المكانة حتى يومنا هذا .

ظهر فى هذا القرن أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى والشريف الرضى ، ومهيار الديلمى ، والخالديان ، وابن الحجاج

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

وابن سكرة الهاشمى ، والوأوانى ، والوأواء الدمشقى ، والأحنف العكبرى وغيرهم كثيرون وأدلى كل منهم بدلوه ، مخلفين للعربية تراثا أدبيا ضخما ، عاشت عليه أجيال من بعدهم ، ولا يزال ذلك التراث حتى اليوم معينا لا ينضب ويطول بنا القول — على حد التعبير الأستاذ/ أحمد أمين : " لو عددنا الشعراء الذين نبغوا فى هذا العصر ، مع تعدد نواحيهم ، ونبوغهم " (1)

فلسنا فى حاجة إلى حصر كل من نبغ فى هذا القرن من الشعراء بقدر حاجتنا إلى التماس ظهور ذاتية شعراء ذلك القرن من خلال أشعار كل واحد منهم ، وهذا ما سنحاوله فيما نستقبل من أبواب هذا البحث وفصوله .

---

(1) ظهر الإسلام لأحمد أمين — الطبعة الخامسة — مكتبة النهضة المصرية ج ٢ ص ١٠٤ .

الباب الأول

الدائية والبطولة

مقدمـــــة :

لم يكد يحل القرن الرابع الهجرى بالدولة العباسية إلا وكانت جميع مقاليد الأمور بيد الأتراك ، يحركونها كيف شاءوا وحيثما أرادوا .

فقد أهل القرن الرابع وعلى الخلافة " المقتدر " ذلك الخليفة الصبى الذى اختاره أخوه " المكتفى " وليا للعهد من بعده ، ولقد وافق ذلك الاختيار هوى فى نفوس الأتراك والوزراء ، إذ استقر رأيهم على اختيار ذلك الصبى وليا للعهد .

وتكاد كتب التاريخ تجمع على أن وزير المكتفى العباس بن الحسن قد استشار جماعة من أصحابه فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى بعد ما ثقلت عليه العلة ، فأشار عليه محمد بن داود بن الجراح ، بابن المعتز " ووصفه بالعقل والأدب ، لكن أبا الحسن عليًا بن محمد بن الفرات عارض هذا الرأى معللا معارضته بأسباب منطقية . إذ قال للوزير : " فليتق اللهَ الوزيرُ ، ولا ينصِّب إلا من قد عرفه واطَّلع على جميع أحواله ولا يُنَصِّب بخيلا فيضيق على الناس ، ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا ، وضيعة هذا ، وفرس هذا ، ومن قد لقى الناس ، ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير : صدقت ونصحت فيمَنْ تشير؟ قال : أصلح الموجود " جعفر بن المعتضد " قال : ويحك هو صبى . قال ابن الفرات : إلاَّ أنه ابن المعتضد

ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا " (1) وتولى المقتدر الخلافة سنة خمس وتسعين ومائتين " (2) ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره (3) ، ونظرا لصغر سن الخليفة صار الأمر كله إلى أمه التى استعانت ببعض النساء فى تصريف أمور الدولة ، وأصبحت أمور الخلافة كلها فى أيدى النساء يصرفنها حسب هواهن .

يقول السيوطى : " وفى سنة ست (يعنى وثلاثمائة) فتح مارستان أم المقتدر وكان مبلغ النفقة فى العام سبعة آلاف دينار ، وفيها صار الأمر ، والنهى لحرم الخليفة ، ولنسائه لركاكته ، وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر "بمثل" القهرمانة ، أن تجلس للمظالم ، وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس ، وتحضر القضاة ، والأعيان وتبرز التواقيع ، وعليها خطها " (4) .

يؤيد ذلك ما جاء فى صلة تاريخ الطبرى ، إلا أن المؤلف يذكر أن اسم القهرمانة " ثمل " (5)

---

(1) الكامل فى التاريخ لابن الأثير — دار الكتاب العربى — بيروت ج ٦ ص ١١٩ (وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبرى لمحمد بن عبد الملك الهمذانى الملحق بذيول تاريخ الطبرى دار المعارف — الطبعة الثانية ص ١٩١ .
(2) الفخرى فى الآداب السلطانية — محمد بن على بن طباطبا — مراجعة محمد عوض أدهم وعلى الجارم ، وزارة المعارف العمومية بالقاهرة ١٩٢٣م ص ٢٣٣
(3) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى (ملحق بذيول تاريخ الطبرى) دار المعارف — الطبعة الثانية ص ٢٩ .
(4) تاريخ الخلفاء للسيوطى — المكتبة التجارية الكبرى بمصر — دار مصر للطباعة الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م ص ٣٨١ .
(5) صلة تاريخ الطبرى ص ٦٧ .

ويروى ابن كثير الخبر نفسه ، لكنه يذكر ان اسم القهرمانة " ثملى " (1) ، واختلاف المؤرخين فى اسم القهرمانة ، لا يقدم ولا يؤخر ، ولا ينقص من الأمر شيئا ، بل على العكس من ذلك ، هو تثبيت بصحة ذلك الخبر ، وتأكيد أن أمر الخلافة ، قد آل إلى النساء حقا ، وأصبحت النساء هن الحاكمات الآمرات ، الناهيات .

إلا أن المستشرق " آدم متز " يرى فى تحكم أم المقتدر فى الأمور خيرا إذ أنها استطاعت — فى رأيه — أنْ تفوّت على المتآمرين ما كانوا يطمعون فيه ويطمحون إليه ، وذلك بفضل ما كان لها من قوة ومن حزم .

يقول " آدم متز " فى ذلك : " ولكن الجماعة المتآمرين أخطأوا فى التقدير فإن أم المقتدر وهى أم ولد (2) رومية ، قبضت على زمام الأمر هى وأولياؤها بيد القوة والحزم فكانت تولى وتعزل وحالت بين القوم وبين انتهاب ما فى بيت المال ، ومما يدل على قوة عزيمتها ، وبعد نظرها طريقتها فى العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها " (3)

ولست أدرى على أى شىء استند آدم متز فى حكمه على قوة أم المقتدر وحزمها فى مواجهة الأتراك ولست أرى استيلاءها على مقاليد الأمور هى

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير — الطبعة الثانية ١٩٧٧م — مكتبة المعارف دار — بيروت جـ ١١ ص ١٢٩ .

(2) " أم ولد " اصطلاح استعمله العرب كناية عن الأمة التى تنجب ولدا يتولى الخلافة أو ولاية العهد وتسمى " أم ولد " تمييزا لها عن الزوجة الحرة .

(3) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى — آدم متز — نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧م — الطبعة الثانية ص ١٢ .

والمقربات إليها من النساء ، إلا مؤامرة من مؤامرات الاتراك حتى تهقى الفوضى سائدة ، ويظل الخلل قائما ، فالاتراك هم أصحاب الرأى الأول فى بقاء المقتدر ، وهم أعلم بمصلحتهم فى ذلك ، حتى إننا نرى الوزير العباس ابن الحسن يستصغر سن المقتدر ، فيعمل على خلعه ، ويوافقه جماعة على أن يولوا عبد الله بن المعتز ، ويحاول المقتدر إرضاء الوزير ويصلح حاله فيتراجع الوزير عن ذلك بعد أن دفع له المقتدر أموالا أرضته ، ولكن الباقين من جماعته ، يصرون على خلع المقتدر ، فيركبون عليه وهو يلعب بالاكرة فيهرب ، ويُرسل إلى ابن المعتز فيحضر ، ويبايع بالخلافة يبايعه القواد ، والقضاة ، والأعيان ، إلا أن الاتراك المؤيدين للمقتدر يقاتلون فى سبيل عودته ، أو بالأحرى فى سبيل مصلحتهم ، ويتسنى لهم ما يريدون ، ويعود المقتدر للخلافة مرة ثانية ، ويسلّم الفقهاء والأمراء الذين خلعوه إلى يونس الخازن فيقتلهم ، ويُحبس ابنُ المعتز ، ثم يخرج بعد ذلك ميتا ، ويستقيم الأمر للمقتدر " (1)

ويظل المقتدر خليفة طالما كان للأتراك خاضعا ، ويستمر الحال على ما هو عليه حتى يتعكر صفو العلاقة بين المقتدر ، وبين مؤنس الخادم فيخرج مؤنس على الخليفة ، ويعمل على خلعه ، وينجح فى ذلك ، ويؤتى بمحمد بن المعتضد ، ويبايعه مؤنس ، والأمراء ، ويلقبونه " القاهر بالله " ويُكتب بذلك إلى البلاد ، إلا أن بعض الاتراك الموالين للمقتدر لا يرضيهم

(1) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - دار الكتاب العربى بيروت ج ٦ ص ١٢١ ، ١٢٢ " وتنظر تجارب الأمم لمسكويه - نشره أدروز القاهرة ١٩١٤ / ١٩١٥م ج ١ ص ٦ - ٨ وتاريخ الخلفاء ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ وتكملة تاريخ الطبرى ص ١٩٢ ، ١٩٣ ه .

ذلك، فيعملون على عودة المقتدر مرة أخرى فيحملونه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة ليعود خليفة من جديد "[1].

إلى هذا الحد بلغ لعب الأتراك بالمقتدر، وبأمه، وأخيه، وإلى هذه الدرجة كان الخليفة لعبة فى أيديهم يبقونه حينا، ثم يعزلونه، ثم يردونه حينا آخر، فأية عزيمة تلك التى كانت لأم المقتدر فى مواجهة هؤلاء الأتراك؟ يقول الأستاذ / أحمد أمين: "كان المقتدر صبيا فى الثالثة عشرة من عمره، ولا يعرف من أمور الدنيا شيئا، ومع ذلك لقبوه بالمقتدر، ولما شب عكف على لذائذه، وتوفر على المغنيين والنساء، وترك أمور الدنيا لغيره وعلى رأسهم مؤنس التركى، فبلغت الحال من بله الخليفة، وسوء رجاله، أقصى حد "[2]

وهكذا يبدو مدى استهتار هؤلاء الأتراك بالخلافة الإسلامية آنذاك فما كان تلقيبهم للخليفة بالمقتدر إلا سخرية، واستهزاء، فكيف يكون مقتدرا وهو لا يزال صبيا، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لكل من لا يعجبه الأمر: نعم إنه مقتدر بنا، وطالما كان فى ركابنا، فإن حاول غير ذلك فلن يكون له من القدرة شىء.

وفى عهد المقتدر هذا ازدادت الثورات اشتعالا فى كل مكان وغلب أمر المهدية بالمغرب واستتب الأمر للمهدى فيها ودعى له بالخلافة سنة

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣٨٢، ٣٨٣ وانظر الكامل فى التاريخ جـ٦ ص ٢٠٠، ٢٠١.

(2) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٩.

ست وتسعين ومائتين وخرجت المغرب عن أمر بني العباس من هذا التاريخ(1)

وإلى جانب ثورة المهدي هذه ، كانت هناك ثورة أشد خطرا على البلاد تلك هي ثورة القرامطة ، التي أشعلها أبو طاهر القرمطي سنة ست عشرة وثلاثمائة ، حيث كثر فساده وأخذه البلاد ، وفتكه بالمسلمين ، واشتد به الخطب ، وتمكنت هيبته في القلوب ، وكثر أتباعه ، وتزلزل له الخليفة وهزم جيش المقتدر غير مرة ، وانقطع الحج في هذه السنين خوفا من القرامطة ، ونزح أهل مكة عنها ، وقصد الروم ناحية خلاط ، وأخرجوا المنبر من جامعها وجعلوا الصليب مكانه "(2).

هذه الثورات التي اشتعلت في كل بقعة من بقاع الخلافة ، سواء أكانت ثورات سياسية أم ثورات دينية في ظاهرها ، سياسية في باطنها إنما ترجع كلها لضعف الخليفة في مواجهتها ، وعدم قدرته على التحكم في زمام الأمور ، وفرض سيطرته وهيبته في الناس ، وأنى له ذلك ، وقد فرض الأتراك سيطرتهم عليه من ناحية ، وحجرت عليه أمه ، ونساء القصر من ناحية ثانية ، إذ استبدت هؤلاء النسوة بالأمر دونه ، مستغلات في ذلك صغر سنه وضعف شخصيته ، وقلة تجربته ، وحبه للهو ، والعبث والمجون .

ولم يكن حظ من تولى الخلافة بعد المقتدر مع الأتراك بأحسن من حظ المقتدر نفسه فقد ظلت أمور الدولة بأيدي هؤلاء الأتراك يصرفونها كيفما يحلو لهم ، وظل الخليفة معهم صورة باهتة ، ضاع بريقها حين غابت هيبة صاحبها .

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٩ (وينظر الكامل في التاريخ جـ٦ ص ١٣٣ وما بعدها) .
(2) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٩ (وتنظر تفصيلات ثورة القرامطة في الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ٢٠٣ وما بعدها) .

وهكذا سارت أحوال الخلافة الإسلامية من سيئ إلى أسوأ لدرجة أن الخليفة القاهر الذى خلف المقتدر، قد أتت عليه أيام بعد عزله لم يجد فيها قوت يومه، فكان يقف مادا يده للناس طالبا التصدق عليه قائلا: " تصدّقوا على فأنا من قد عرفتم ". (1)

ويتولى الخلافة بعده، الراضى بالله، فلم يكن له من الخلافة إلاّ الاسم فقط، وقد بدأ فى عهده، نظام إمرة الأمراء" وتعتبر الفترة الواقعة بين سنتى ٣٢٤ هـ، ٣٣٤ هـ فترة انفراد الأمراء دون الخليفة بالسلطة وإن كان حال الخلافة العباسية منذ عصرها الثانى يتسم بانحسار السلطة عن خلفاء بنى العباس، إلى العناصر التركية، إلا أن الحال فى هذه الفترة اتخذ شكلا مختلفا ذلك أن منصب الخليفة أمسى منصبا شكليا، تنحصر أهميته فى الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما إدارة أمور الدولة فكانت فى يد الأمراء، وقد ظهر نظام إمرة الأمراء فى بلاد فارس التى كانت مناوئة للخلافة العباسية، وإن كانت عونا لها فى أول أمرها (2).

مما يؤيد ذلك ما جاء فى تاريخ الخلفاء: " وفى سنة أربع وعشرين (يعنى وثلاثمائة) تغلب محمد بن رائق أمير واسط ونواحيها، وحكم على البلاد، وبطل أمر الوزارة والدواوين وتولى هو الجميع وصارت الأموال تحمل إليه، وبطلت بيوت المال، وبقى الراضى معه صورة ليس له من الخلافة إلاّ الاسم" (3)

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣٩٢.
(2) حضارة الدولة العباسية ـ د. احمد محمد رمضان ص ٧١.
(3) تاريخ الخلفاء ص ٣٩٢.

منذ ذلك التاريخ بدأ الأمراء يسيطرون على الأقاليم سيطرة كاملة لها سيادتها التامة بعيدا عن سيطرة الخليفة الذى لم يعد له من الأمر شيء، إذ " تغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم فى جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم، وأما باقى الأطراف فكانت البصرة فى يد ابن رائق، وخوزستان فى يد البريدى، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس، والرى وأصبهان، والجبل، فى يد ركن الدولة بن بويه، ويد وشمكير أخى مرداويج، يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر، ومضر، وربيعة، فى يد بنى حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج، والمغرب وأفريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى. (1)

ومع انقسام الدولة إلى إمارات متعددة بدأت بين هؤلاء الأمراء معارك كثيرة، كل يحاول أن تكون له السيطرة دون الآخرين، وظلت أحوال البلاد الإسلامية على هذا الوضع، أمراء يستبدون بالأمر دون الخليفة، ومعارك دائرة بين هؤلاء الأمراء بعضهم بعضا، وأقاليم قد تفتت قوتها بعد أن أنهكتها المعارك المستمرة بين الطامعين، وخلفاء عاجزون كل العجز لا حول لهم ولا قوة. وفى خضم هذه الأحداث المتلاحقة تظهر بطولات شتى تعتدل بها موازين الحياة إلى حد ما.

---

(1) الكامل فى التاريخ جـ ٦ صـ ٢٥٤، ٢٥٥، وانظر تكملة تاريخ الطبرى صـ ٣٠٧).

ويتعدد مفهوم البطولة ، وتتباين مناحيها فتظهر بطولات سياسية وبطولات حربية ، وبطولات عقائدية .

والبطولة إحساس فردى ذاتى تضخم عند بعض الشعراء فى ذلك العصر ، فعبروا من خلال أشعارهم عن بطولاتهم التى اختلف مفهومها من شاعر إلى شاعر . فلكل شاعر وجهة نظر فى بطولته ، فبطولة المتنبى كانت بطولة النضال المستمر الذى شغل به منذ كان صبيا وحتى آخر عمره .

بينما كانت البطولة عند سيف الدولة بطولة عسكرية حربية يجسدها وهو يعدد انتصاراته الملاحقة كما يجسدها وهو صابر فى مواجهة الهزيمة والأسر . أما بطولة الشريف الرضى فكانت بطولة الانتماء إلى النسب الشريف . وسنرى ذلك فيما نستقبل من فصول ذلك الباب .

الفصل الأول

أبو الطيب المتنبي
وبطولة النضال

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة فى محلة كندة ، فى أوائل العقد الأول من القرن الرابع الهجرى " سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة " (1) .

وعاصر أبو الطيب النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ذلك القرن الذى اتسم – كما رأينا – وكما اتسم معظم العصر العباسى كله – بالمآسى والمخازى نتيجة لضعف الخلفاء ، واستبداد الفرس ، والأتراك بأمور الدولة ، وتحكمهم فى مصائر الناس ، وفى كل شيء فيها .

فى هذه البيئة التى تحطم فيها العنصر العربى – فى صورة الخليفة ، وفى هذه الأثناء الملأى بالفوضى ، والضعف السياسى ولد أبو الطيب ونشأ ، تقع عينه كل يوم على مأساة تهتز لها نفسه ، ويصك أذنه كل ليلة خبر يندى له جبينه ، فهو الأبى الطموح ، وهو الذى قد وهبه الله نفسا كريمة أبية ، لا تقبل الظلم ، ولا تقر على هوان ، " وهو من أصحاب الشخصيات القوية التى خلقت للكفاح ، والنضال ، لا للاستخذاء ، والتمسح بالأقدام (2) وهو أيضا على حد تعبير الأستاذ / أحمد أمين : " القوى الجبار ، الفارس فى حياته ، والفارس فى شعره ، المعتد بنفسه ، الطموح ، المسجل لأكثر أحداث زمانه " (3) .

---

(1) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر – للثعالبى – شرح وتحقيق د . مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م جـ ١ صـ ١٤١ " وينظر كذلك تاريخ بغداد جـ ٢ صـ ١٠٢ " شذرات الذهب جـ ٣ صـ ١٣ " نزهة الألباء صـ ٢٠٣ " الأعلام جـ ١ صـ ٧٥ " شرح العيون صـ ١٥ .
(2) حصاد الهشيم لابراهيم عبد القادر المازنى صـ ١٢٨ .
(3) ظهر الاسلام جـ ٢ صـ ٤٠٤ .

وهذه الأحداث التى كتب للمتنبى أن يعيشها ، كانت كفيلة أن تترك أكبر الأثر فى نفسه ، وأن يتردد صداها فى شعره ، تغنيا بأمجاد العروبة فى إصرار لم يشبه يأس ، وعزيمة لم يلحقها ضعف أو خور .

وشعر أبى الطيب – فى معظمه – شعر يفيض بالنضال ، النضال ضد الأعاجم الذين حكموا العرب وأذلوهم ، والنضال ضد الحساد والشانئين والنضال أيضا ضد الزمن نفسه وقد توفر لأبى الطيب مقومات ذلك النضال مقومات الاستعداد النفسى ، وقوة فى مواجهة الأحداث وفوق هذا وذاك ترفع عن الدنايا والصغائر .... الخ .

وإن أخص ما يميز شعر أبى الطيب بروز شخصيته فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس ، وأهواء القلوب ، وحقائق الوجود ، وأغراض الحياة " (١)

وأبو الطيب المتنبى أقوى شعراء العربية نبضات قلب ، وأبعدهم منزع فكر ، وأعمقهم حكمة ومن أصدقهم إفصاحا عن خفايا النفس ، وأعرفهم بأسرارها " (٢) .

لقد كان النضال مطلبا مهما عند أبى الطيب عاش يطلبه منذ صباه ، وظل يطلبه إلى آخر أيامه وتشاء أقداره أن يموت وهو يناضل بعض من كادوا له فى حياته ، وحسدوا عليه مكانته وأبت عليه همة نفسه إلا أن يرد على مكائدهم بلسانه ، مما دفعهم إلى ترصده حتى ظفروا به .

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات – دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة – القاهرة – ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .
(٢) على هامش الأدب والنقد . على أدهم – طبع دار الفكر – ص ٦٣ .

ولقد أصّل النضال فى نفس أبى الطيب عوامل عديدة منها ذلك الفساد الذى استشرى فى زمنه ، وما لحق العرب ، تبعا لذلك من ذل وهوان ، ومنها شخصيته الأبية ، وهمته العالية ، وعزة نفسه وشممه وكبريائه .

عاش المتنبى حياته أبيا ، كريما ، عزيز النفس ، نائيا بنفسه عن كل ما يشين المرء ، أو يحط من قدره ، متعاليا ، متكبرا ، مغاليا فى هذا التعالى ، وذلك التكبر ، محتقرا كل صغير النفس ، خائر العزيمة ، ضعيف الهمة ، يأنف من أخيه لأبيه وأمه ، إذا لم يكن كريما عفيفا ، أبيا ، نقيا ولقد ترددت أصداء هذه المعانى فى شعره خلال مراحله المختلفة ، وعبر بيئاته المتباينة ، وكل من درس حياة أبى الطيب يشهد له بذلك ، بل أكثر من ذلك ، يستوى فيهم العربى ، وغير العربى ، إلا نفرا قليلا من الباحثين غمطوا الشاعر حقه ، ونسبوا إليه الاستجداء والنفاق والكذب ، والغرور ، إلى غير ذلك من صفات يشين المرء أن تنسب إليه .

وعلى الرغم من ذلك فما هم بضارينه شيئا ، وقد أنصفه المنصفون من باحثى الشرق والغرب ، وناقديهم ، وها هو ذا مستشرق إسبانى وقف حياته على دراسة التراث العربى فى الأندلس ، يقول عن أبى الطيب :

" والحق أن كل ما نعرفه عن حياة المتنبى — وليس بالقليل — يؤكد صدقه فيما يقول . فهو لا يسكر ، ولا نعرف له غراميات فاجرة ، وأبعد من ذلك أن يكون قد عرف الشذوذ الجنسى ، وفى عصره شاع ، وبين أناس من مستواه اشتهر ، وحياته العاطفية تدور عادة فى محيط خاص ، وليس لها صدى فى إنتاجه الأدبى ، ويمكن أن يمر على ظهر راحلته أمام أصنام عصره الفاسدة وهو ينطوى على أكبر احتقار لها ، والنساء المثيرات اللائى

يطلبن راغبات شفاهه ، سوف ينتهى بهن الأمر إلى تقبيل جبهته احتراماً وعندما تتلاقى أعناقهن الجميلة فارعة كرقاب الأوز مع رقبته ، لا يستطيع أن يقول ما إذا كن متجملات بقلائد تشع بالجواهر الثمينة أو عاطلات منها لقد أغض عينيه دون الحب . إن غايات أكثر سمواً تشده إليها "(1)

ثم يستطرد "غومث" قائلاً وهو بصدد الحديث عن كبرياء أبى الطيب واعتداده بفنه : " من الصعب أن نجد فى الأدب العالمى كله ، شاعراً أشد اعتزازاً بفنه من المتنبى ، وحتى لو نحّينا الفخر جانباً ، وهو عادة عربية تنحدر من أصول بدوية ، وقد لا يستسيغها ذوقنا الغربى ، فسوف نلتقى بشاعر الكوفة على الدوام محلقاً فى السماء ، ملتهب الكبرياء ، نبوى النظرة أحياناً مما يبرر إطلاق اسم المتنبى عليه ، لقد تنبأ أبو الطيب بالامتداد الجغرافى غير المحدود لشهرته ، وأنها سوف تضرب فى الخافقين "(2).

أعود فأقول إن هذه البيئة التى عاش فيها المتنبى ، قد أثرت فى أخلاقه ، وسلوكياته تأثيراً بالغاً ، ظهر فى حبه للقوة وتقديسه للعزة والمهابة ، والأنفة والكبرياء ، وقد كان على استعداد نفسى ، وخلقى لأن ينحو هذا المنحى ، وأن يسلك ذلك المسلك ، وقد ظل فى شعره يردد هذه المعانى ، مذ كان صبياً ، حتى فارق الحياة .

وإذا ما تتبعنا شعر أبى الطيب عبر مراحله المختلفة ، سنراه خدناً للقوة ، وعزة النفس ، والإباء ، وسنراه لا يمل الحديث عن هذه المعانى التى يرى نفسه جديراً بها دون غيره ، ممن ضعفت فيهم الهمم ، ولأبى الطيب عذره فى ذلك حتى وإنْ غالى فى تمجيد نفسه ، وتقديس ذاته

(1) مع شعراء الأندلس والمتنبى ، إميليو غرسيه غومث ـ تعريب د . الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م ص ٣٠ .
(2) المرجع السابق (الصفحة ذاتها) .

فقد رأى خليفة المسلمين ، وهو رمز الدولة فاقدا لكل سيطـــرة وسهابة ، مما أثار فى نفسه الشعور بضياع العنصر العربى أمام غيره مـــن العناصر التى أصبحت متحكمة فى الأقاليم المختلفة .

ولنبدأ بشعر أبى الطيب فى صباه ، لنرى أنه شب وحب القـــوة والعزة يلازمه ، فقد قال فى صباه ، وقد قيل له : ما أحسن شعرك !

لا تَحْسُنُ الوفرةُ حتَّى تُــرَى   منشورةَ الضَّفرينِ يومَ القِتَــالْ
على فتىً مُعتقِلٍ صَعْــدَةً   يُعِلُّهَا مِنْ كُلِّ وافِي السِّبَــالْ (١)

إن أبا الطيب فى هذين البيتين يقدس القوة ، تلك القوة التى هـى من أهم مقومات النضال ، النضال الذى يكسب صاحبه مجدا ، ويعليــه منزلة ، ويرفعه بين الناس مكانا عليا .

إن أبا الطيب – وعلى حد تعبير د . شوقى ضيف : " كان يستشعـر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقـدام ولن يجذبها أى جمال حسى ، أو متاع مادى فى الحياة " (٢)

إن البيتين السابقين مما شرّق به الباحثون وغرّبوا من شعر أبى الطيـب وذهب كل منهم فى تفسيرهما ، وتفسير غيرهما من شعر الرجل مذاهب شتى فالدكتور/ طه حسين يرى أن المتنبى كان قرمطيا و مستندا إلى نزعة القـوة

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى – بشرح العكبرى – ضبط وتصحيح مصطفـى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى – دار المعرفة – بيـروت ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) عصر الدول والإمارات – سلسلة تاريخ الأدب العربى – دار المعارف سنة ١٩٨٠م – ص ٣٤٢ .

عنده ، وإلى حبه للقتل ، والفتك ، وسفك الدماء ويرى أنه خان القرامطة في آخر أيامه فقتلوه " (1) ، هذا في الوقت الذي ينفي فيه د . عبد الوهاب عزام قرمطية المتنبي ، ويرى أن قرمطيته دعوى يعوزها الدليل " (2) .

ومثل ذلك يراه الدكتور/ محمد حسين فيقول : " أما نحن فنرجح أن المتنبي كان عدوا للقرامطة خاصة ، وللباطنية على وجه العموم ، وأنه ظل يناصبها العداء ، وظلت هي تتربص به وتكيد له حتى ظفرت به وقتلته ونحن نعتمد في حكمنا هذا على تدبر شعره في ضوء ما عرفناه عن الباطنية والقرامطة ، وفي ضوء ما نعرفه من ظروف عصره السياسية ، والاجتماعية ، وفي ضوء ما يفضي إليه تمحيص الروايات المتضاربة التي وصلت إلينا عن حياته (3).

أما د . مصطفى الشكعة فإنه يوافق المستشرق "بلاشير" على رأيه في قرمطية المتنبي حين يقرر أن الشاعر الكبير لم يكن قرمطيا ، ولكنه تأثر بآراء القرامطة " (4) ومن الباحثين من يرى أن بيتيّ المتنبي السابقين قُصِد بهما العلويون إذ أن قوله " وأنى السبال " لا يمكن أن يصدق إلا على العلويين الذين أنزلوا الهوان بالمتنبي وبجدته (5) . ومن هؤلاء الباحثين من يرى أن التهديد في البيتين موجه إلى القرامطة ، الذين كانوا يفخرون

---

(1) مع المتنبي ـ د . طه حسين ص

(2) ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام د . عبد الوهاب عزام ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦م ص ٢٥٨ .

(3) المتنبي والقرامطة ـ د . محمد محمد حسين ص ١١ .

(4) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين د . مصطفى الشكعة ـ عالم الكتب ـ بيروت = الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م ص ٣٦ .

(5) المتنبي ـ محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٩٧٧م ـ السفر الأول ص ٥٧ ـ ٥٩ .

على الكوفة فى صبا المتنبى ، ويعيشون فيها قتلا ، وفسادا ، وتخريبا (1) .

وهكذا اختلفت مذاهب الباحثين فى تفسير هذين البيتين وما كان البيتان فى حاجة إلى كل هذه الاحتمالات ، فالبيتان مما قاله المتنبى فى صباه الباكر ، بل من أول ما قال من شعر ، وهو لا يزال بعد صبيا فى المكتب ، لم يتسع أفقه بعد ليعتنق مذهبا ، أو فلسفة علوية أو قرمطية أو غير ذلك ، وإنما البيتان وغيرهما من شعر أبى الطيب عبر مراحله المختلفة إنما هما نتيجة للظروف التى عاشها ، وأحس خلالها مدى الضياع الذى لحق بالعرب ، والعروبة ، فى مواجهة أجناس مختلفة ، ومرد هذه النزعة فى شعر أبى الطيب إنما ترجع ـ كما يقول د . شعيب ـ " إلى أننا فى عصر شعوبية مدمرة ، واحتدام جنسى عنيف ، والرجل مشغول بجنسه ، مهتم بقومه ضد من عداهم من الأجناس ، والشعوب ، فانصرف إلى الفخر بهم والتغنى بمآثرهم ، أو الفخر بنفسه على أنه من النابهين فيهم ، استجابة لمنطق العصر ، وضرورات الحياة " (2)

لقد كانت ثورته ـ على حد تعبير د . شوقى ضيف ـ " ثورة سياسية قومية ، لا دينية ، ولا قرمطية ، كما توهم بعض الباحثين " (3)

ويظل المتنبى يردد فى شعره هذه النغمات ولا يمل ترديدها فلا تزال الحياة على ماهى عليه من فساد ، وضياع حقوق ، يقول أبو الطيب فى صباه أيضا :

(1) المتنبى (دراسة جديدة لحياته وشخصيته) د . ابراهيم عوض . دار الكتب ١٩٨٧م ، ص ٣٠
(2) المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث ص ٣٠٨ .
(3) عصر الدول والامارات ص ٣٤٥ .

مُحبَّسِى قِيامى ما لذ لِكُمُ النَّصْـــل بَرِيًّا من الجَرْحَى سَلِيمًا من القَتْـــل (أ)
أرى مِنْ فِرِنْدِى قِطْعَةً فى فِرِنْــدِه وجودةُ ضَرْبِ الهامِ فى جَوْدَةِ الصَّقْل
وخُضْرةُ ثوبِ العيشِ فى الخُضْرة التى تُريكَ احْمِرارَ الموتِ فى مَدْرَجِ النَّمْل (ب)
أمِطْ عنكَ تشبيهى بما وكأنَّــــه فما أحدٌ فوقى ، ولا أحدٌ مِثْلِـــى
وذَرْنى وإيَّاهُ ، وطِرْفى وذابِلـــى نكُنْ واحِدًا نلقَ الورى وانظُرَنْ فِعْلى (١)

وهكذا يتحسر أبو الطيب على سيف أغمدت فى وجوه الأعداء ، وكـــان الأحرى بها أن تسل فى وجوه هؤلاء الظالمين ، ويتعجب أبو الطيب مـــن قوم رضوا بالذلة ، فلم يعينوه على حرب يحبون قيامه إليها ، وعلى الرغـــم من ذلك ، فإنَّ اليأس لم يتسرب إلى نفسه الفتية ، التى أكسبت سيفـــه حدة ومضاء ، فهو لا يزال فى منزلة لا يعلوها أحد ، ولا يتساوى معـــه فيها إنسان ، وحسبه أن يكون فى مواجهة الورى ، كل الورى ، بسيفـــه ورمحه ، وجواده .

هذه الأبيات أيضا مما يرى فيها د . الشكعة أن المتنبى يبدو مـــن خلالها موغلا فى تأثره بالقرامطة ، وفى حبه لسفك الدماء " (٢).

وشتان بين حب سفك دماء المسلمين الأبرياء ، وحب سفك دماء مـــن اغتصبوا حقوق الناس وأشاعوا الفوضى فى البلاد .

(أ) النصل : السيف ، والفرند : جوهره .
(ب) مدرج النمل : كنى به عن آثار الفرنـد .
(١) ديوان أبى الطيب ـ بشرح العكبرى جـ ٣ ص ١٦٠ ومابعدها (والطرف : الفرس الكريم جمعه طروف) .
(٢) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص ٤١ .

ومن أشعار المتنبى فى صباه أيضا ، والتى تتجسد فيها معانى العزة والإباء ، قوله مخاطبا نفسه :

إِلى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِى زِىِّ مُحْرِمٍ
وحتّى متَى فى شِقْوَةٍ وإلى كَمِ ؟

وإنْ لاَ تمتْ تحتَ السُّيوفِ مُكَرَّماً
تمتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غيرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ واثقًا باللّهِ وثبةَ ماجدٍ
يرَى الموتَ فى الهَيْجا جَنَى النَّحلِ في الفَمِ (١)

وهكذا يتعجل أبو الطيب لقاء الأعداء ، ويمل هذه الحياة التى يحياها وكأنه محرم ، لا يحل له صيد ، أو قتل ، ويرى أبو الطيب أن الموت فى ساحة القتال ، هو موت الكرماء ، لا موت الأذلاء ، وكم يحلو للكرماء الأماجد طعم ذلك الموت.

وهذه الأبيات مما يرى فيها الأستاذ / شاكر أن التهديد فيها موجه إلى العلويين أيضا . (٢)

وتظل أشعار المتنبى فى صباه ، سائرة على هذا النهج ، ملتزمة تلك الوتيرة ، مرددة ذات المعانى التى ملكت عليه نفسه ، وشغلت فكره وعقله ، معانى حب النضال ، والاستعداد له ، وسلوك كل طريق توصل إليه :

---

(١) ديوان أبى الطيب بشرح العكبرى جـ ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) المتنبى ــ محمود شاكر ــ السفر الأول ص ٦٠ ، ٦١ .

مَفْرِشِي صَهْوةُ الحِصَانِ ولكـــنَّ قميصي مَسْرودةٌ من حَدِيدِ
لَأْمَةٌ فَاضَةٌ أَضَاةٌ دِلَاصٌ أَحْكَمَتْ نسجها يدا داوودِ (1)

ولا يسأم أبو الطيب الحديث عن نضاله ، وكفاحه ، فان ما آل إليه مصير الخلافة الإسلامية يؤرقه وإنَّ ما بلغ إليه حال العرب يقض عليه مضجعه ولا يرى أبو الطيب سبيلا للخلاص من ذلك كله إلا بالنضال الذى آلى على نفسه حمل لوائه ، والدعوة إليه ، وما دام الناس قد ركنوا إلى الدعة واستمرؤا الذل والهوان ، ورضوا بما هم فيه فلا سبيل إلا أن يناضل هو ما دام واثقا من أن تحقيق العزة ، والسؤدد ، كامن فى هذا النضال :

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّى مثلَ مَضْرِبـــه
وينْجلى خَبَرى عن صِمَّةِ الصِّمَـــمِ
لقدْ تَصَبَّرْتُ حتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ
فالْآنَ أقحمُ حتَّى لاتَ مُقْتَحَـــمِ
لأَتْرُكَنَّ وجوهَ الخَيْلِ ساهِمَــةً
والحربُ أقومُ من ساقٍ على قَــدَمِ
والطَّعنُ يحرِقُها والزَّجْرُ يُقْلِقُهــــا
حتَّى كأنَّ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّمَـــمِ
قدْ كلَّمَتْها العَوالى فَهْىَ كالِحَةٌ
كأنَّما الصَّابُ معصوبٌ على اللُّجُـمِ
بكلِّ مُنْصَلِتٍ مازالَ مُنْتَظِـــرِى
حتَّى أدلْتُ لهُ مِنْ دَوْلَةِ الخَـدَمِ
شيخٌ يرى الصلواتِ الخَمْسَ نافِلَــــةً
ويستحلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فِـــى الحَـرَمِ

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ1 ص 313 (مسرودة : درع منسوجه من حديد / لأمة : ملتئمة الصنع/ فاضة : سابغة / أضاة : صافيــة اللون / دلاص : براقة ، وهى للمفرد) .

وكلما نطحت تحت العجاج به ... أسد الكتائب رامته ولم يرم
تنسى البلاد بروق الجو بارقتي ... وتكتفى بالدم الجارى من الديم

والأبيات تجسد حب المتنبى للنضال ، وحرصه عليه ، فهى تغن بالقوة والصبر ، والاقتحام ، والطعن ، والزجر ، وكلها من أدوات النضال ووسائله إلى جانب ما فيها من تغن بالسيف ، والخيل ، والحرب ، والرماح والكتائب ، والدماء ، وكلها معان يطرقها أبو الطيب كثيرا فى أشعاره الذاتية التى تجسد بطولته النضالية ضد حكام أعاجم استعلوا على العرب وملكوا أمرهم وتحكموا فيهم ، وحرصوا على اذلالهم انتقاما لما أحدث العرب بهم فى يوم من الأيام .

ويطول نفس أبى الطيب وهو يردد تغنيه ببطولته النضالية تلك ،وحرصه على تجسيد هذه البطولة ، فيتجه بالحديث إلى نفسه حاثا لها على الصبر فى مواجهة الموت ، وترك الجزع والخوف ، فالشجاعة فى مواجهة الموت هى أقوى أسباب بلوغ ما يرومه المناضل بنضاله :

ردى حياض الرّدى يانفس واتركى ... حياض خوف الرّدى للشاء والنّعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلةً ... فلا دعيت ابن أمّ المجد والكرم
أيملك الملك والأسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وضم ؟
من لو رآنى ماءً مات من ظمأ ... ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غدا ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم (1)

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى ــ بشرح العكبرى جـ٤ صـ٣٩ ومابعدها .

والأبيات إلى جانب ما فيها من تغن بالبطولة النضالية إلا أن فيهـــا إلى جانب ذلك ــ تهوينا من شأن أولئك الأعاجم الذين ملكوا أمر البـــلاد وهذا التهوين ضرورى ومطلوب فى موقف كهذا الذى يقفه أبو الطيب ، وهـو يناضل هؤلاء الحكام .

وهى أبيات ــ كما يتضح منها ــ قد أملتها على أبى الطيب ظـــروف حياته المحيطة به ، حين استبد غير العرب بكل شيئ ، فهى دعوة إلى رفض الواقع المعاش . وإن كان بعض الباحثين قد استدل بها على تأثر أبـــــى الطيب بأفكار القرامطة ، وحبهم لسفك الدماء ، حين يقول بعد أن يـورد أبياتا من هذه القصيدة : " إذا لم تكن هذه هى القرمطية فى أبشع سلوكهـا فأين تكون القرمطية إذن " (١)

والقصيدة بعيدة عن أفكار القرامطة ، لأنها دعوة إلى النضال ، وتخليص البلاد من حكام ليسوا جديرين بالحكم ، كما يتضح منها فى قول الشاعر مثلا (حتى أدلت له من دولة الخدم) ، وقوله (أيملك الملك لحم على وضـم) وقوله (ومن عصى من ملوك العرب والعجم) فى حين أن القرامطة يستحلـــون دم الناس حكاما ، ورعية .

والقصيدة ، مما قاله الشاعر فى صباه ، فهى تعبير عن غضب ، وثـــورة على واقعه ، ودعوة إلى النضال ، قبل أن تكون تعبيرا عن مذهب يعتنقـــه الشاعر ، ويدين به .

يطول حديث المتنبى عن نفسه وتتجسد من خلال حديثه عن نفســـه بطولته النضالية وقدرته القتالية ، وشدته ، وقوة بأسه :

(١) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ــ د . مصطفى الشكعة ص ٤٠ .

جفتني كأني لست أنطق قومها
وأطعنهم والشهب في صورة الدهم

يحاذرني حتفي كأني حتفه وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي (أ)

طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض السريجيات يقطعها لحمي (ب)

برتني السرى بري المدى فرددنني
أخف على المركوب من نفسي جرمي (١)

والأبيات حافلة بما يجسد بطولة أبي الطيب النضالية ، فهو لا يرى أطعن ، ولا أشجع منه ، ليس هذا فحسب بل إنه ليرى أن دمه قاصف للرماح ، وأن لحمه قاطع للسيوف وهي معان جديدة يهون بها المتنبي من أمر أعدائه ، ويقلل بها من شأنهم ، وليس هناك من أعداء لأبي الطيب أكثر من هؤلاء الأعاجم الذين تحكموا في البلاد ، وأخضعوا العرب لسلطانهم .

ولا يزال ضياع هيبة العرب أمام هؤلاء الحكام من العجم يؤرق أبا الطيب ، مما دفعه إلى تقديس النضال بالدعوة المستمرة إليه ، مما يجسد بطولة النضال عند ذلك الشاعر العربي الغيور . فأبو الطيب إلى جانب تغنيه ببطولته النضالية فهو دائم الدعوة لقتال أولئك الملوك الأعاجم الذين كانوا عبيداً للعرب في يوم من الأيام ، ودعوته إلى قتال هؤلاء الأعاجم ونضالهم تعد من بطولاته النضالية ، فالنضال يمكن أن يكون بالسيف والرمح ويمكن أن يكون باللسان الذي يحرك المشاعر ، ويثير العواطف ويوقظ

(أ) نكزته الحية : أي لسعته بأنفها ـ ينظر لسان العرب مادة : " نكز " .
(ب) السريجيات : سيوف منسوبة الى قين يسمى سريج .

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري جـ صـ

الهمم ، ويشحذ العزائم ، وهذه الدعوة للنضال تتخذ أحيانا طريقا مباشرا وتكون أحيانا أخرى بطريق غير مباشر . من ذلك قول أبي الطيب :

أحقُّ عافٍ بدمعك الهِمَمُ ... أحدثُ شيءٍ عهداً بها القِدَمُ
وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفلح عُربٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ
في كلِّ أرضٍ وطئتُها أُمَمٌ ... تُرعى بعبدٍ كأنها غَنَمُ
يستخشنُ الخزَّ حين يلمسُه ... وكان يُبرى بظفره القلمُ (1)

فهي — كما قلت — دعوة غير مباشرة إلى الخلاص من حكام غير شرعيين استبدوا بالأمر وعاثوا في البلاد فسادا ، وفي الأبيات تنفير للعرب بما رضوا به لأنفسهم ، من ذلك تصوير المتنبي لهم على أنهم غنم يرعاها عبد مما يثير حميتهم ، ويدفعهم دفعا إلى النضال الذي يعشقه أبو الطيب وتكمن فيه بطولته ، وتتردد هذه الدعوة إلى النضال ، والتي يحمل أبو الطيب لواءها ، تتردد في شعره كثيرا ، لأنه يعلم أن الناس في زمنه قد ابتلوا بحكام سفهاء ، صغار النفوس ، لا يهمهم من الدنيا إلا طعامهم وشرابهم :

فؤادٌ ما تسلّيه المُدامُ ... وعمرٌ مثل ما تهبُ اللئامُ
ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغارٌ ... وإن كانت لهم جثثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ... ولكن معدنُ الذهبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنهمُ ملوكٌ ... مفتَّحةٌ عيونُهمُ نيامُ

وهكذا يرى المتنبي نفسه دائما فوق أعدائه من ملوك البلاد الأعاجم الذين هم في حقيقة الأمر أرانب ، غير أن الزمن جعلهم ملوكا ، ويفسر ون

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ص ٥٨ وما بعدها .

أبو الطيب بين نفسه ، وبين أولئك الملوك فيرى أن الله قد وهبه نفسا أبية وقلبا لا تستهويه الشهوات ، ولا يلهيه السكر كحال هؤلاء الملوك وهذا هو سر بطولته النضالية فمن خلق للنضال ليس كمن خلق للهو والعبث ، وحب الملذات لذا كان الفارق شاسعا بين أبي الطيب وملوك عصره ، فهو ليس منهم — وإنّ عاش بينهم — وإنما هو كالذهب مقامه في التراب ، ومع ذلك فما أبعد الفرق بين هذا وذاك .

إنّ المناضل الأبي الكريم يأنف دائما أن يرضى بذل ، أو أن يقيم على هوان ، ويؤرقه دوما أن يرى الناس من حوله قد قبلت هذا الذل ، وذلك الهوان ، ويرى المتنبي ذلك من أناس خضعوا للأعاجم ورضوا بإذلالهم إياهم ، فينطلق لسانه بهذه الحكمة :

مَن يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ
ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ (١)

وهي حكمة لم تأت عفوية بل جاءت نتيجة تجربة مرة صادرة من ذاتية شاعر تحركها بطولة النضال في نفسه . ويلي تلك الحكمة تجسيد لبطولة النضال لشاعر عاش حياته مناضلا ، وداعيا إلى النضال ، وسالكا إليه كل سبيل ممكن ، ومتاح :

ضَاقَ ذرعا بأنْ أضيق بهِ ذر	عازماني واستكرمتني الكِرامُ
واقفًا تحتَ أخْمَصَيْ قدرِ نَفْسي	واقفًا تحتَ أَخْمَصَيَّ الأنَامُ
أقرارًا ألَذُّ فوقَ شرارٍ	ومرامًا أبغي وظلمي يُرامُ
دونَ أن يَشْرَقَ الحجازُ ونجدٌ	والعراقانِ بالقَنَا والشَّامُ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري جـ ٤ ص ٩٤

وإن بدت فى هذه الأبيات مبالغات ، ومغالاة ، فهى مبالغات شاعر مناضل رأى الهمم قد ضعفت ، والعزائم قد كلت ، وهيبة العرب ضائعة فى بلادهم ، وعلى يد من كانوا لهم خدما فى يوم من الأيام . وهو يرى — وهذا ما يؤرقه — أن معظم أقطار العالم العربى قد خضع لهؤلاء الأعاجم ، ولأنه جبل على النضال ، ووهب نفساً أبية ، فهو لا يرى سبيلاً للخلاص من هؤلاء الحكام الأعاجم الا بأن تراق الدماء غزاراً فيشرق بها الحجاز ، ونجد ، والعراقان ، وبلاد الشام .

ويدور أبو الطيب كثيرا حول تجسيد بطولته النضالية ضد هؤلاء الحكام الذين ابتلى الناس بهم فى زمن أصبح أفاضل الناس أغراضا له ، فى الوقت الذى فسح فيه المجال للجاهلين ، وأوسع لهم الطريق فبلغوا ما يريدون من الملك والمجد .

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمَنِ ... يخلُو من الهمِّ أخلاهُم من الفِطَنِ

وإنَّما نحن فى جيلٍ سواسيـة ... شرٌّ على الحر من سقم على بـدن

حَوْلِى بكلِّ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ ... تُخطِى إذا جئتَ فى استِفْهامِها بِمَن

لا أقْتَرى بلَدًا إلاَّ على غَـرَرٍ ... ولا أمرّ بخَلْق غيرِ مُضْطَغِـن (أ)

ولا أعاشِرُ مِنْ أملاكِهم أحَـدًا ... إلاَّ أحق بضرب الرأس من وثَـن

إنِّى لأعْذِرُهم مِمَّا أُعنّفُهُـم ... حتَّى أُعنِّفَ نَفْسى فيهمُ وأنَـى

والأبيات دعوة إلى ضرب رءوس هؤلاء الحكام ، ومناضلتهم وإن كانت دعوة غير مباشرة . لكن تؤكدها الأبيات التى تليها والتى تعظم النضال

(أ) لا أقترى : لا أتتبع (من قروت المكان ، واستقريه ، وقريته أى تتبعته) انظر المنجد فى اللغة مادة " قرو " .

وترفع من شأنه ، وتتجسد من خلالها بطولة المتنبى النضالية :

قد هون الصبرُ عندى كلَّ نازلةٍ ... وليَّن العزمُ حدَّ المركبِ الخشنِ
كم مخلصٍ وعلاً فى خوضِ مهلكةٍ ... وقتلةٍ قرنتْ بالذمِّ فى الجبنِ (١)

وهكذا يعظم المتنبى ويرفع من شأن المناضلين ، الخائضين المهالك فى سبيل العلا والمجد فى الوقت الذى يحط فيه من قدر الجبناء الذين يلاحقهم الذم بعد أن يلاقوا حتفهم ، ولا يصدر ذلك إلا عن مناضل وجد سعادته فى ذلك النضال الذى سمت إليه نفسه ، وتعلقت به روحه وعشقه قلبه ، فأصبح سمة من سماته ، وعلامة من علامات شخصيته ، ومقوما من مقومات ذاتيته .

وظل حب أبى الطيب للنضال ، وعشقه له مسيطرا عليه ، بارزا فى كل أشعاره مجسدا تلك البطولة النضالية فيه :

تغرَّبَ لا مستعظماً غيرَ نفسه ... ولا قابلاً إلاَّ لخالقِهِ حُكْمَا
ولا سالكاً إلاَّ فؤادَ عجاجةٍ ... ولا واجداً الا لمكرمة طَعْمَا
يقولون لى : ما أنت فى كل بلدة ؟ ... وما تبتغى ؟ ما أبتغى جلَّ أن يُسْمَى
كأن بنيهم عالمون بأننى ... جَلوبٌ إليهم من معادنه اليُتْمَا
وما الجَمْعُ بين الماءِ والنَّارِ فى يدى ... بأصعبَ من أن أجمع الجَدَّ والفَهْمَا
ولكننى مستنصرٌ بذُبابِهِ ... ومرتكبٌ فى كل حال به الغَشْمَا
وجاعلُهُ يومَ اللقاء تحيتى ... وإلاَّ فلستُ السيدَ البطلَ القَرْمَا
إذا فلَّ عزمى عن مدى خوفُ بُعْدِهِ ... فأبعدُ شيءٍ ممكنٍ لم يَجِدْ عزْمَا (٢)

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ صـ ٢٠٩ ومابعدها .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٤ صـ ١٠٧ ــ ١٠٩ .

وعلى الرغم من أن هذه الأبيات قد تضمنتها قصيدته فى رثاء جدته لأمه التى أحبها المتنبى كثيرا ، إلاّ أن موت هذه الجدة ، لم ينس هذا المناضل نضاله . فالأبيات تزخر بالمعانى التى تجسد البطولة النضالية لأبى الطيب الذى لا يستعظم إلاّ نفسه ، ولا يقبل حكما إلاّ لخالقه ولا يملك إلا قلب المعارك ، ولا يجد طعما إلا للمكارم ، ولا يستنصر إلا بذباب السيوف ولا يغل عزمه عن مدى مهما بعد .

ولا شك أنها معان لا تتوفر إلاّ لمن وهب نفسه للنضال ، وآلى على نفسه إلا أن يكون مناضلا لكل غاصب ، رافضا لكل ذل وهوان .

وبطولة أبى الطيب النضالية لا تكمن فى نضاله الأعداء فحسب ، بل تكمن أيضا فى نضاله لذة الحياة ومتعتها ، ونوازع هذه اللذة ، وتلك المتعة ، فمن خلق للكفاح والنضال لا يجب أن يركن لملذات الحياة ومتعها فحبّ النضال والكفاح لا يجتمع مع حب ملذات الحياة ، ومتعها الزائلة بل إن حب ملذات الحياة ، وعشقها يميت فى الإنسان رجولته ، وينفس بطولته :

وترى الفتوةَ والمروّةَ والأبـ ـوّةَ فىّ كلّ مليحةٍ ضُرّاتِها
هنّ الثلاثُ المانعاتى لذّتى فى خلوتى لا الخوفُ من تبِعاتِها
ومطالبٌ فيها الهلاكُ أتيتُها ثبتَ الجَنان كأنّنى لم آتِها
ومقانبٌ بمقانبٍ غادرتُها أقواتَ وحشٍ كُنّ من أقواتِها (1)

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ1 ص227 ، 228 (والمقانب : جمع مقنب : وهو الجماعة من الخيل ما بين الثلاثين والأربعين .

وتتردد هذه المعانى فى شعر أبى الطيب كثيرا ، إن لم يكن دائما فهو لا يمل التغنى ببطولته النضالية ، التى يحرص على تجسيدها من خلال أشعاره والتى تتنافى مع الجرى وراء ملذات الحياة ومتعها :

دع النفسَ تأخذْ وسْعَها قبل بَيْنِها
فمفترقٌ جاران دارُهما العُمُرُ

ولا تحسبنَّ المجدَ زِقًّا وقينةً — فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ ترى — لك الهبواتُ السودُ والعسكرُ المجْرُ(أ)
وتركُكَ فى الدنيا دَوِيًّا كأنما — تداولَ سمعَ المرءِ أنملُهُ العَشْرُ(١)

إنها أبيات حكمية يستشف منها ما يرمى إليه أبو الطيب من معانى البطولة النضالية التى تكمن فى دعوته لضرب أعناق الملوك من الأعاجم الذين تحكموا فيما لا يملكون ، إلى جانب ما فيها من تمجيد للسيف ، والقتل والجر للجيوش ، وأن يترك الإنسان فى الدنيا دويا يملأ آذان الدنيا كلها ولن يستطيع أحد أن يترك ذلك الدوى إلا بنضال أولئك الأعاجم الذين فرضوا سيطرتهم على كل شيء .

ولقد استطاع أبو الطيب أن يترك فى هذه الدنيا دويا ، لم يستطع غيره أن يترك فيها مثله . وظل أبو الطيب يستنهض هم العرب أولئك الذين ضاع حقهم مناشدا إياهم أنْ يستردوا ذلك الحق ، وأن يعيدوا لأنفسهم مجدهم ، وعزتهم ، ولكن آماله خابت فى أهل عصره أولئك الذين رضوا بالذل ، واستكانوا له لصغر نفوسهم ، ولؤم طبعهم .

(أ) الهبوات : جمع هبوة : وهى الغبرة العظيمة / والمجر : الجيش العظيم .

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وعلى الرغم من ذلك فإنّ أبا الطيب ـ الذى جبل على النضال وحبه ـ لم ييأس ، بل ظل يدعو إلى هذا الحق الذى قل أنصاره ، والساعون إلى استرداده :

سأطلبُ حقّى بالقنا ومشايخ كأنهمُ من طول ما التثموا مُرْدُ
ثقالٍ إذا لاقوا خفافٍ إذا دُعُوا
كثيرٌ إذا شدوا قليلٍ إذا عُدّوا
وطعنٌ كأن الطعنَ لا طعنَ عنده
وضربٌ كأن النارَ من حرّه بَرْدُ
إذا شئتُ حفّتْ بى على كلِّ سابحٍ
رجالٌ كأنّ الموتَ فى فمها شُهْدُ(1)

وهكذا لا يشغل أبا الطيب إلا الطعن ، والضرب ، والرماح ، والخيول والرجال الذين يستعذبون طعم الموت فى سبيل استرداد حقوقهم ، وهذه كلها من سمات شخصية المناضلين ، الذين يجدون فى هذا النضال سعادتهم .

وتصدر عن أبى الطيب حكم كثيرة صادرة عن تجربته التى تحركها بطولة النضال فى نفسه من ذلك قوله :

من الحلم أنْ تستعمل الجهلَ دونه
إذا اتّسعتْ فى الحلم طُرْقُ المَظالم
وأنْ تردَ الماءَ الذى شطرُهُ دمٌ فتُسْقى إذا لم يُسْقَ مَنْ لم يُزاحِم

ويؤكد أبو الطيب حكمته هذه ، بأبيات تتجسد من خلالها بطولته النضالية :

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ1 ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

إذا صلت لم أترك مصالاً لصائل ... وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم (١)

ويظل أبو الطيب — من خلال أشعاره متغنيا ببطولته النضالية ، التي جسدتها أشعاره الذاتية من خلال تغنيه بخوضه المعارك ، وقدرته على القتال ، والطعان ، وإيراده نفسه موارد الهلاك ، يدفعه إلى ذلك قلب جرىء ، ونفس قوية أبية :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة ... سبوح لها منها عليها شواهد

تثنى على قدر الطعان كأنما ... مفاصلها تحت الرماح مراود

محرمة أكفال خيلي على القنا ... محللة لباتها والقلائد

وأورد نفسي والمهند في يدي ... موارد لا يصدرن من لا يجالد

ولكن إذا لم يحمل القلب كفه ... على حالة لم يحمل الكف ساعد (٢)

وهكذا ألف أبو الطيب النضال ، وعرفه ، واعتاده ، وبلغ في ذلك النضال مبلغا كبيرا ، وشأوا بعيدا ، فخيله لا تعرف إلا الكر لا الفر ، مهما واجهت من طعان الفوارس ، والكماة ، وذلك ملمح من ملامح شخصية المتنبي ذلك المناضل الشجاع الذي يورد نفسه موارد الموت ، وسيفه في يده ، يحمل قلبه كفه بما أوتي من جرأة ، وبما وهب من شجاعة وصبر وجلاد .

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري جـ ٤ صـ ١١١ ومابعدها .

(٢) المصدر السابق نفسه جـ ١ صـ ٢٧٠ ومابعدها .

ويظل حديث القتال ، والنضال مسيطرا على أشعار أبى الطيب مجسدا بطولته النضالية فى مواجهة ظلم الحكام وفسادهم ، يدفعه إلى ذلك استعداد نفسى لذلك القتال ، والنضال ، وغيرة على العرب ، والعروبة ، وتصميم على استرداد حق ضاع من أصحابه ، واغتصبه الأعاجم ، الأمر الذى ظل يؤرق أبا الطيب ذلك المناضل المتهد :

إذَا نظرتَ نيوبَ الليثِ بارزةً ... فلا تظنّنّ أنّ الليثَ مُبْتَسِمُ
ومهجةٍ مهجتى من همِّ صاحِبِها ... أدركتُها بجوادٍ ظهرُه حَرَمُ
رجلاهُ فى الركْضِ رِجْلٌ واليدانِ يدٌ
وفعلهُ ما تريدُ الكفُّ والقَدَمُ
ومرهفٍ سرتُ بين الجَحْفَلَيْنِ بهِ ... حتّى ضربتُ وموجُ البحرِ يلتطمُ
فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى
والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ
صَحِبْتُ فى الفَلَواتِ الوحشَ منفردًا
حتّى تعجّبَ منى القُورُ والأكَمُ (1)

وهكذا تتجلى من خلال هذه الأبيات بطولة أبى الطيب النضالية وتجسدها سرعة جواده ، ورهافة سيفه ، وجرأته وشجاعته اللتان تدفعانه إلى خوض الملاحم بين الجحافل الجرارة ضاربا بسيفه ، وسط أمواج من البشر ، وكلها معان تشهد لأبى الطيب ببطولته النضالية التى عرف بها وعرفت عنه .

إنّ بطولة أبى الطيب النضالية تأبى عليه أن يقيم على ذل ، أو أن يرضى بهوان وظلم ، وإنه عاش حياته مناضلا ، داعيا إلى النضال ، والإباء .

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ٣ صـ٣٦٨ وما بعدها .

فالموت فى عرفه وعرف كل أبى كريم خير من حياة ذليلة خانعة :

غير أنّ الفتى يلاقى المنايـــا كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانـــا
ولو أنّ الحياة تبقى لحــــى لعَدَدْنا أضلَّنا الشُّجْعانـــا
وإذا لم يكُنْ من الموت بــدٌّ فمن العَجْزِ أنْ تكون جبانا (١)

إنّ ذلك الكلام لا يمكن أن يصدر إلاّ عن عزيز ، أبى النفس ، مجبـــول على النضال والكفاح فى سبيل العزة والشرف واسترداد الحقوق الضائعـــة وإنها أبيات تجسد بطولة قائلها النضالية ، وحبه وعشقه لذلك النضال .

إن السيف فى عرف أبى الطيب هو قاضى حاجات كل مناضل فى هـذه الحياة فبغيره لا تقضى حاجة ، وبدونه لا يصل المناضلون إلى ما يبغون :

مازلتُ أُضحِكُ إبْلى كلّما نظرتْ إلى مَنْ اخْتضبتْ أخْفافُها بدمِ
أُسيرُها بين أصنامٍ أشاهدُهـا ولا أشاهدُ فيها عِفّةَ الصنَـــمِ
حتى رجعتُ وأقلامى قوائلُ لى المجدُ للسيفِ ليسَ المجدُ للقلمِ
اكتبْ بنا أبداً بعدَ الكتابِ بـه فإنّما نحنُ للأسيافِ كالخدَمِ
أسْمعتِنى ودوائى ما أشرتُ بـه فإنْ غفلتُ فدائى قلّةُ الفهـــمِ
من اقتضى بسوى الهنْدىِّ حاجتَـــهُ
أجابَ كلَّ سؤالٍ عَنْ هَلٍ بلَــمِ (٢)

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ٢٤٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

إن الحوار الذى يديره أبو الطيب فى هذه الأبيات مع أقلامه والحكم التى يسوقها على لسان هذه الأقلام ، كل ذلك نابع من داخله ، وصادر عن تجربة تحركها بطولة النضال فى نفس ذلك الشاعر الذى جبل على النضال والتزمه نهجا ، وطريقا فى هذه الحياة .

ومثلما عاش أبو الطيب حياته يناضل ضد حكام البلاد الأعاجم فقد عاش حياته — أيضا — وكما قلت من قبل — يناضل الزمن نفسه — الذى يراه دائما له بالمرصاد :

ليس التعللُ بالآمالِ من أربى ... ولا القناعةُ بالإقلال من شِيَمى
وما أظنّ بناتِ الدهرِ تتركُنى ... حتى تَسُدَّ عليها طُرْقَهَا هِمَمِى (1)

وهكذا يرى أبو الطيب أن الدهر له بالمرصاد تترصده خطوبه ولكنه لا يعرف اليأس ، فإنّ له من همه ما يستطيع أن يكشف به صروف دهره ونوائبه .

ويطول نضال أبى الطيب ضد زمنه كما طال نضاله ضد من حكموا البلاد من الأعاجم ويطول — تبعا لذلك — تغنيه بنضاله ضد ذلك الزمن :

أمثلى تأخذُ النكباتُ منهُ ... ويجزعُ من ملاقاةِ الحِمَامِ
ولو برزَ الزمانُ إلىّ شخصاً ... لخضّبَ شعرَ مَفْرِقِه حُسَامِى
وما بلغتْ مشيئتَها الليالى ... ولا سارتْ وفى يدِهَا زِمَامِى (2)

إنّ أبا الطيب الواثق من نضاله ، يعلم تمام العلم أن الزمن مهما أوتى من قوة وبطش لن يستطيع أن ينال منه ، مادام مصرا على نضاله ، مالكا كل أسباب ذلك النضال .

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ٣٩ .
(2) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥ .

إن الأبيات الثلاثة السابقة تجسد البطولة النضالية لأبى الطيب وخاصة البيت الأخير منها الذى يؤكد أبو الطيب من خلاله ضعف الزمن ، وقوة نفسه

وتطول المعركة بين الزمن وبين أبى الطيب ، ويطول صبر أبى الطيب وتصميمه على نضال الزمن الذى يتخيله الشاعر عدوا حقيقيا يحتاج أبو الطيب فى نضاله له إلى عُدة ، وعتاد وجيوش ، وخيول :

أَذاقَنِي زَمَني بلْوى شَرِقْتُ بها | لَوْذاقها لبكَى ما عاشَ وانتَحَبَا
وإنْ عمرتُ جعلتُ الحربَ والدةً | والسَّمْهَرِيَّ أخًا والمشرفيَّ أبَا
بكلِّ أشعثَ يلقى الموتَ مبتسمًا | حتى كأنَّ له فى قتْله أربَا
قُحٍّ يكادُ صهيلُ الخيل يَقذفُه | مِنْ سَرْجِه مَرَحًا بالعزِّ أو طربَا
فالموتُ أعذرُ لى والصبرُ أجملُ بى | والبَرُّ أوسعُ والدنيا لِمَنْ غَلبَا (١)

إن الموت فى ساحة القتال لأعذر لأبى الطيب من أن يموت ذليلا ، وإنَّ الصبر لأجمل به لأن الجزع عادة اللئام ، وإن الدنيا لمن غالب ، وزاحم لالمن لزم بيته ، وآثر السلامة مع الذل والهوان ، وهذا هو منطق كل مناضل حر كريم وإن أبا الطيب عاش حياته ضاربا فى آفاق الأرض ، متنقلا من مكان إلى مكان ومن قطر إلى قطر ، ينزل بالمكان ويظل به ما دامت كرامته محفوظة ، وهيبته مصونة ، فإذا ما أحس بما يخدش هذه الكرامة ويسيء إلى تلك الهيبة ، ترك المكان لا يلوى على شيء . وإنَّ تنقل أبى الطيب من مكان إلى مكان ، يُعَدُّ نضالا فى مواجهة الزمن وخطوبه ، وأبو الطيب نفسه يعلم ذلك ، ويردد كثيرا على أنه تجسيد لبطولته النضالية ضد الزمن وأحداث الحياة :

أشدُّ الغمِّ عندى فى سُرورٍ | تَيقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا
ألِفتُ ترحُّلى وجَعلتُ أرضى | قُتُودى والغُرَيْرِيَّ الجُلالا
فما حاولتُ فى أرضٍ مُقامًا | ولا أزمعتُ عن أرضٍ زَوالا
على قلقٍ كأنَّ الريحَ تحتى | أوجِّهُهَا جنوبًا أو شمالا (٢)

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى جـ١ ص ١٢٠ ، ١٢١
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

ويتكرر هذا المعنى كثيرا فى أشعار أبى الطيب ، مجسداً من خلاله بطولته النضالية ، وقوته فى مواجهة الزمان الذى خيل للشاعر أن كل شيء فيه عدو له ، يتربص به ، وينتهز الفرصة للقضاء عليه ، ولكن أبا الطيب يصمم على نضاله متنقلا ، من مكان إلى مكان ، معرضا نحره للرماح ووجهه للهجير ، ساريا فى ظلام الليل وحده ، طالبا حاجته التى يعز على غيره أن يصل إليها ، أو أن يبلغ منها مايريد :

أوانًا فى بيوتِ البدْوِ رَحْلِى | وآونةً على قَتَدِ البعيرِ
أعرِّضُ للرماحِ الصُّمِّ نحرى | وأنصِبُ حُرَّ وجهى لِلْهجيرِ
وأسْرى فى ظلامِ الليلِ وحدى | كأنِّىَ مِنْهُ فى قمرٍ منيرِ
فقلْ فى حاجةٍ لمْ أقضِ منها | على شَغَفى بها شَرْوَى نقيرِ
ونفسٍ لا تُجيبُ إلى خسيسٍ | وعينٍ لا تُدارُ على نظيرِ
وكفٍّ لا تنازِعُ مَنْ أتانى | ينازِعُنى سِوَى شَرَفى وخيرى
وقلّةِ ناصرٍ جُوزِيتَ عنّى | بشرٍّ منك ياشرَّ الدّهورِ
عدوّى كلُّ شيءٍ فيك حتّى | لخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصّدورِ (1)

وعلى الرغم من أن أبا الطيب لم ينل من زمنه ما أراد ، وعلى الرغم من قلة ناصره ، وعداوة دهره له إلا أنه لا يزال يرى نفسه وحيد دهره وفريد عصره ، فظل يناضل الحكام ، والزمن ، واليأس حتى ملأ الدنيا وشغل الناس ، وها هو ذا يتحدى الدنيا أن تفعل ما تشاء ، فهو الواثق من نفسه وهو القادر على النضال ، مهما كان الزمن عاتيا :

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ، ج2 ، ص 142 ، 143

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما (١)

ويظل أبو الطيب مواجها دهره بشجاعة وثبات ، فطالما تمرس بأزمات الزمن ، ونوائب الحياة فما اعتاد إلا على الإقدام غير هياب ، ولا وجل :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي ... وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول أمات الموت؟ أم ذعر الذعر ؟
وأقدمت إقدام الأتي كأن لي ... سوى مهجتي أو كان لي عند ها وتر (٢)

وهكذا تتجسد من خلال هذه الأبيات بطولة أبي الطيب الذاتية في مواجهة دهر قاس ، عات لا يستطيع مواجهته إلا كل مناضل قوي ، جبار ، عتيد .

ويطول تعقب الدهر لأبي الطيب الذي يزيد صموده للدهر يوما بعد يوم ، حتى اعتادت نفسه ذلك ، وهانت في عينيه مصائب الدهر ، ونكباته فلم يعد يوليها اهتماما ، لأنه يعلم تماما أن الدهر مهما عظم عداوه له فلن يستطيع أن يقهره :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج٤ ص ١٠٩
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٨ .

وهانَ فما أُبالى بالرَّزايا ... لأنِّى ما انْتفَعتُ بأنْ أُبالى (١)

والأبيات تجسيد لبطولة أبى الطيب النضالية ضد الزمن الذى يلاحق أبا الطيب بسهامه ونباله ، والذى يقف له بالمرصاد يطارده عن كل ما يهم به :

أهمُّ بشيىءٍ والليالى كأنَّها ... تُطاردُنى عن كَوْنِه وأُطارِدُ
وحيدٌ من الخلَّانِ فى كلِّ بلدةٍ ... إذا عَظُمَ المطْلُوبُ قلَّ المُساعِدُ (٢)

وهكذا تطارد الأيام أبا الطيب عن أهدافه ، وغاياته ، ولكنه يرد على مطاردتها إياه بمطاردة مثلها تشهد له بنضاله لها ، وصموده فى مواجهتها ، وتصميمه على هذا النضال ، وذلك الصمود ، ويسوق أبو الطيب فى ختام هذين البيتين هذه الحكمة الصادرة عن تجربته التى تحركها بطولته النضالية ، التى لا تخنع ، ولا تتراجع عما تطلب مهما عظم مطلوبها ، وقل من يعينها على بلوغه والوصول إليه ، وهذا هو سر عظمة هذه البطولة .

إن سر عظمة أبى الطيب ذلك المناضل هو بعد غاياته ، وآماله اللا محدودة ، التى تكلفه التهجير فى كل مَهْمَهٍ ، والانتقال من مكان إلى مكان ، سعيا وراء غاية بعيدة ، ومطلب ناء عسير :

وفى الناسِ مَن يَرضَى بمَيسُورِ عَيْشِه ... ومَركَبُهُ رِجْلاهُ والثوبُ جِلْدُهُ

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج٣ ص ٩ ، ١٠ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٧٠ .

ولكنّ قلباً بين جنبيّ ماله مدًى ينتهي بي في مراد أحدّه
يرى جسمه يُكسى شفوفاً تربّه فيختار أن يُكسى دروعاً تهدّه
يكلفني التّهجير في كل مهمه عليقي مراعيه وزادي ربده (١)

إن أبا الطيب قد أتخذ من نضال الحكام الفاسدين ، والزمن والناس طريقا ، ومنهاجا يبغى من ورائه سلامة عرضه ، ويهون عليه كل مايلقاه في هذا السبيل :

وإنّا لنلقى الحادثات بأنفس كثيرُ الرزايا عندهنّ قليلُ
يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراضٌ لنا وعقولُ (٢)

ويطول نضال أبي الطيب للزمن ، وعلى الرغم من ذلك النضال المستمر والمتلاحق إلا أن نفسه لا تشيب ، وقوته لا تضعف ، فلم يستطع الدهر بما أوتي من قوة أن يغير شيئا مما جبلت عليه نفس أبي الطيب ذلك المناضل العنيد :

وفي الجسم نفسٌ لا تشيبُ بشيبه ولو أنّ ما في الوجه منه حرابُ
لها ظفرٌ إن كلّ ظفرٌ أعدّه ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابُ
يُغيّرُ منّي الدهرُ ما شاءَ غيرها وأبلغُ أقصى العُمرِ وهي كعابُ (٣)

والأبيات تجسد بطولة أبي الطيب النضالية ، فهو يعد عدته لنضال الزمن فيجد د ظفر نفسه ، ونابها ليظل على استعداد لمواصلة ذلك

(١) ديوان أبي الطيب بشرح العكبري ج ٢ ، ص ٢٣ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٠٩ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ، ص ١٩٠ .

النضال ، الذى جبل عليه ، واتخذه ديدنه فى هذه الحياة .

ويواصل أبو الطيب تغنيه ببطولته النضالية فى مواجهة الزمن وكأنه فى معركة حقيقية مع عدو لا يكف عن معاداته ، والكيد له :

تركنا لأطرافِ القنا كلَّ شهوةٍ فليس لنا إلاّ بهنَّ لِعابُ
نصرّفه للطعنِ فوقَ حَوَاذِرٍ قد انقصفتْ فيهنَّ منه كِعابُ
أعزُّ مكانٍ فى الدُّنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ فى الزّمانِ كِتابُ

وهكذا يختتم أبو الطيب هذه الأبيات بهذه الحكمة " أعز مكان فى الدنى سرج سابح " وهى حكمة أملتها عليه ظروف حياته النضالية ، وهى تجسيد لبطولة مناضل لم يجد سبيلا يضمن له العزة إلا سبيل النضال هذه ، فيه يعيش المرء عزيزا مهيب الجانب .

وتعلق أبى الطيب بالعزة ، والسؤدد جعله فى نضال مستمر ووجد سعادته فى ذلك النضال ، فى الوقت الذى وجد فيه غيره سعادتهم فى اقتناص لحظات اللذة فى هذه الحياة :

لولا العلى لم تجُبْ بى ما أجوبُ بها
وجناءُ حرفٌ ولا جرداءُ قيدودُ
وكان أطيبَ من سيفى مضاجعةً
أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأماليدُ
لم يتركِ الدهرُ من قلبى ولا كبدى
شيئًا تتيمه عينٌ ولا جيدُ (١)

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج٢ ص ٣٩ ، ٤٠ .

وعلى الرغم من كيد الزمن لأبى الطيب ، وما قابل ذلك الكيد من صبر وصمود ، ونضال من جانب الشاعر الذى أحس (أو هكذا تخيل) ، أن الزمن على الرغم من كيده له ، إلا أنه لم يملك إلا أن يعجب من ذلك المناضل الذى رفض الخضوع له ولسطوته :

سبحانَ خالقِ نفسى كيفَ لذَّتهـا
فيما النفوسُ تراه غايةَ الألـم

الدهرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمْلِى نوائبـه
وصبرِ جِسْمِى على أحْداثِهِ الحُطُم (١)

وإذا كان أبو الطيب قد عاش حياته مناضلا ضد حكام البلاد من الأعاجم ، وضد الزمن والناس ، فإن المرض من مصائب الزمن ونكباته ، ولقد قُدِّر لأبى الطيب أن يناضل المرض ، وأن يصبر على مواجهته حين ألمت به الحُمَّى فى مصر :

أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائى ... تَخُبُّ بى المطىُّ ولا أمامى
وملَّنِىَ الفِراشُ وكان جَنْبِى ... يملُّ لقاءَهُ فى كلِّ عام
قليلٌ عائدى سَقِمٌ فؤادى ... كثيرٌ حاسدى صَعْبٌ مرامى
عليلُ الجسمِ ممتنعُ القيام ... شديدُ السُّكرِ من غيرِ المُدام
وزائرتى كأنَّ بها حياءً ... فليس تزور إلَّا فى الظلام
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا ... فعافَتْها وباتَتْ فى عِظامى
يضيقُ الجِلدُ عنْ نَفسِى وعَنْها ... فتوسعُهُ بأنواعِ السَّقام

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ١٦٣ .

إذا ما فارقتني غسلتـني | كأنا عاكفان على حـرام
كأن الصبح يطردها فتجري | مدامعها بأربعة سجـام
أراقب وقتها من غير شـوق | مراقبة المشوق المستهـام
ويصدق وعدها والصدق شـر | إذا ألقاك في الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنـت | فكيف وصلت أنت من الزحـام
جرحت مجرحا لم يبق فيـه | مكان للسيوف ولا السهـام (1)

وهي أبيات تجسد بطولة أبي الطيب النضالية، ففي كل بيت منهـا نحس النضال، ونستشعره، نحس به ونستشعره في ملل الفراش إيـاه وفي سقم فؤاده، وفي امتناع قيامه، وفي استقباله لزائرته كل مسـاء واستعداده النفسي لذلك الاستقبال، وفي بذله المطارف لهـا ومحاولة التغلب عليها، وفي سريانها بين جلده وعظامه، وفيما يتصبب منه من عرق كل صباح عند مفارقة الحمى إياه وفي مراقبته وقتها بشيء من الملل والضيق، وفي جراحه التي لم يخل منها مكان من جسده.

إن الأبيات تجسد معاناة أبي الطيب، ونضاله لمرضه الذي ألم بـه ولكن على الرغم من هذه المعاناة التي طالت، وطال تجسيد أبـي الطيب لها، إلا أن الشاعر المناضل لم يضعف ولم تهن عزيمته في مواجهة ذلك المرض، بل ظل قويا عتيدا واثقا أن قوة نفسه كفيلة أن تواجـه المرض، وأن تنتصر عليـه:

فإن أمرض فما مرض اصطباري | وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكـن | سلمت من الحمام إلى الحمام

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤، ص ١٤٥ وما بعدها

وهذه الحكمة التى يختتم بها أبو الطيب حديثه عن مرضه ، وتصويره لنضال ذلك المرض ، هذه الحكمة ، مستقاه من تجاربه النضالية فهى بثّرقوته ، وهى دافعه إلى النضال المستمر والمتلاحق مع الزمن ، والناس لأنها تجسد إيمانه العميق بأن لكل أجل كتابا ، وأن العمر لا يطيله جبن ، ولا يقصر منه إقدام ، أو شجاعة ، ومثلما ناضل أبو الطيب حكام البلاد الأعاجم ، وناضل الزمن مواجها مصائبه ونكباته ، فقد ناضل الناس كذلك ، أولئك الذين حسدوا عليه مكانته وكادوا له ، وتعقبته وشاياتهم فى كل مكان حل به ، وتتجسد من خلال أشعار أبى الطيب بطولته النضالية ضد هؤلاء الحساد ، والشانئين من الناس :

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عنّى بِكَبْتِهِمْ
فأنتَ الذى صَيَّرْتَهُمْ لِىَ حُسَّدَا

اذا شَدَّ زَندى حسنُ رأيك فى يَدى
ضربتُ بنصلٍ يقطعُ الهامَ مغمدا

وما أنا إلا سَمْهَرِىٌّ حملتَهُ
فزيَّنَ معروضا وراعَ مسدَّدَا

وما الدهرُ إلا منْ رواةِ قلائدى
إذا قلتُ شِعْرًا أصبحَ الدَّهرُ مُنْشِدَا

فسار به من لا يسيرُ مشمِّرا
وغنَّى به من لا يغنِّى مغرِّدا (1)

وهكذا لا يرى أبو الطيب نفسه إلا مناضلا حتى وهو بين الشعراء ،

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج١ ص ٢٨٩ ومابعدها .

فهو لا يقول شعرا وإنما يضرب بنصل يقطع الهام وهو مغمد ، فالأبيـــات أشبه بتصوير معركة منها بالحديث عن حساد أو وشاة .

والمعركة الدائرة بين أبي الطيب وحساده مستعرة لا تنقطع ، وهـــو يحس بأنه كل يوم في نضال مع هؤلاء الحساد من الشعراء الذين يحاول كل واحد منهم أن يقاوي أبا الطيب ، وأن يطاوله وما منهم إلا ضعيـــف أو قصـــير :

أفي كلِّ يومٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطـــاولُ
لساني بنطقي صامتٌ عنه عـادلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هـازلُ
وأتعبُ مَنْ ناداك من لا تُجيبُه وأغيظُ من عاداك من لا تُشاكِـلُ
وما التِّيهُ طِبِّي فيهمُ غيرَ أنَّـني بغيضٌ إليَّ الجاهلُ المُتَعَاقِـلُ(1)

فأبو الطيب وإنْ بدا من خلال هذه الأبيات صامتا ساخرا من هؤلاء الأعداء ، استخفافا بهم وازدراء لهم ، إلا أنه يناضلهم من خلال هـذا الازدراء ، وذلك الاستخفاف ، فليس كل نضال يكون بالسيف والرمـــح فهناك النضال باللسان ، وهناك النضال من خلال الصمت ، وأحيانـا يكون من أقسى أنواع النضال :

وأتعبُ مَنْ ناداكَ مَنْ لا تُجيبُـهُ وأَغْيَظُ مَنْ عاداكَ مَنْ لا تشاكِـلُ

أليس هذا نضالا ؟ بل من أقسى وأشد أنواع النضال ؟ أن يـــزدري الإنسان عدوه فلا يعيره اهتماما ، إمعانا في إغاظته وإثارة حفيظته .

---

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ١١٧ .

إن أبا الطيب عرف النضال بأنواعه وأشكاله ، واستخدم هذه الأنـواع وتلك الأشكال فى نضاله للحكام غير الشرعيين ، وللزمن ، وللناس ، ولكن الأمر فى اختياره لكل عدو ما يشاكله من أنواع النضال متوقف على ذلـك العدو نفسـه .

ويكثر حساد أبى الطيب ، وشانئوه ، وهذا قدر كل عظيم فى هـذه الحياة ، وتطول ـ تبعا لذلك ـ رحلة نضاله مع هؤلاء الحاسديـن والشانئين ، ميصور أبو الطيب ذلك من خلال أشعاره المتعددة فـى حاسديه ، وشانئيه ، والحاقدين عليه :

وإنّي وإنْ لُمْتُ حاسديّ فمَا أُنْكِرُ أنّي عقوبةٌ لهُـم
وكيفَ لا يُحْسَدُ امرؤٌ عَلَـمٌ له على كلِّ هامةٍ قَـدَمُ
تهابه أبْسُأُ الرجـالِ بـه وتتّقي حَدَّ سَيْفِهِ البُهُـمُ (١)

وهى أبيات تجسد هى الأخرى بطولة " أبى الطيب " النضاليـة وهيبة حساده له ، أولئك الذين يرى أبو الطيب أنه إنما خلق فى هـذه الحياة عقوبة لهم ، إذ لا يكف عن نضالهم ، والوقوف لهم بالمرصـاد يصدهم إذا ما زاحموه ، ويسكتهم إذا ما نطق :

أنَا صخْرةُ الوادي إذا ما زُوحِمَتْ وإذا نَطَقْتُ فإنّني الجَـوْزاءُ
وإذا خَفِيتُ على الغَبيِّ فعَـاذِرٌ أنْ لا تَراني مُقْلَةٌ عمْيَـاءُ (٢)

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٥ .

ويواصل أبو الطيب نضاله لحساده من المستشاعرين ، فاضحا إياهم ومعريا لهم :

خليليَّ إنّي لا أرى غيرَ شاعرٍ فلِمْ منهُمُ الدعوى ومنّي القصائدُ (١)

ويواصل إلى جانب ذلك ازدراءه لهولاء الحساد ، واستخفافه لهم ثم قسوته عليهم بعد ذلك وهى ألوان وضروب من النضال الذى جبلت عليه نفس أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صممُ
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصمُ
وجاهل مده فى جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفمُ (٢)

والبيت الاخير يجسد بطولة أبى الطيب النضالية فى مواجهة حاسديه وشانئيه من أولئك المتشاعرين ، الذين ظل أبو الطيب يناضلهم طوال حياته .

ويظل أبو الطيب متعقبا خصومه ، وحساده من الشعراء ، يلهبهم بلسانه ، مناضلا إياهم ، كاشفا عوارهم ، وضعفهم :

شرُّ البلاد بلادٌ لا صديق بها وشرُّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ
وشرُّ ما قنصته راحتى قنصٌ شهب البزاة سواء فيه والرخمُ

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ١ ص ٢٧١ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

بأيّ لفظٍ تقولُ الشّعْرَ زِعْنِفَةٌ ... تَجوزُ عندكَ لا عُربٌ ولا عَجَمُ(١)

وتظل عداوة هؤلاء الحاسدين تؤرق أبا الطيب ، ولكنه لا يكف عن نضالهم ، ومواجهتهم :

أنا السَّابِقُ الهادِي إلى ما أقولُه ... إذِ القولُ قبلَ القائلِين مقولُ
وما لِكلامِ النّاسِ فيما يُريبُني ... أُصُولٌ ولا للقائليه أُصُولُ
أُعادَى على مايوجِبُ الحبَّ للفتَى ... وأهدأُ والأفكارُ فيَّ تجُولُ
سِوى وجعِ الحُسّادِ داوِ فإنّه ... إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحُولُ
ولا تَطْمعَنْ مِنْ حاسِدٍ في مَودَّةٍ ... وإنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وتُنيلُ(٢)

وهذه الوصية ، أو هذه الحكمة التى يختتم بها أبو الطيب هذه الأبيات ، صادرة عن تجربته التى اكتسبها بعد طول نضال مع الزمن والناس ، فهذه الحكمة هى فى واقع الأمر دعوة غير مباشرة - إلى مواصلة النضال مع الحاسدين ، والشانئين الذين يستبعد أن تعود مودتهم من جديد ، فهى تجسيد لبطولة أبى الطيب النضالية التى عرف بها وعرفت عنه ، واشتهر بها بين الناس .

وأبو الطيب يؤكد أنه لا يريد بنضاله هذا كمد حساده ، ولكن النضال شيء متأصل فيه فهو بحر زاخر هائج ، ومن فكر فى أن يزحم ذلك البحر فلابد أن يغرق :

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٣ ص ٣٧٣ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

أذمّ إلى هذا الزمانِ أهيلَهُ ... فأعلمُهم فَدْمٌ وأحزمُهم وغدُ
وأكرمُهم كلبٌ وأبصرُهم عمٍ ... وأسهدُهم فَهْدٌ وأشجعُهم قِردُ
ومِنْ نكدِ الدُّنيا على الحرِّ أنْ يرَى ... عدوًّا له ما مِنْ صداقتِه بُدُّ (١)

وهكذا يعيش أبو الطيب حياته مناضلا ضد من حكم بلاد المسلمين من الأعاجم ، الذين اغتصبوا الناس حقوقهم ، وضد الزمن نفسه ، الذى وقف لأبى الطيب بالمرصاد ، وضد حساده ، وشانئيه والحاقدين عليه من شعراء عصره ، وغيرهم ، واستطاع أبو الطيب من خلال أشعاره ، أن يصور بطولته النضالية التى تجسدت حتى استحق أبو الطيب بها أن يمثل البطولة النضالية بين شعراء القرن الرابع الهجرى .

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ١ ص ٣٧٤، ٣٧٥ .

الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني
بين
بطولة النصر و جرح الهزيمة

الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني بين بطولة النصر وجرح الهزيمة

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي ، وهو ابن عم سيف الدوله الحمداني أمير حلب . (١)

يقول عنه صاحب اليتيمة : " كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدبا وفضلا ، وكرما ، ونبلا ، ومجدا ، وبلاغة ، وبراعة ، وفروسية ، وشجاعة وشعره مشهور ، سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف وعزة الملك " . (٢)

عاش أبو فراس في أوائل القرن الرابع الهجري ، وكتب له أن يعيش أحداث ذلك القرن ، هذه الأحداث التي تمثلت في الفوضى والفساد الذي عم البلاد في تلك الفترة الزمنية ، التي صاحبتها ثورات سياسية وما تبع ذلك من تنافس بين الأمراء في سبيل الإمارة .

لزم أبو فراس منذ طفولته ابن عمه سيف الدوله بن حمدان أمير حلب فتربى في بيت من بيوت الملك ، وورث الإمارة عن أبيه وإن كان قد بدأ حياته يتيمًا ، بعد أن مات أبوه وهو في الثالثة من عمره إلّا أن ابن عمه

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ــ طبعة الحلبي ــ ج ١ ص ١٢٧

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٥٧ .

وزوج أخته سيف الدوله قد تولى تربيته ، وأحاطه برعايته ، وأبو فـــراس نفسه يذكر ذلك كثيرًا عارفا لسيف الدولة ذلك الفضل ، فهو مربيه وراعيه :

هلْ للفصاحةِ والسمـــــا ... حةِ والعلى عنى محيـــدُ ؟
إذْ أنتَ سيّدى الـــذى ... ربّيْتنى وأبى سَعيـــدُ
فى كلِّ يوم أسْتفيدُ مـــنَ ... العــلاءِ وأستزيـــدُ
ويزيدُ فىَّ إذا رأيـــ ... ـتكَ فى النّدى خُلُقٌ جديـدُ (١)

ويشب أبو فراس فى بيت ابن عمه ذاك الأمير ، يرى كل يوم جيوشا تعد لقتال الروم ، ويسمع عن انتصارات باهرة حققها سيف الدولة على أولئـك الأعداء ، وينشأ أبو فراس تبعا لذلك نشأة حربية ، ويسرى حب القتـال فى شرايينه ، وما إنْ يشب حتى ينضم إلى صفوف ابن عمه سيف الدولـــه محاربا ماهرًا ، وحقق انتصارات باهرة مما جعل ابن عمه يثق فيه فكان يستخلفه على البلاد إذا خرج غازيا ، مثلما حدث حين استخلفه على الشام لمّـا عزم على الغزو ٠ (٢)

واصطناع سيف الدولة لأبى فراس ، ورعايته إيّاه خلقا منه فارسا كمـا جرب الوقائع وخاضها ، وتمرس بالقتال ، وبرع فيه وما إن يبلغ التاسعـة عشرة من عمره حتى يقلده ابن عمه سيف الدوله "مَنْبج" و "حرّان" ٠٠٠

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى عنى بجمعه ونشره وتعليق حواشيـــه ووضع فهارسه سامى الدهان ــ بيروت ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ ج ٢ ص ٧٢
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٦٠ ٠

وأعمالهما جميعا وتقليده " منبجا " مسئولية كبيرة وخطيرة ، إذ أنهما حصن حلب الحصين ، ولهما مكان مكين من نظام العواصم والثغور فالمهمة شاقة والمسئولية عسيرة ، ولكن أبا فراس على حداثة سنه فارس قادر على حماية هذه الإمارة والدفاع عنها ضد القبائل المغيرة ، وضد الروم التى لا تكف عن الغزو ، ويخوض أبو فراس مع هؤلاء وأولئك معارك ضارية ، يسجل فيها انتصارات عديدة تشهد له بالفروسية ، وحسن القيادة ، ويستشعر أبو فراس بطولة النصر فى نفسه ، ويسجل كل نصر يحققه على الروم ، وغيرهم فى شعره متغنيا بهذه البطولة التى استشعرها فى داخله ، وأحس أنه جدير بها على الرغم من حداثة سنه وعظم بطولته ، وكثرة انتصاراته التى حققها طورا تحت إمرة ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة بن حمدان ، وطورا حين تولى بنفسه قيادة الجيوش.

ويظل أبو فراس مواصلا حياة الحرب ، والقتال تارة مع القبائل الخارجة وتارة أخرى مع أعداء العروبة ، والإسلام من البيزنطيين .

وواحد كأبى فراس نبت فى بيت من بيوت الملك ، وتربى فى كنف أمير عربى ، أنف كريم ، كابن عمه وزوج أخته " سيف الدوله بن حمدان " ، وكتب له أن يحيا حياة الفوارس وارثا هذه الحياة عن جد ، وأب وأعمام وعشيرة وقبيلة — أقول — إن واحدا مثل أبى فراس لحرىٌّ بالبطولة ، وجدير بتحقيق النصر ، تلك البطولة ، وذلك النصر اللذان يضمنان لصاحبهما العزة والشمم ، والإباء .

ومما لا شك فيه : " أن الوراثة ، وحياة المرء الاجتماعية ، منذ نشأته

هما كل شيء في تكوين شخصيته ، وقد ورث شاعرنا الأمير عن أجداده وآبائه الشيء الكثير مما عرف به في هذا البيت العربي ، الكريم فكان مطبوع الفطرة على مثل الأخلاق العربية العليا ثم تداولت ظروف حياته هذه الفطرة السليمة الصافية ، فاتسقت معها تنميها ، وتغذيها فكانت رغباته قيد إرادة قوية ، ومجال واسع في الإمارة والرياسة لتحقيق ما تصبو إليه نفسه العظيمة ، لقد تيسر له — وهو الطامح إلى معالي الأمور — أن يباشر الحرب ، وقيادة الجيوش ، ويتقلب في ذرى الإمارة ، وهو ابن تسع عشرة سنة وهو إلى ذلك يجر وراءه ماضيًا ضخما ، وصيتا عريضا من تراث الآباء والأجداد ، ويحمل في قرارة نفسه عقيدة دينية صلبة ، تعرف نفسه معها ما لها وما عليها ، فنمت شخصيته واطمأنت خطوطها العامة في وضوح ، وصفاء . (١)

ظل أبو فراس — كما قلت — مواصلا حياة الحرب والقتال حتى شاءت له الأقدار أن يقع أسيرا في أيدي الروم " حين أسروه في بعض وقائعهم وهو جريح ، وقد أصابه سهم بقي نصله في فخذه (٢)

وهكذا قُدِّر لهذا الفارس الأمير ، الذي استشعر بطولة النصر كثيرا في نفسه، قُدِّر له أن يستشعر كذلك جرح الهزيمة ، وأن يحس ألم الإسار على الرغم من أن الروم أكبروا في أبي فراس بطولته ، وفروسيته ، وعرفوا له مكانته ، فأكرموه إكراما لم ينله أسير قبله في تاريخ الحروب ، إذ خلوا سلاحه ، وثيابه ، وأنزلوه قصرا كبيرا كان لامبراطورهم .

(١) أبو فراس الحمداني — السيد محسن الأمين الحسيني العاملي — مطبعة ابن زيدون — بدمشق — ١٣٦٠ هـ/ ١٩٤١م ، ص ١٢ .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ، ص ٨٥ .

واستطاع أبو فراس من خلال شعره أن يجسد بطولة نصره الذى حققه على الروم مرارا ، تلك البطولة التى تختلف فى كنهها ومفهومها مع بطولة أبى الطيب المتنبى النضالية التى تجسدت فى نضاله ضد المجتمع، والحياة وضد النفس البشرية .

أما بطولة أبى فراس فهى بطولة عسكرية ، أصَّلتها فى نفسه حياة النضال العسكرى ضد الروم وما حققه خلال ذلك النضال من انتصارات عسكرية عَمَّقت معنى البطولة فى نفسه الأبية الكريمة والشجاعة ، التى عشقت الحروب ورأت فيها سعادتها ، وهناءتها .

ومثلما استطاع أبو فراس أن يجسِّد من خلال شعره بطولته العسكرية وانتصاراته العديدة فقد استطاع كذلك أن يجسد جرح هزيمته حين وقع أسيرا فى أيدى أعدائه وأعداء العروبة ، والإسلام .

يجسد أبو فراس إحدى انتصاراتهم على الروم فى أبيات تتضمن كثيرا من معانى البطولة . تلك البطولة التى استشعرها أبو فراس فى داخله بما حقق من نصر تلو نصر :

وَلَمَّا وَرَدْنَا الدربَ والرومُ فوقَهُ   وقَدَّرَ قسطنطينُ " أنْ ليْسَ صادِرُ
ضَرَبْنا بِها عُرضَ " الفُراتِ " كأنَّما   تَسيرُ بنا تحْتَ السُّروجِ جَزائِرُ
إلى أنْ وَرَدْنا " أرْقَنينَ " نَسُوقُهَا
وَقَدْ نَكَلَت أعْقابُها والمَخاصِرُ
ومالَ بِها ذاتَ اليَمينِ " بِمَرْعَشٍ "
مَجاهيدُ يَتلوا الصابرَ المُتَصابِرُ
فَلَمَّا رأتْ جَيْشَ " الدُّمُستُقِ " راجَعَتْ   عَزائمَها واستَنْهَضَتْها البَصائِرُ

وما زلن يحملن النفوس على الوجى إلى أنْ خضبن بالدماء الأشاعرُ
وأبنَ "بقسطنطين" وهو مكبَّلٌ تحفُّ بطاريق بــــه وزراورُ
وولَّى على الرسم "الدمستقُ" هاربــا
وفى وجهه عذرٌ من السيف عـاذرُ
فدى نفسه بابن عليه كنفسـه وللشدَّة الصمَّاء تُقنَى الذخائرُ!
وقد يقطع العضوُ النفيسُ لغيره وتدفعُ بالأمر الكبير الكبائرُ! (١)

وهكذا يتغنَّى أبو فراس بانتصارات عديدة على الروم ذاكرا وقائع كثيرة ومعارك عديدة ، شهد تها مدن رومية كثيرة ، ثم يتغنَّى - إلى جانب ذلك بأسر - قسطنطين " ابن " الدمستق " ملك الروم الذى ولَّى هاربا ، وفى وجهه أثر خالد من سيوفهم سيشهد لبنى حمدان بالبطولة والنصر والشجاعة ما بقى " الدمستق " على قيد الحياة .

والأبيات تجسيد - كما قلت - لبطولة النصر ، تلك البطولة التى عاش أبو فراس يستشعرها ويحس بها ، ويرددها فى أشعاره كثيرا مجسدا إياها ، متغنيا بها :

هذا وكم من غمةٍ كشفتها بشبا الظُّبا وتوقد الخرصان
متجردا فردا بغير مساعد غير الجواد ومرهف وسنان
فإذا بطشت بطشت لينا باسلا وإذا نطقت نطقت عن تهتان
وإذا قصدت لحاجة لم يثننى خوف الردى وتصرف الأزمان (٢)

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى - تحقيق الدهان جـ٢ ص ١١٧ - ١١٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص

والأبيات تفيض بالبطولة الحربية ، والانتصارات العسكرية التى حققها أبو فراس فى ميدان القتال ، فكم من غمة كشفها ، متجردا ، فردا ليس معه غير جواده ، وسيفه ورمحه ، ونفسه القوية ، وقلبه الجرئ فهو يقصد لحاجته باطشا كالليث لا يهاب الموت ولا يحسب له حسابه ، وهذه كلها من مقومات البطولة العسكرية التى تضمن لصاحبها النصر فى ميادين القتال . ويكثر التغنى بالحروب فى شعر أبى فراس كثرة بالغة وظاهرة ، تلك الحروب التى سجل فيها انتصارات باهرة إمَّا تحت قيادة ابن عمه سيف الدولة ، أو حين كان يقود الجيوش فى مواجهة الروم ، أو القبائل العربية التى لا تدين بالولاء لسيف الدولة .

يذكر ابن خالويه أنَّ وقائع سيف الدولة قد كثرت فى كل صقع ، فتجمعت قبائل كندة نزاريها ، ويمانيها ، وتشاكت ما لحقها ، وتراسلت ، واتفقت على الاجتماع " بسلمية " لمقابلته ومناجزته ، وأوقعت بعامله " بقنسرين " فنهض سيف الدولة ومعه أبو فراس ، حتى أوقع بهم ، فهزمهم ، وقتل وجوههم ، وسراتهم ، وأتبع فلّهم ، وقدم أبا فراس فى قطعة من الجيش فما زال بهم يتبعهم ، يقتل ، ويأسر ، حتى ألحقهم بالغور " وظل سيف الدولة يتبع فلولهم حتى لحقهم " بتدمر " فقتلهم ، وأهلكهم عطشا ، ثم انكفأ سائرا إلى " نمير " وهى بالجزيرة ، فوجدها قد أخذت السهل ، ولحقته خاضعة ، ذليلة ، طائعة ، فصفح عنهم ، ونظم أبو فراس فى ذلك " بائيته " التى يتغنى فيها ببطولته العسكرية ، وانتصاراته المتلاحقة :

ولما اشتدّت الهَيْجاء كُنَّا ... أشدَّ مخالبًا وأحدَّ نابا
وأمْنَع جانبًا وأعزّ جارًا ... وأوفى ذِمَّةً وأقلَّ عابا
.. ..
.. ..
وملْنَا بالخُيُولِ على " نُمَيْر " ... تُجاذبُنا أعنّتها جذابا

دیارهم انتزعناها اقتسارًا ... وأرضهم اغتصبناها اغتصابا
ولو شئنا حميناها البوادى ... كما تحمى أسودُ الغاب غابا
إذا ما أنفذ الأمراء جيشًا ... إلى الأعداء أنفذنا كتابا
أنا ابن الضاربين الهام قدمًا ... إذا كره المحامون الضرابا
ألم تعلم ومثلك قال حقًا ... بأنى كنتُ أثقبها شهابا (١)

ويتجسد من خلال الأبيات إحساس الشاعر بجماعته وقومه فى استخدامه "نا" دائما إلا أنه يختتم الأبيات بالتغنى ببطولته هو :

ألم تعلم ومثلك قال حقًا ... بأنى كنتُ أثقبها شهابا

وكأنه صاحب كل هذه الانتصارات العظيمة التى حققتها جيوش سيف الدولة وهذا هو معنى البطولة الذى تعمق فى نفس أبى فراس واستشعره حتى تضخم عنده فأصبح لا يرى فى المعركة إلا نفسه فهو شهابها الثاقب بل أثقب شهبها على الإطلاق .

وهكذا لا يتردد فى أشعار أبى فراس إلا تجسيده لمعانى القوة والشجاعة والإباء ، والضرب ، والطعن ، والصفح ، والعفو فهو أمير ، وابن أمير ، وابن عم أمير عربى كريم حفظ للعرب هيبتهم ، فى زمن أضاع فيه الآخرون هذه الهيبة ، وهو فارس وابن فارس ومن سلالة فرسان ملوك ، سادوا فعدلوا وقاتلوا فانتصروا وسجلوا على الروم انتصارات باهرة وعديدة كتبوا بها للعرب صفحات مجد وفخار ، يفخر بها العرب ـ كل العرب لا الحمدانيون فحسب ، وظل أبو فراس متغنيًا بهذه المعانى ذاتها ، تلك التى تغنى

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ صـ١٤ وما بعدها .

بها فى " بائيته " السابقة ، معانى الانتصار ، والصفح ، والعفو فى قصيدة أخرى " لامية " حين اجتمع عليه قوم من العرب منهم " كثير بن عوسجة " و " جمهان بن عرفجة " وغيرهما ، فقاتلهم أبو فراس وانتصر عليهم ، وها هو ذا يتغنى ببطولته ونصره الذى حققه على قبيلة " كلاب " بموقع يقال له " بالس " :

سَلِى عَنَّا سَرَاةَ " بَنِى كِلَابٍ " ... " بِبَالِسَ " عِنْدَ مُشْتَجِرِ الْعَوَالِى
لَقِينَاهُمْ بِأَسْيَافٍ قِصَارٍ ... كَفَيْنَ مَؤُونَةَ الْأَسَلِ الطِّوَالِ
وَوَلَّى بِابْنِ عَوْسَجَةٍ " كَثِيرٌ " ... وَسَاعِ الْخَطْوِ فِى ضَنْكِ الْمَجَالِ
يَرَى " الْبَرْغُوثَ " إِذْ نَجَّاهُ مِنَّا ... أَجَلَّ عَقِيلَةٍ وَأَحَبَّ مَالِ
تَدُورُ بِهِ إِمَاءٌ مِنْ " قُرَيْطٍ " ... وَتَسْأَلُهُ النِّسَاءُ عَنِ الرِّجَالِ
يَقُلْنَ لَهُ السَّلَامَةُ خَيْرُ غُنْمٍ ... وَإِنَّ الذُّلَّ فِى ذَاكَ الْمَقَالِ
" وَجُمْهَانٌ " تَجَافَتْ عَنْهُ بِيضٌ ... عَدَلْنَ عَنِ الصَّرِيحِ إِلَى الْمَوَالِى
وَعَادُوا سَامِعِينَ لَنَا نُعُدْنَا ... إِلَى الْمَعْهُودِ مِنْ شَرَفِ الْفَعَالِ
وَنَحْنُ مَتَى رَضِينَا بَعْدَ سُخْطٍ ... أَسَوْنَا مَا جَرَحْنَا بِالنَّوَالِ (١)

والأبيات تجسد إحساس أبى فراس ببطولة النصر ، وتظهر من خلالها نغمة التعالى من ناحية ، وإحساس الشاعر بجماعته ، وقومه من ناحية أخرى ، إذ يحرص على استخدام " نا " دائما . كذلك يظهر من خلال هذه الأبيات ازدراء أبى فراس واحتقاره لبنى " كلاب " هذا الازدراء ، وذلك الاحتقار الذى يقابل نغمة التعالى عند ذلك الفارس ، البطل المنتصر .

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

وظفر أبو فراس ببنى " نمير " عندما أغار " فرج بن جحيش " و " مطعم ابن على الضبابى " فى خيل من بنى " نمير " على وادى " عين قاصرة " فركب أبو فراس من " منبج " وأغذّ السير حتى لحقهم فى نفر يسير ، فأسر " مرجا " وبارز " مطعما " ومعه السيف ، ومع " مطعم " الرمح ، فكر حتى سبقه إلى الفرات ، وأخذ الطرائد وانصرف .

وتغنى أبو فراس بما أصاب " بنى نمير " فى هذا اليوم ، متعرضا بالذكر لما أحدثه " ببنى كلاب " ، " ببالس " أولئك الذين سخر منهم فى الأبيات السابقة :

وَرَاءَكِ يَا نُمَيْرُ فَلَا أَمَـامُ ... فَقَدْ حُرِمَ الْجَزِيرَةُ وَالشَّـآمُ
لَنَا الدُّنْيَا فَمَا شِئْنَا حَـلالٌ ... لِسَاكِنِهَا وَمَا شِئْنَا حَـرَامُ
وَيَنْفُذُ أَمْرُنَا فِى كُلِّ حَـىٍّ ... فَيُدْنِيهِ وَيُقْصِيهِ الْكَـلَامُ

ثم يأخذ أبو فراس فى تذكير " بنى نمير " بما حدث لبنى كـلاب " ببالس " :

أَلَمْ تُخْبِرْكِ خَيْلُكِ عَنْ مَقَامٍ ... " بِبَالِسَ " يَوْمَ ضَاقَ بِهَا الْمُقَـامُ
وَوَلَّتْ تَتَّقِى بَعْضًا بِبَعْـضٍ ... لَهُمْ وَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ زِحَـامُ
سَرَوْا وَاللَّيْلُ يَجْمَعُنَا وَلَكِـنْ ... يَبُوحُ بِهِمْ وَيَكْتُمُنَا الظَّـلَامُ
إِلَى أَنْ صَبَّحَتْهُمْ بِالْمَنَايَـا ... كَرَائِمُ فَوْقَ أَظْهُرِهَا كِـرَامُ
مِنَ الْعَرِشَاتِ تَلْحَقُ مَا رَأَتْـهُ ... إِذَا طَلَبَتْ ، وَتُعْطِى مَا تُسَامُ
تُنَازِعُ بِى وَبِالْفُرْسَانِ حَوْلِـى ... تُجَفِّلُهُمْ كَمَا جَفَلَ النَّعَـامُ

ثم يعود أبو فراس مرة أخرى للحديث عن " بنى نمير " والتغنى بما أحدثه بأبطالهم ، حين أسر قائدهم " مرج بن جحيش " وولى " مطعم بن على "

ناجيا " بنفسه ، ويأخذ أبو فراس فى السخرية من " مطعم " حين هرب ، وآثر النجاة :

بطحنا منهم مرج بن جحش	فلم يقفوا عليه ولم يحاموا
أقول " لمطعم " لما التقينا	وقد ولى وفى يدى الحسام
" أتجمل بيننا عشرين كعبا	وتهرب سوءة لك ياغلام !
أحلكم بدار الضيم قسرا	همام لا يضام ، ولا يرام(1)

وهكذا تجسد هذه القصيدة بطولة أبى فراس ، وانتصاراته العديدة التى كفلت له هذه البطولة وضمنت له السيادة ، والقيادة ، والعزة ، ويظل أبو فراس ـ من خلال أشعاره ـ مجسدا بطولته وانتصاراته التى حققها باعتماده على سيفه ، ويده ، وقلبه فى مواجهة أعدائه ، وحسبه أن يلقى هؤلاء الأعداء بسيف ماض ، وقلب صامد ، فلا يحس بحاجة إلى ترس ، أو درع :

ألا من مبلغ سروات قومى	"وسيف الدولة" الملك الهماما
بأنى لم أدع فتيات قومى	إذا حدثن جمجمن الكلاما
شريت ثناءهن ببذل نفسى	ونار الحرب تضطرم اضطراما
ولما لم أجد إلا فرارا	أشد من المنية أو حماما
حملت على ورود الموت نفسى	وقلت لعصبتى موتوا كراما
وعذت بصارم ويد وقلب	حمانى أن ألام وأن أضاما
ولم أبذل لخوفهم مجنا	ولم ألبس حذار الموت لاما

(1) أبو فراس الحمدانى ـ تحقيق د . إبراهيم السامرائى ـ دار الفكر للنشر والتوزيع ـ عمان ص ١٦٠ .

كشفتُ بصدورِ الخيلِ عنّي   كما جُلِّيت في يومٍ نعامـا

أَلُفُّهمُ وأنشُرُهم كأنّي   أُطرِّدُ منهمُ الإبلَ السّواما

وبعد هذا التغنى الذى يجسد من خلاله شجاعته ، وإقدامه وإيثاره الموت على الفرار وكل ما من شأنه أن يكفل له النصر ، ويحقق له البطولة ، بعد هذا التغنى بمقومات النصر هذه ، يأخذ أبو فراس فى التغنى بما أصاب بفوارس أعدائه حين لقيهم وجها لوجه ، ينازلهم ، معتمدا فى نزالهم على يمينه ، لا على سيفه ، أو رمحه :

وأَنتقدُ الفوارسَ بعدَ أنّي   رأيتُ اللّومَ أنْ ألقى اللّئاما

ومدعوٍّ إليَّ أجابَ لمّا   رأى أنْ قد تذمّمَ واستلاما

عقدتُ على مُقلّدِهِ يميني   وأغنيتُ المُثقّفَ والحُساما[1]

وهذه — ولا شك — معان تتجسد من خلالها بطولة أبى فراس الحربية وانتصاراته العسكرية الملاحقة ، والمستمرة ، التى ضمنتها لهذا البطل الفارس شجاعته ، وقوة نفسه — وجرأة قلبه ، وإقدامه .

ولا ينسى أبو فراس انتصاراته العديدة ، على الروم ، فهو يذكرها من حين إلى آخر متغنيا بها ، مرددا ما سبق أن ردده كثيرا ، وتغنى به طويلا ، فالانتصار على الروم ليس أمرا سهلا هيّنا والروم هم ماهم فى قوتهم ، وشدة بأسهم ، وإنّ أعظم انتصار حققته جيوش سيف الدولة على الروم يوم أن ولّى " الدمستقُ " هاربا بعد هزيمة جيشه ، ووقوع أكثر رجاله أسرى فى أيدى أبى فراس ورفاقه ، ذلك الانتصار الذى تغنّى به أبو فراس طويلا مجسدا به بطولته الحربية ، وقدرته القتالية :

(1) أبو فراس الحمدانى — تحقيق السامرائى ص١٦٢ ، ١٦٣ .

لما برزنا للدمستق مــــرَّةً ورأى بوادر خيلنا كالأسهـم
طلب النجاة بنفسه فتحكمـت في جيشه الأسياف أي تحكـم
ماكان بعض قلوبنا في جسمـه فيكون أثبت من هضاب يلملـم
لولا الجواد الأدهم الناجي به أضحت قوائم رجله في الأدهـم
ولئن تجافوا جاله وحماتـه ما بين مصفود وبين مكلـم
لبسوا الحديد برغمهم وبودهم إن لم يكن ذاك الحلي عليهـم

وبعد هذا التصوير الدقيق للمعركة التي دارت مع الروم ، وانتهت بانتصار جيوش سيف الدولة التي كان أبو فراس واحداً من قوادها ، وبفرار "الدمستق ناجيا بنفسه ــ بعد هذا كله ــ يتذكر أبو فراس" خرشنة " وما أصابهـا حين هاجمها جنود سيف الدولة مشعلين النار في جنباتها ، فيأخذ فـي التغني بذلك ، مضيفاً نصراً إلى نصر ، وبطولة إلى بطولة :

سل أهل " خرشنة " تجبك نساؤهـم
كم ثاكـل منها وكم من أيـم
عهدي بها والنار في جنباتها وكأنها صدر المشوق المغـرم
كم ذات حجل ما رآها الناس قد برزت لأعينهم بأنف مرغـم (١)

وازدراء أبي فراس للروم ، واحتقاره لهم ، واستخفافه بهم ، المتمثل فـي قوله " تجبك نساؤهم " إنما هو تجسيد لبطولته وانتصاراته فالتهوين مـن شأن العدو تأكيد لبطولة المنتصر ، وتجسيد لها . والبيت الأخير مـن هذه الأبيات تأكيد لمدى الذل الذي أصاب الروم بعد هزيمتهم حـتى إن نساءهم اللائي ظللن عزيزات محجبات زمنا طويلا أرغمت أنوفهن حيـن

(١) أبو فراس الحمداني ــ السيد محسن الأمين العاملي ص ٩٢ ومابعدها

ذل أهلهن وقومهن ، والقائمون على أمرهن .

وتتعدد مواقع سيف الدولة وأبى فراس مع الروم ، وتتوالى انتصاراتهم وهزائم الروم، ويتوالى — تبعا لذلك — تغنى أبى فراس بهذه الانتصارات العديدة ، وتجسيده لبطولته ، وشجاعته ، وثباته ، من ذلك ما تغنى به أبو فراس مجسدا ما أبداه من شجاعة ، وثبات فى موقعة كانت بينهم ، وبين الروم ، حين هاون ملك الروم ، ملك البلغار ، والروس ، والترك ، والإفرنج وسائر الأجناس ، واستنجدهم لقتال "سيف الدولة" ، وأنفق من الأموال ما يعظم قدره ،وبلغ سيف الدولة خبره ، فجهز عساكره ، وأقام فى غلمانه ونفر للقاء بعض جيوش الروم فى الشام ، وأمر أبا فراس بالتقدم إلى الروم واشتدت الحرب، وكثر الأسر فى أصحاب أبى فراس ، ولكنه ظل يحارب حتى خلصهم ، وقال يصف هذه الموقعة ، وأثره فيها ، ويذكر أسر إخوته ، ويتغنى — إلى جانب ذلك — بصبر جنوده عند لقاء العدو ، وبما كان منه فى هذه الموقعة من صبر ، وثبات ، وبما أبداه من شجاعة ، وإقدام :

أَلَا هَلْ تُنْكِرُ يابْنَىْ "نِــزَارٍ" مَقَامِى يَوْمَ ذَلِكَ أَوْ مَقَالِـى ؟
أَلَمْ أَثْبُتْ لَهَا والْخَيْلُ فَوْضَى بِحَيْثُ تَخِفُّ أَحْلَامُ الرِّجَـالِ
تركتُ ذوابلَ المُرّانِ فيها مخضّبةً محطمةَ الأعالى
وعدْتُ أجرُ رمحى عنْ مقامٍ تحدّث عنه ربّاتُ الحجالِ
فقائلةٌ تقولُ : "أبا فراسٍ" أعِيذُ علاكَ منْ عينِ الكمالِ !
وقائلةٌ تقولُ : جُزيتَ خيرًا لقدْ حاميتَ عنْ حرمِ المعالى
ومُهْرِى لا يمسّ الأرضَ زهوًا كأنّ ترابَها قُطُبُ النِّبالِ
كأنّ الخيلَ تعرفُ منْ عليها ففى بعضٍ على بعضٍ تعالى

عَلَيْنا أَنْ نعاوِد كل يـــــوم رَخيص عِنْدهُ المُهَجُ الغَوالِـي
فإنْ عِشْنا ذَخَرْناها لأُخْـــرى وَإنْ مُتْنا فَمَوْتاتُ الرِّجـال (١)

وهكذا يجسد أبو فراس بطولته ، وانتصاره وكأنه وحده الذى أدار هذه المعركة مع الروم ، حين ثبت فى ذلك اليوم العصيب ، حاميا عن حريمــه دافعا عار الهزيمة ، عن قومه ، محققا نصرا عزيزا ضمن له البطولة والعــز ، وضمن لخيله الزهو والخيلاء ، فالخيل تعرف فوارسها ، وتتعالى علــى بعضها بأولئك الفوارس ، والكماة ، الذين يرخصون أرواحهم الغالية يــوم لقاء عدوهم فإمّا حياة كريمة ، وإمّا موت عزيز هو موت الرجال .

وتقع خيل لبنى " قُشير " على أبى فراس وهو فى خمسة عشر فارســا وتستقل " بنو قشير " عدد رجاله ، ولكنه يشد عليهم ، وينتزع ما معهــم ويسجل عليهم انتصارا لا ينسى أن يتغنى به مجسدا بطولته ، وشدتـــه وشجاعته وقوة بأسه :

أيا عجبا لأمْرِ بنى " قُشَيْــر " أراعونا ، وقالوا : القوم قُـــلُّ
وكانوا الكُثْرَ يومئذٍ ولكـــنْ كثُرنا إذْ تعاركنا وقلُّـــوا
وقال الهامُ للأجساد : هــذا يفرق بيننا إنْ لم تولُّـــوا
تولوا للقنا والبيض منهـــمْ وفى جيرانهمْ نَهَلٌ ، وعَـــلُّ
ورحْنا بالقلائِعِ كل نَهْـــدٍ مُطِلٍ فوقه نهدٌ مُطِـــلُّ (٢)

وعلى الرغم من قلة عدد رجال أبى فراس إلاّ أنهم كثروا فى أعين الأعداء عند القتال بما أبدوا من شجاعة ، وما أظهروا من ثبات ، وصبر ، وشد علــى أولئك الأعداء مما حقق لهم النصر ، وأكد لهم البطولة .

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٨٥ .

وإذا كانت البطولة الحربية قد توفرت لأبى فراس الحمدانى فإنها لم تتوفر له من فراغ وإنما وفرتها له مقومات ، وعوامل ،واستعداد نفسى تحتاجه هذه البطولة .

من هذا الاستعداد النفسى الذى تحتاجه البطولة وقد توفر لأبى فراس الحمدانى ،العفة ، والطهارة ، والشهامة ، والهمة ، وشجاعة القلب وعزة النفس وبعد غاياتها :

فيانفسُ ما لاقيتِ من لاعج الهوى
ويا قلبُ ما جرّت عليك النواظرُ !
ويا عفتى مالى ؟ ومالكِ ؟ كلما همَمْتُ بأمرٍ همّ لى منكِ زاجرُ !
كأنّ الحجا والصَّوْنَ والعقلَ والتقى
لدىَّ لرباتِ الخدورِ ضرائرُ
وهُنّ وإنْ جانبْتُ ما يشتهينه حبائبُ عندى مُنذُ كُنّ أثائرُ
وكمْ ليلةٍ خضْتُ الأسنّةَ نحوها وما هدأتْ عينٌ ولانامَ سامرُ !
يُصاحِبُنى نضْناضتانِ وصارمٌ وقلبٌ على خوضِ الحُتوفِ مُؤازرُ

وبعد أن يتغنى أبو فراس بعفته ، وتقاه ، وعقله ،وصونه ، وتقاه يتغنى كذلك بهمته وشجاعة قلبه ، وعزة نفسه ، وقوة عزمه ، وكلها كما قلت من عوامل الاستعداد النفسى الذى وفّر لأبى فراس بطولته العسكرية التى كفلت له ما حقق من نصر على أعدائه وأعداء الإسلام من الروم وعلى من خرج على طاعة سيف الدولة من القبائل العربية المجاورة لبنى حمدان :

نَفى الهمَّ عنّى همّةٌ عدويةٌ وقلبٌ على ما شئتُ منه مظاهرُ
وأسمرُ مما ينبتُ الخطُّ ذابلٌ وأبيضُ مما تطبعُ الهندُ باترُ
وقلبٌ يقرُّ القلبَ وهو محاربٌ وعزمٌ يقيمُ الجسْمَ وهو مسافرُ

ونفسٌ لها في كلِّ أرضٍ لُبانةٌ ... وفي كلِّ حيٍ أُسْرةٌ ومَعاشِرُ (١)

وتتردَّد في أشعار أبي فراس – كثيرا – مقومات بطولته هذه ، واستعداداته النفسية لهذه البطولة وخاصة نفسه الأبية ، وبعد غاياتها وهمته القوية :

تَلاعَبُ بي على هُوج المطايا ... خلائقُ لا تقرُّ على الصغار
ونفسٌ دونَ مَطْلَبِها الثُّريا ... وكفٌّ دونَها فيضُ البحار
أرى نَفْسي تُطالِبُني بأمرٍ ... قليلٍ دونَ غايته اقْتِصاري
وما يُغْنيكَ مِنْ هِمَمٍ طِوالٍ ... إذا قُرِنَتْ بأعمارٍ قصارِ (٢)

والبيت الأخير يجسد تحسر أبي فراس على همم كبيرة ، لا تستطيع تحقيق كل ما تصبوا إليه ، اذ يحول قصر الأعمار بينها وبين تحقيق غاياتها وأهدافها ، ففي البيت استيحاء ، ونظر على البعد ، وكأن أبا فراس على حد تعبير د . الشكعة : " يحس بأنه قصير العمر ، فقرأ في لوح القدر منيته التي عاجلته ، ولم يتعد السابعة والثلاثين من عمره ، حين قتله " قَرْغُويه " غلام سيف الدولة ، بعد سنة واحدة من موت سيده ، في معركة غادرة في حمص سنة ٣٥٧ هـ " (٣)

ويظل أبو فراس يعدد مقومات بطولته ، تلك المقومات التي كفلت له الاستعداد النفسي الذي ضمن له البطولة العسكرية ، التي حققت له الانتصارات المتلاحقة :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني – تحقيق الدهان جـ٢ صـ ١٠٥ – ١٠٦
(٢) المصدر السابق صـ ٢٢٦ .
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين د . مصطفى الشكعة – مكتبة الأنجلو المصرية صـ ١٧٠ .

عليّ لكل هم كل عيس أمون الرحل موخدة القفار
وخرّاج من الغمرات خرق أبو شبلين محمىّ الذمار
شديد تجنب الآثام وافٍ علاته عفّ الإزار
فلا نزلت بى الجيران إن لم أجاورها مجاورة البحار
ولا صحبتنى الفرسان إن لم أصاحبها بمأمون الفرار
ولا خافتنى الأملاك إن لم أصبحها بملتف الغبار
بجيش لا يحل بهم مغير ورأى لا يغبهم مغار
شددت على الحمامة كور رحلى بعهد حله دون السرار
تحف به الأسنة والعوالى ومضمرة المهارى والمهارى
بعدن بعيد طول الصون سعيا لما كلفن من بعد المغار
وتخفق حولى الرايات حمرا وتتبعنى الخضارم من نزار
عزيز حيث حط السير رحلى تداريني الأنام ولا أدارى (1)

وهكذا تتجلى فى هذه الأبيات قوة أبى فراس ، وشدة عزمه ، وشجاعته وشجاعة قلبه ، وعظم همته ، وقيادته للجيوش ، عزيزا ، مهيبا وهذه كلها من مقومات بطولته وعناصرا سعداده النفس الذى وفرله بطولته التى ساهمت كثيرا فى تحقيق النصر على أعدائه .

ولا يمل أبو فراس من التغنى بهمته ، وعزة نفسه وشدة عزمه ، وبعد غاياته ، فهى من أهم مقومات بطولاته ، وأسباب انتصاراته :

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

إذا ما العزّ أصبح فى مكانٍ ... سموتُ له وإنْ بعد المزارُ
مُقامى حيثُ لا أهوى قليلٌ ... ونومى عند مَنْ أقلى غرارُ
أبتْ لى همّتى وغرارُ سيفى ... وعزمى والمطيّةُ والقفارُ
ونفسٌ لا تجاورها الدنايا ... وعرضٌ لا يرفّ عليه عارُ
وقومٌ مثلُ مَنْ صحبوا كرامٌ ... وخيلٌ مثلُ مَنْ حملتْ خيارُ(١)

ويظل أبو فراس معدداً هذه الجوانب من مقومات بطولته الحربية من شجاعة ، وبأس ، واعتماد على نفسه ، وسيفه ، ومطيته :

سَلِ الدهر عنّى هل خضعتُ لحكمهِ
وهلْ راعنى أصلاله وأراقمُه
وهلْ موضعٌ فى الأرض ماجبتُ أرضَه
ولا وطئته من بمهرى مناسمُه
ولا شسعتْ لمّا وردتُ نجوده ... ولا بعُدتْ أغوارُه وتهائمُه
وما صحبتنى قطُّ إلاّ مطيتى ... وعضبٌ حسامٌ مخذمُ الحدِّ صارمُه
وإنّ انفرادَ المرءِ فى كلّ مشهدٍ ... لخيرٌ من استصحابِ منْ لا يلائمُه(٢)

ولا يمل أبو فراس التغنى بشجاعته ، وقوة بأسه التى هى من أهم مقومات بطولته ومن أعظم عناصرها :

لا عزّ إلاّ بالحسام المخذمِ ... وضرابِ كلِّ مدجّجٍ مستلئمِ
وقراعِ كلِّ كتيبةٍ بكتيبةٍ ... ولقاءِ كلِّ عرمرمٍ بعرمرمِ
ولقد رضعتُ من الزمان لبانَه ... وعرفتُ كلَّ معوّجٍ ومقوّمِ

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨٠ .

وقطعتُ كلَّ تنوفةٍ لمْ يلقها ... قدمٌ ولم تقرع بباطنِ منسمِ
وأهنتُ نفسي للرماحِ وإنه ... منْ لمْ يهنْ بينَ القنا لمْ يُكرمِ
ورأيتُ عمري لا يزيدُ تأخري ... فيه ولا يفنيه فضلُ تقدمي (١)

والكرم أحد عناصر البطولة الذاتية لأبي فراس ، وواحد من مقوماتها إلى جانب ما لديه من مقومات أخرى ، وعناصر عديدة رأينا منها شجاعته وبأسه ، وعزة نفسه ، وعظم همته ، وبعد غاياته .

ومثلما تغنى أبو فراس بكل هذه المقومات والعناصر التي وفرت له هذه البطولة التي عرف بها ، فقد تغنى كذلك بالكرم بوصفه أحد هذه العناصر ، والمقومات :

وتخافني كومُ اللقا ... ح وقد أمنَّ عداتِه
يمسي إذا طرق الضيو ... فُ فناؤها بفنائه
ناري على شرفٍ تأجـ ... ـجُ للضيوفِ السارية
يا نارُ إن لمْ تجلبي ... ضيفًا فلستِ بناريه
والعزُّ مضروبُ السرا ... دقِ والقبابِ الجاريه
يجني ولا يُجنى عليـ ... ـه ويتقي الجُلّى بيه (٢)

وغنى النفس عنصر من عناصر البطولة الذاتية التي استشعرها أبو فراس في داخله ، وتغنى بها طويلا في شعره فغنى النفس قاسم مشترك مع الكرم في نفس أبي فراس فالكريم لا بد أن يكون غنى النفس ، وغنى النفس لابد أن يكون كريما . ومثلما تغنى أبو فراس بكرمه فقد تغنى كذلك بغنى

(١) أبو فراس الحمداني ـ السيد محسن الأمين العاملي ص ٩١ .
(٢) أبو فراس الحمداني ـ تحقيق السامرائي ص ١٨١ ، ١٨٢ .

نفسه بوصفه هو الآخر واحدا من مقومات البطولة فى نفسه . عرضت على سيف الدولة خيوله ، وبنو أخيه ، وبنو عمه حضور عنده ، فكل اختار منها ، وطلب حاجته ، وأمسك الأمير أبو فراس فعتب عليه الأمير سيف الدولة ، ووجد من ذلك . فقال أبو فراس متغنيا :

غيرى يُغيّره الفعالُ الجافى ... ويحول عن شِيَم الكِرام الوافى
لا أرتضى وُدًا إذا هو لم يدم ... عند الجفاء وقلة الإنصاف
تَعِسَ الحريصُ وقلّ ما يأتى به ... عوضًا من الإلحاح والإلحاف
إنّ الغنىَّ هو الغنىُّ بنفسه ... ولو انه عارى المناكب حافى
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافيًا ... فإذا قنعتَ فكلُّ شيء كافى
وتعاف لى طمع الحريص أبوّتى ... ومروءتى وفتوّتى وعفافى

وهكذا يشرك أبو فراس الأبوة ، والفتوة ، والعفاف ، مع غنى النفس فى هذا التغنى فكلها قيم ، ومُثُلٌ عليا يجب أن يتحلّى المرءُ بها ، وكلها من عناصر البطولة الذاتية فى نفسه ومن مقوماتها ، وأسبابها ، ويكمل أبو فراس تغنيه بغنى نفسه ، وكرمه ، مؤكدا اقتناعه بهذه القيم وتلك المثل :

ما كثرةُ الخيلِ الجيادِ بزائدى ... شرفًا ولا عددُ السَّوام الضّافى
خيلى وإن قلّت كثيرٌ نفعها ... بين الصوارم والقنا الرّعّاف
ومكارمى عددُ النجوم ومنزلى ... مأوى الكرام ومنزل الأضياف
لا أقتنى لصروف دهرى عُدّةً ... حتّى كأنّ صروفه أحلافى
شيمٌ عرفتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ... ولقد عرفتُ بمثلها أسلافى (١)

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٧ .

ومن عناصر البطولة ، وأسسها ، ومقوماتها عند أبى فراس أحساســـه الذاتى بقومه ، وأهله ، وذويه ، فقد ورث الامارة ، والسيادة ، والشرف والعزة ، عنهم ، ومثلما تغنّى بكل مقومات بطولته وعناصرها من شجاعـــة وإباء ، وهمة ، وعلو نفس ، وكرم ، وشدة بأس ، وجرأة قلب ، وغنى نفـــس فقد تغنى كذلك بقومه وجماعته ، على أنها إحدى مقومات بطولته ، وإحــدى أسس استعداد ، النفس لهذه البطولة ، التى حققت له ما هفت إليـــه نفسه ، وتاقت إليه روحه من انتصارات عديدة على الروم ، وغيرهم مـــن القبائل ، الخارجة على طاعة سيف الدولة ، وابن عمه .

أقول ـ لقد تغنّى أبو فراس كثيرا بقومه ، وجماعته ، تغنّى بهـــم سادات ، غرا ، طال بهم على خصومه ، وكاثر :

لَنا في بَني عَمّي وَأَحياءِ إِخوَتي ... عُلاً حيثُ سارَ النَّيرانِ سَوائِرُ
وأَنَّهُمُ السّاداتُ والغُررُ الَّتي ... أَطُولُ على خَصْمي بِها وأُكاثِرُ (1)

وتَغَنّى بهم ملوكا ، وأبناء ملوك ، بناة للمكارم ، والعلا ، وأربابا للمجد :

وإذا فخرتُ فخرتُ بالشُّمِّ الأُلى ... شادُوا المكارِمَ مِنْ بَني حَمْدانِ
نحنُ الملوكُ بنو الملوكِ أولي الْعُـــلا ... ومَعادِنُ السّاداتِ مِنْ عَدْنـــانِ
والمجدُ يَعلمُ أنّنا أركانُـــهُ ... والبيتُ معتمِدٌ على الأرْكـــانِ (2)

وتغنّى بهم أعزة ، ذوى منعة ، وسيادة ، فهم رؤس الناس وسادتهـم وهم أهل الحرب ، والقتال ، وهم أرباب عطاء ، وهبات :

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ١٢٣ .
(2) المصدر السابق جـ ٢ صـــ

أَلَمْ ترنا أعزَّ النّاس جـــارا وأمنعهمْ وأمرعهم جنابا ؟ !
لنا الجبلُ المطلُّ على " نزار " حللنا النَّجد منه والهضابـا
تفضلنا الأنام ولا نحاشـي ونوصف بالجميل ولا نحابـى
وقد علمتْ " ربيعة " بل " نزار " بأنَّا الرأسُ والنّاسُ الذُّنابـى
فلمّا أنْ طغتْ سفهاء كعـب فتحنا بيننا للحرب بابــا
منحناها الرغائبَ غير أنّــا إذا شئنا منحناها الحرابا(١)

ويحرص أبو فراس على أن يوضح أن السيادة ، والشرف ، والرياسة التى حازها قومه ، قد حازوها عن جدارة إذ ظفروا بها بالسيف ، ثم حافظوا عليها بالسيف أيضا فبقيت فيهم خالدة خلود الزمن :

ولقومى الشرفُ المنيعُ محلُّـه فوقَ المجرةِ والسماكِ المُرْزِمِ
ورثوا الرياسة كابرًا عن كابـر مِنْ عهد عادٍ فى الزَّمانِ وجُرْهُمِ
ظفروا بها بالسَّيفِ أولَ مـرةٍ وبقاؤها بالسيفِ أصبح فيهـم
نحن البحارُ بل البحارُ مياهُها مِلْحٌ وموردُنا لذيذُ المطعَمِ (٢)

وهكذا يربط أبو فراس بين سيادة قومه ، وكرمهم ، فالكرم عند العربى من أعظم مقومات السيادة ، والبطولة ، ويتكرر كثيرا فى شعر أبى فراس وتغنية بقومه وربطه بين كرمهم وشجاعتهم ، وسيادتهم ، ونبلهم ، من ذلك قوله :

---

(١) المصدر السابق نفسه جـ٢ ص ١٣ (وتروى الشطرة الأولى من البيت الأخير منحناها الحرائب) .

(٢) أبو فراس الحمدانى ــ السيد محسن الأمين العايلى ص ٩١ ومابعدها .

إذا مررت بوادٍ جاش غاربُـــه فاعقل قلوصك وانزل ذاك وادينا
وإنْ عبرت بنادٍ لا تطيف بـه أهل السفاهة فانزلْ ذاك نادينا
نغيرُ في الهجمة الغرّاء ننحرها حتّى لمعطش في الأحيان راعينـا
وتجفل الشول بعد الخمس صاديـــة
إذا سمعن على الأمواه حادينـــا
وتغتدي الكُمُ أشتاتا مروعة لا تأمن الدّهر إلاّ من أعادينـا
ويصبح الضّيف أولانا بمنزلنا نرضى بذاك ويمضى حكمه فينا (١)

وكذلك قوله متغنيا بصبر قومه في الخطوب وكرمهم ، وامتلاكهم المجــد وبنائهم إياه :

إذا نزل الخطبُ الجليل فإنّنا نصابرُه حتّى تضيق حيازمـه
وإنْ جاءنا عانٍ فإنّا معاشـرٌ نشاطرُه أموالنا ونقاسمـه
بنَيْنا من العلياء مجدًا مشيدًا وما شائدٌ مجدًا كمن هو هادمـه
سل المجدَ عنّا يعلم المجدُ أنّنـــا
بنا أطّدتْ أركانه ودعائمــه (٢)

ويكرر أبو فراس ربطه بين كرم قومه وشجاعتهم وهو يتغنى بهم علـى أن إحساسه بقومه ، وجماعته عنصرًا هاما من عناصر بطولته الحربية التي عاش يتغنى بها في أشعاره :

إنّا إذا اشتدّ الزمـــا نُ وناب خطبٌ وادلهـم
ألفيتَ حول بيوتنـــا عُدَدَ الشّجاعة والكـــرم

(١) أبو فراس الحمداني ـ تحقيق السامرائي ص ١٧٠ ، ١٧١ .
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ـ تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣٨١ .

بِلِقَا العِدَى بِيضُ السُّيُو نِ وَلِلنَّدَى حُمْرُ النَّعَم

هَذَا وَهَذَا دَأبُنَا يُودَى دَمٌ وَيُرَاقُ دَمُ(١)

وهكذا تغنى أبو فراس فى أشعاره مجسدا بطولته الحربية ، وانتصاراته العديدة التى حققها على الروم ، وغيرهم من القبائل العربية المجاورة لإمارة بنى حمدان ، وكذلك تغنى بعناصر بطولته ، ومقوماتها ، التى كونت لديه استعدادا نفسيا لهذه البطولة الذاتية التى استشعرها فى نفسه طويلا وأصّلتها فى نفسه انتصاراته المستمرة ، والمتلاحقة ، وظل أبو فراس يتغنى بهذه البطولة وتلك الانتصارات حتى وقع أسيرا فى أيدى الروم . فلما وقع فى أيدى الروم أسيرا أخذت نفسه الأبية ، تستشعر جرح الهزيمة ، وألم الأسر ، صحيح أن نفسه لم تهن ورأسه لم يحن ، وظل شامخا ، أبيا كريما ، عزيزا معدّدا مناقبه ، ومفاخره ، ومناقب أهله ، ومفاخرهم متغنيا بها فى كثير من الزهو والاعتزاز ، مجسدا بطولته وانتصاراته العديدة ، حتى وهو بين أظهر الروم ، مما جعل هؤلاء لروم ـ وهم أعداؤه ـ يكبرون فيه هذه الشهامة ، وتلك الأنفة ، ويعرفون له قدره ، ولكن على الرغم من ذلك ظل يستشعر فى داخله جرح هزيمته ، وألم أسره ، فلغة شعره ، وأحاسيسه ، وصوره ، وأفكاره فى أسره ، قد خيمت عليها ظلال قاتمة من حزن " وأسى ، لما كان له ماض مجيد وانتصارات باهرة ، ولما كان ينتابه من حنين الى أهله النائين ، خاصة أمة تلك العجوز ، التى تركها " بمنبج " وحيدة ، تتجرع مرارة بعاد ذلك الابن الأسير .

---

(١) أبو فراس الحمدانى ـ تحقيق السامرائى ص ١٦١ .

" فلا جرم أن تصدر قصائده وهو أسير عن قلب شجي ، ونفس رقيقة ، متألمة ، فتزداد رقة ، ولطافة ، وسلاسة ، وتؤثر في النفوس تأثيرا محزنا ، يكاد يبكى سامعها ، وتعلق بالحفظ لسلاستها ، وربما هاجت به عاطفة الحماسة في هذا الحال ، فيخرج بشعره إلى التحمس الفائق ، فإن ما هو فيه لم يكن لينسيه سوابقة في الإمارة ، والحروب ، ولم يكن ليفقده كبر النفس ، وعلو الهمة ، والصفات الغريزية ، التي فيه من هذا القبيل ". (1)

يقول الثعالبي عن روميات أبي فراس : " ولعمري إنها ـ كما قرأته لبعض البلغاء ـ لو سمعتها الوحش أنست ، أو خوطبت به الخرس نطقت أو استدعي به الطير نزلت " (2)

أسر أبو فراس ولكنه ـ كما قلت ـ ظل يعرف لنفسه قدرها ، وظل يستشعر بطولته وتتراءى أمام عينيه مشاهد من انتصاراته الباهرة التي أبدى فيها شجاعة ، وثباتا ، وإقداما ، فأخذ يتغنى ببطولته وهو أسير ، مثلما تغنى ببطولته وهو حر طليق ، مما جعل الروم يكبرون فيه هذه الشهامة وتلك البطولة ، ويعرفون له قدره ، فيحظون ثيابه ، وسلاحه ، وينزلونه أحد قصور امبراطورهم ، وكأنه ضيف عزيز ، لا أسير حرب ، وجريح فقال :

مَتَى تُخْلِفُ الأيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتًى ... طَوِيلَ نِجَادِ السَّيْفِ رَحْبَ المُقَلَّدِ ؟
مَتَى تَلِدُ الأيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتًى ... شَدِيدًا عَلَى البَأسَاءِ غَيْرَ مُلَهَّدِ ؟

(1) أبو فراس الحمداني ـ السيد محسن العاملي ص ١١٥ .
(2) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١٤٢ .

فإنْ تفتدونى تفتدوا شرفَ العُلا وأسرعَ عوادٍ إليها مُعَوَّدِ

وإنْ تفتدونى تفتدوا لِعُلاكُمُ فتىً غيرَ مردودِ اللسانِ أو اليدِ

يُطاعنُ عنْ أعراضِكُمْ بلسانِهِ ويضربُ عنكُمْ بالحسامِ المُهنَّدِ

وما كلُّ وقافٍ له مثلُ موقفى ولا كلُّ وَرَّادٍ له مثلُ مَوْرِدى

فما كلُّ مَنْ شاءَ المعالى ينالُها ولا كلُّ سيّارٍ إلى المجدِ يهتدى (١)

وهى أبيات يخاطب فيها أهله ، وقومه ممثلين فى سيف الدولة ابن عمه وزوج أخته الذى كاتبه أبو فراس كثيرا وهو فى أرض الروم . ولكنها أبيات يلقى بها على مسامع أعدائه ، وهو بين أظهرهم متغنيا بما نال من شرف وما حاز من بطولة ، وهو يناضلهم ، مطاعنا عن أعراض قومه ، ضاربا عنهم بحسامه ، وهذا هو سر بطولته ، وأساسها .

ويتوالى تغنى أبى فراس ببطولته وهو أسير لدى الروم ، تلك البطولة التى يجسدها خوضه للمعارك ، وقيادته للجيوش ، ونضاله العسكرى فى سبيل العرض ، والشرف ، والمجد والسيادة :

وإنّى لجرّارٌ لكلِّ كتيبةٍ معوَّدةٍ أن لا يخلَّ بها النصرُ

وإنّى لنزّالٌ بكلِّ مخوفةٍ كثيرٍ إلى نُزّالِها النظرُ الشَّزْرُ

فأظمأُ حتّى ترتوى البيضُ والقَنا وأسْغَبُ حتّى يشبعَ الذئبُ والنَّسْرُ

ولا أُصبحُ الحىَّ الخلوفَ بغارةٍ ولا الجيشَ ما لمْ تأتهِ قبلىَ النُّذْرُ

ويا رُبَّ دارٍ لمْ تخفنى منيعةٍ طلعتُ عليها بالرَّدى أنا والفجرُ

وحىٍّ رددتُ الخيلَ حتّى ملكتُهُ هزيمًا وردَّتنى البراقعُ والخُمْرُ

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ .

وساجيةِ الأذيالِ نحوى لقيتُها فلم يلقها جهمُ اللقاءِ ولا وعرُ
وهبتُ لها ما حازهُ الجيشُ كلَّه ورحتُ ولم يكشف لأثوابها سترُ
ولا راحَ يُطغينى بأثوابه الغنى ولا باتَ يثنينى عن الكرمِ الفقرُ
وما حاجتى بالمالِ أبغى وفورَه ؟ إذا لم أفرْ عرضى فلا وفرَ الوفرُ(1)

وهكذا يتغنى أبو فراس ببطولته وبعناصر هذه البطولة ومقوماتها ، تلك العناصر والمقومات التى من أهمها العفة ، والطهارة التى تتمثل فى كفِّه القتال إذا ما رأى نساء العدو وقد سفرن أمامه وكأنه بذلك يذكِّر الروم بصونه لأعراض نسائهم كثيرا ، أو كأنه بذلك يرد على ما منَّ به الروم عليه من أنهم خلَّوا ثيابه ٠ :

يمنُّون أنْ خلَّوا ثيابى وإنَّما علىَّ ثيابٌ من دمائهمُ حُمْرُ

ويظل أبو فراس وهو بين أظهر الروم ، متغنيا ببطولته ومقومات هذه البطولة من حزم ، وعزم ، وصبر ، وشجاعة ، ووقار :

لقدْ ضلَّ منْ تحوى هواهُ خريدةٌ وقدْ ذلَّ منْ تقضى عليه كعابُ
ولكنَّنى ــ والحمدُ للهِ ــ حازمٌ أعزُّ إذا ذلَّتْ لهنَّ رقابُ
ولا تملكُ الحسناءُ قلبىَ كلَّهُ وإنْ شملتْها رقَّةٌ وشبابُ
وأجْرى ولا أُعطِى الهوى فضلَ مقْودى وأهفو ولا يخفى علىَّ صوابُ
إذا الخلُّ لم يهجرْكَ إلَّا ملالةً فليسَ لهُ إلَّا الفراقُ عتابُ
إذا لمْ أجدْ فى بلدةٍ ما أُريدهُ فعندى لأُخرى عزْمةٌ وركابُ

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ــ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢١٢

ولهسّ فراقٌ ما استطعتَ فإن يكنْ ... فراقٌ على حالٍ فليس إيابُ
صبورٌ ولم لم تبقَ منّى بقيةٌ ... قؤولٌ ولو أنّ السيفَ جوابُ
وقورٌ وأحداثُ الزمانِ تنوشني ... وللموتِ حولى جيئةٌ وذهابُ
وألحظُ أحوالَ الزمانِ بمقلةٍ ... بها الصدقُ صدقٌ والكذابُ كذابُ (1)

وهكذا يؤكد أبو فراس فى هذه الأبيات على صبره ، ووقاره مهما ناشته أحداث الزمان ، فهو فى أسره أحوج مايكون إلى الصبر ، والوقار ، والشجاعة فى مواجهة نوائب الدهر ، ومصائب الأيام . وتجرى بين أبى فراس "والدمستق" مناظرة ويجد أبو فراس فى هذه المناظرة فرصة متاحة ومجالا واسعا يتغنى من خلاله ، وعلى مسامع الروم ، ببطولته ، وشدة عزمه ، وصبره ، ونشدانه الكمال وآثاره الطيبة ، وفروسيته الفذة ، وشجاعته الفريدة فى مواجهة الموت غير هياب ، ولا وجل :

تأملنى الدمستقُ إذ رآنى ... فأبصرَ صيغةَ الليثِ الهمامِ
أتنكرنى كأنكَ لستَ تدرى ... بأنّى ذلك البطلُ المحامى ؟
وأنّى إذ نزلتَ على " دلوكٍ " ... تركتكَ غيرَ متّصلِ النظامِ
ولما أنْ عقدتَ صليبَ رأيى ... تحلّلَ عقدُ رأيكَ فى المقامِ
وكنتَ ترى الأناةَ وتدّعيها ... فأعجلكَ الطعانُ عن الكلامِ
وبتَّ مؤرقاً من غيرِ سقمٍ ... حمى جفنيكَ طيبَ النومِ حامى
ولا أرضى الفتى ما لم يكمّلْ ... برأيِ الكهلِ إقدامَ الغلامِ
فلا هنئتها نعمى بأسرى ... ولا وصلتْ سعودكَ بالتمامِ

---

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ــ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٢ .

ثم يأخذ أبو فراس بعد هذه الأبيات فى الحط من قدر الروم والتهوين من شأنهم إمعانا فى التغنى ببطولته وإعلاء شأنه :

أما منْ أعجبِ الأشياء علجٌ ... يُعرفنى الحلال من الحرامِ
وتكنُفه بطارقة تُيوسٌ ... تباري بالعثانين الضخامِ
لهُم خلقُ الحمير فلستَ تلقى ... فتى منْهم يسير بلا حزامِ
يريغون العيوب وأعجزتهم ... وأيُّ العيب يوجد فى الحسامِ
وأصعبُ خطةٍ وأجلُّ أمرٍ ... مجالسة اللئام على الكرامِ

ثم يعود أبو فراس مرة ثانية إلى التغنى ببطولته ، ومقوماتها ، وعناصرها وكأنه بهذا التقسيم الذى قسم به قصيدته من تغن بنفسه ، ثم حط من قدر أعدائه ، ثم عود من جديد إلى التغنى بنفسه ، كأنه بهذا التقسيم يمعن فى إظهار الفرق بينه وبين الروم :

أبيتُ مبرأً منْ كل عيبٍ ... وأُصبحُ سالمًا من كلِّ ذامِ
ومَنْ لقى الذى لاقيتُ هانتْ ... عليْه مواردُ الموتِ الزؤامِ
ثناءٌ طيبٌ لا خلفَ فيهِ ... وآثارٌ كآثارِ الغمامِ
وعلمُ فوارسِ الحيينِ أنِّى ... قليلٌ من يقومُ لهمْ مقامى
وفى طلبِ الثناءِ مضى بُجيرٌ ... وجادَ بنفسه " كعبُ بنُ مامٍ "
ألامُ على التعرضِ للمنايا ... ولى سمعٌ أصمُّ عن الملامِ (1)

والمعنى الأخير فى هذه الأبيات والذى يتضمنه آخر أبياتها ، معنى تعرض أبى فراس للموت ، ولوم الرفاق له على هذا التعرض ، معنى تردد كثيرا

(1) أبو فراس الحمدانى - تحقيق د . إبراهيم السامرائى ص ١٥٧ ، ١٥٩

فى أشعار أبى فراس خاصة تلك التى نظمها بعد أسره ، وهو معنى من معانى ، بطولته ، وعنصر من عناصرها إذ هو نتيجة حتمية لجرأة قلبه وشدة ، بأسه ، وشجاعة نفسه ، ولقد تغنى به أبو فراس كثيرا ، إمعانًا فى تجسيد بطولته حتى وهو أسير من ذلك قوله :

يقولون : " جنّبْ " عادةً ما عرفْتها ... شديدٌ على الإنسان ما لم يُعوّدِ

فقلتُ : أما واللهِ لا قال قائلٌ : ... شَهِدتُ له فى الحربِ ألأمَ مشهدِ

ولكنْ سألقاها ، فإمّا منيّةٌ ... هِىَ الظنُّ أو بنيانُ عِزٍّ مُوطّدِ (١)

وكذلك قوله متغنيا بالمعنى نفسه :

وقالَ أُصيحابى الفرارُ أو الرّدَى ... فقلْتُ : " هما أمرانِ أحلاهُما مُرُّ "

ولكنّنِى أمضى لما لا يعيبُنى ... وحَسْبُكَ مِنْ أمرَيْنِ خيرُهما الأسْرُ

يَقُولونَ لِى : " بِعْتَ السّلامةَ بالرّدى "

فقلْتُ : " أما واللهِ ما نالَنِى خُسْرُ "

وهلْ يتجافى عنّىَ الموْتُ ساعةً ... إذا ما تجافَى عنّىَ الأسرُ والضُّرُّ ؟

هُوَ الموتُ فاخترْ ما علالكَ ذِكْرُهُ ... فلَمْ يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِىَ الذِّكرُ

وإذا كان أبو فراس وهو أسير بين أظهر الروم ، قد تغنى ببطولته وانتصاراته على مسامع من أعدائه ، إلا أنه لم يستطع ــ كما قلت آنفا ــ أن يخفى ما يحس به من ألم سبّبه له جرح هزيمته وخطب أسره ، ويظهر إحساسه بألم ذلك الجرح فى كتاباته لابن عمه طالبا بافتدائه ، كما يظهر فى

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ــ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٨١ .

عتابه له حين تأخر عن افتدائه ، ويظهر هذا الإحساس بألم ذلك الجرح أيضا فى كتاباته لأمه موصيا إياها بالصبر ، وجميل التأسى بمن سبقها من نساء المؤمنين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد خلفائه الراشدين من بعده .

كاتب أبو فراس ــ كما قلت ــ ابن عمه سيف الدولة مناشدًا إياه المسارعة بافتدائه ، ومن خلال هذه الكتابات المستمرة ، والنداءات المتلاحقة يظهر إحساس أبى فراس بألم الجرح الذى سببته له هزيمته أمام الروم ووقوعه أسيرا فى أيديهم :

دَعوتُك للجفنِ القَريحِ المُسَهَّدِ ... لَدَيَّ وللنَّومِ القليلِ المُشَرَّدِ
وماذاكَ بُخلاً بالحياةِ وإنَّها ... لأوَّلُ مبذولٍ لأوَّلِ مُجْتَدِي
وما الأَسْرُ مما ضِقتُ ذَرعاً بحملِهِ ... وما الخَطْبُ مِمَّا أَنْ أَقولَ لهُ : قَدِ
ولَسْتُ أُبالي إنْ ظَفِرْتُ بِمَطْلَبٍ ... يكونُ رخيصًا أو بوَسْمٍ مُزَوَّدِ
ولكنَّني أَخْتارُ موتَ بني أبي ... على صَهَواتِ الخيلِ غيرَ موسَّدِ
وتأبى وآبى أنْ أموتَ موسَّدا ... بأيدي النصارى موتَ أكْمَدَ أكْبَدِ

وإذا كان أبو فراس قد أحس ألم هذا الجرح النفسى ، جرح هزيمته أمام الروم ، ووقوعه فى أسرهم وتجسد ذلك الإحساس من خلال هذه الأبيات إلا أنه يحاول أن يظهر متماسكا رغم هذا الإحساس ، وأن يعزو نداءه لابن عمه ، وطلبه المسارعة بافتدائه إلى أنفته وأنفة ابن عمه نفسه من أن يموت موسدا بأيدى هؤلاء النصارى من الروم . وأبو فراس يؤكد ذلك المعنى الذى يجسد بطولته حتى وهو يقاسى ألم ذلك الجرح المرير ، فيكرر

ذلك المعنى الذى تتجسد من خلاله بطولته – كما قلت – :

أُنادِيكَ لا أنّي أخافُ مِنَ الرَّدَى ... ولا أرْتَجِى تأْخِيرَ يَوْمٍ إلى غَـد
وَقَدْ حُطِّمَ الخَطّيُّ واخْتُرِمَ الْعِدَى ... وفُلِّلَ حَدُّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّـد
وَلكِنْ أنِفْتُ المَوْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ ... بِأيْدِى النَّصَارَى الغُلْفِ مِيتَةَ أكْمَدِ (١)

وهكذا يحرص أبو فراس على أن يضمن نداءاته لابن عمه ، وكتاباته له تغنيا ببطولته ، وتجسيدا لانتصاراته ، التى لن تستطيع هزيمته ، ولن يستطيع أسره أن يغضا منها . صحيح أنه يكتب إليه مناشدا المسارعة بافتدائه ولكنه لم ينس يوما بطولته ، وانتصاراته ، وأمجاده ، لذا فإنه يحرص – كما قلت – على أن يضمن هذه النداءات تغنيا بهذه البطولة ، وتلك الانتصارات والأمجاد :

أَقِلْنِى أَقِلْنِى عَثْرَةَ الدَّهْرِ إنَّهُ ... رَمَانِى بِسَهْمٍ صَائِبِ النَّصْلِ مُقْصِدِ
وَلَوْ لَمْ تَنَلْ نَفْسِى وَلاءَكَ لَمْ أكُنْ ... لأُورِدَهَا فِى نَصْرِهِ كُلَّ مَـوْرِدِ
ولاكُنْتُ أَلْقَى الأَلْفَ زُرْقًا عُيُونُهَا ... بِسَبْعِينَ فِيهِمْ كُلُّ أَشْأَمَ أَنْكَـدِ
فَلا وَأَبِى مَا سَاعِدَانِ كَسَاعِـدٍ ... ولا وَأَبِى مَا سَيِّدَانِ كَسَيِّـدِ
ولا وَأَبِى مَا يَفْتُقُ الدَّهْرُ جَانِبًا ... فَيَرْتُقُهُ إلاّ بِأَمْرٍ مُسَـدَّدِ (٢)

وتشتد العلة على أبى فراس فيواصل الكتابة لابن عمه ، ولا تخلو كتابته إليه من تغن ببطولته ، وكرمه :

هَلْ تعطِفَانِ عَلَى العَلِيـل ... لا بِالأَسِيرِ وَلا القَتِيـل

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى – تحقيق الدهان جـ٢ صـ ٨٠
(٢) المصدر السابق نفسه

باتت تقلبه الأكـــــف سحابة الليل الطويـــل
يرعى النجوم السائـــرا ت من الطلوع إلى الأفـــول
فقد الضيوف مكانـــه وبكاه أبناء السبيـــل
واستوحشت لفراقـــه يوم الوغى سرب الخيـــول
وتعطلت سمر الرمـــا ح وأغمدت بيض النصـــول

فعلى الرغم من أن أبا فراس يعانى آلام علته التى اشتدت ويقاسى مرارة الأسر والهزيمة إلا أنه فى خضم ذلك كله ــ لا ينسى حروبه، وبطولته، وانتصاراته وكرمه، وضيوفه، فهى أمجاد تتراءى لعينيه، وتعاوده ذكرياتها، فيتغنى بها وهو عليل يقاسى آلام علته. ويتأخر افتداء سيف الدولة لابن عمـــه ويحز ذلك فى نفس أبى فراس إذ يضيف الى آلامه آلما، وإلى جراحه جرحا ويعتب أبو فراس على ابن عمه ذلك التقاعس، والقعود عن افتدائه، ويقســو فى عتابه على ابن عمه وذلك شىء طبعى، إذ يصدر ذلك العتاب عـــن نفس جريحة، وقلب كسير:

فلا كان كلب الروم أرأف منكم وأرغب فى كسب الثناء المخلـد
ولا يبلغ الأعداء أن يتناهضوا وتقعد عن هذا العلاء المشيـد
أأضحوا على أسراهم بى عودا وأنتم على أسراكم غير عـود (١)

وهو عتاب مر أليم، يقسو أبو فراس فيه قسوة الفرسان، ذوى الهمـــة وأصحاب النفوس العالية، فهو لا يتذلل من خلاله لابن عمه، بل يبدو من خلال ذلك العتاب ــ كعهد الناس به ــ بطلا، أنفا، أبيا، كريمـــا

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ــ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٧٩.

وعتاب أبى فراس لابن عمه ، لا ينفى حبه له ، فهو يكن له بين جوانحه حبا عميقا ، ويتجلى ذلك فى إحدى قصائد أبى فراس فى عتاب سيف الدولة والتى يستهلها بالغزل :

أراكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شيمتُكَ الصَّبرُ ... أما للهوى نَهيٌ عليكَ ولا أمرُ ؟
بَلَى ، أنَا مشتاقٌ وعندِى لوعَةٌ ... ولكنَّ مِثْلِى لا يُذاعُ لهُ سِرُّ !
إذَا اللَّيلُ أضوانِى بسطتُ يدَ الهوَى ... وأذْللتُ دمعًا مِنْ خلائقِهِ الكِبْرُ
تكادُ تضِيءُ النَّارُ بينَ جوانِحِى ... إذَا هِىَ أذْكتْهَا الصَّبابَةُ والفِكْرُ

وعجيب أن يستهل أبو فراس قصيدته بالغزل ، فيتغنى بحبه وهو أسير ، جريح ، تنزف دماؤه ، وتذوب نفسه حسرات على ما آل إليه أمره وحاله ، ولكن العجب يزول إذا ما تبينا أن غزل أبى فراس فى هذه القصيدة لم يكن غزلا حقيقيا ، وإنما هو غزل رمزى ، إذ يرمز بالمحبوبة فى هذا الغزل إلى سيف الدولة ابن عمه ، وأميره ، وأبو فراس يتخذ من ذلك الغزل تكأة ليعتب على سيف الدولة ، تضييعه للمودة التى كانت بينهما والقرابة التى تجمعهما ويأخذ عليه قعوده عن نصرته ، ويظهر ذلك جليا فى قول أبى فراس بعد الأبيات السابقة :

مُعلِّلتى بالوَصلِ والموتُ دونَهُ ... إذا مُتُّ ظمآنًا فلا نزَلَ القطْرُ
حَفظْتُ وضيَّعْتِ المودَّةَ بيننَا ... وأحسنُ من بعضِ الوَفاءِ لكِ العُذْرُ

ويؤكد أبو فراس وفاءه لابن عمه الذى يرمز إليه بالمحبوبة فى هذه القصيدة وتأكيده لوفائه لابن عمه مبرر لعتابه له :

وفيتُ وفى بعض الوفاء مذلةٌ   لآنسةٍ فى الحىّ شيمتها الغدرُ

ثم يصل أبو فراس إلى عتاب ابن عمه ، فيأخذ فى عتابه ، ويعتمد فى عتابه أيضا على الرمز الذى اعتمد عليه فى غزله :

تسائلنى : مَنْ أنتَ؟ وهى عليمةٌ   وهل بِفتىً مثلى على حاله نُكرُ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاء لها الهوى

قتيلُكِ! " قالتْ : " أيُّهم فهُم كثُرُ " ؟

فقلتُ لها : " لو شئتِ لم تتعنتى   ولم تسألى عنّى وعندكِ بى خُبرُ !

فقالتْ : " لقد أزرى بك الدهرُ بعدنا ! "

فقلتُ : " معاذَ اللهِ ! بل أنتِ لا الدهرُ "

والأبيات حافلة بالعتاب المر ، والتغنى بالبطولة التى يرى فيها أبو فراس أن أحدا لا يستطيع أن ينكره . ويتكشف الرمز فى غزل أبى فراس ، وتظهر حقيقته شيئا ، فشيئا حين يأخذ الشاعر فى الإفصاح عن حقيقة محبوبته التى عناها فى هذا الغزل :

فلا تنكرينى يابنةَ العمّ إنّه   ليعرفُ من أنكرتِه البدوُ والحضرُ

ولا تنكرينى إننى غيرُ منكرٍ   إذا زلّتِ الأقدامُ واستُنزل النصرُ(1)

وهكذا يؤكد أبو فراس بطولته ، ويجسدها ، حين يتغنى بما يكون منه عندما تزل أقدام الفوارس فى ميدان القتال ، فعندها تشرئب إليه الأعناق وتتعلق به الآمال .

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى/ تحقيق الدهان ـ جـ ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها .

وظل أبو فراس يتغنى ببطولته ، وهو يعاتب ابن عمه ، فلم ينس نفسه ولم تغب عنه بطولته لحظة حتى وهو فى أشد حالاته ألما ومعايشته للهزيمة التى تسببت فى أسره ، وبعاده عن أهله :

تَشَوَّقَنى الأَهْلُ الكِرامُ وأَوْحَشَتْ مواكِبُ بعدى عندهم ومجالِسُ
وربَّتما زانَ الأماجِدَ ماجِدٌ وربَّتما زانَ الفوارسَ فارسُ !
رَفعتُ على الحُسَّادِ نفْسى وهلْ هُمُ
وما جمَعوا لو شئتُ إلا فرائسُ ؟
أيَدرِكُ ما أدركْتُ إلا ابنُ همَّةٍ
يُمارسُ فى كسبِ العُلا ما أُمارسُ ؟
يضيقُ مكانى عن سِوَاىَ لأنَّنى على قِمَّةِ المجدِ المؤثَّلِ جالسُ
سبقتُ وقومى بالمكارمِ والعُلا وإنْ رغِمتْ من آخرينَ المعاطسُ (١)

وهكذا يتغنَّى أبو فراس ببطولاته حين يرى أنه ماجد وابنٌ لأماجد وفارسٌ وابنٌ لفوارس ، وأن أحدًا لم يدركْ ما أدرك ، ولا سعى أحد إلى العُلا مثلَ سعيه ، فهو الجالسُ على قمة المجد ، وهو السابقُ بالمكارم والعُلا وكذلك قومه .

ويتابع أبو فراس عتابه لابن عمه ، ويظل يضمِّنُ ذلك العتاب تغنيا ببطولته التى لم يغض منها الأسْر ، بل زادها ظهورا ، وتجسيدا :

وما غضَّ منِّى هذا الإسَارُ ولكنْ خلصتُ خُلوصَ الذَّهَبْ
فَفِيمَ يُعرِّضُنى بالخُمو لِ مولًى به نِلتُ أعلى الرُّتَبْ ؟

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى — تحقيق الدهان جـ٢ ص ٢٣٥ .

وكانَ عتيدًا لديَّ الجـوابُ ... ولكنْ لهيبتِهِ لم أُجِبْ

أتنكِرُ أنّي شكوتُ الزمـانَ ... وأنّي عتبتُكَ فيمن عتبْ!

فهلّا رجعتَ فأعتبتني ... وصيّرتَ لي ولقولي الغلبْ!

فلا تنسبنَّ إليَّ الخمـولَ ... أقمتُ عليكَ فلم أغتربْ

وأصبحتُ منكَ فإنْ كانَ فضلٌ ... وإنْ كانَ نقصٌ فأنتَ السببْ

وما شكّكتني فيكَ الخطوبُ ... ولا غيّرتني فيكَ النُّوَبْ

ويأخذ أبو فراس بعد هذا العتاب القاسى المرهف ــ يأخذ ــ فى التغنى ببطولته ، مجسدا هذه البطولة بتغنيه ببعض عناصرها ، ومقوماتها من حلم ، وعلا ، ونسب كريم ، وأدب جم ونفس كبيرة ، وهمة عالية :

وأسكنُ ما كنتُ فى ضجرتى ... وأحلمُ ما كنتُ عند الغضبْ

وإنَّ خراسانَ " إنْ أنكرتْ ... علاى فقدْ عرفتْها " حلبْ "

ومنْ أينَ ينكرُنى الأبعدونَ ... أمنْ نقصِ جدٍّ ؟ أمنْ نقصِ أبْ ؟

ألستُ وإياكَ من أسرةٍ ... وبينى وبينَكَ قربُ النسبْ ؟

ودارٍ تناسبُ فيها الكرامُ ... وتربيةٍ ومحلٍّ أشبّْ !

ونفسٍ تكبرُ إلّا عليكَ ... وترغبُ إلّاكَ عمّنْ رغبْ ! (١)

وتتكرر هذه المعانى كثيرا فى شعر أبى فراس الذى نظمه فى عتاب سيف الدولة فعتابه ، كما قلت ــ يصدر عن نفس أبية قد استشعرت البطولة

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ــ تحقيق الدهان جـ ٢ صـ ٢٧

وحققت النصر ، واتسمت بالعزة والأنفة ، والشمم ، لذا يأتي عتابه دائما من منطق القوة ، لا من منطق الضعف ، والذل والهوان :

زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتْبُ ... وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالأَيَّامُ إِلْبُ
وَعَيْشُ العَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ ... وَعَيْشِي وَحْدَهُ بِفِنَاكَ صَعْبُ
وَأَنْتَ ، وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ ... مَعَ الخَطْبِ المُلِمِّ عَلَيَّ خَطْبُ
إِلَى كَمْ ذَا العِتَابُ وَلَيْسَ جُرْمٌ ... وَكَمْ ذَا الاعْتِذَارُ وَلَيْسَ ذَنْبُ؟
فَلَا بِالشَّامِ لَذَّ بِفِيَّ شُرْبٌ ... وَلَا فِي الأَسْرِ رَقَّ عَلَيَّ قَلْبُ
فَلَا تَحْمِلْ عَلَى قَلْبٍ جَرِيحٍ ... بِهِ لِحَوَادِثِ الأَيَّامِ نَدْبُ

ولا شك أن هذه الأبيات التي يستهل بها أبو فراس قصيدته في عتاب ابن عمه ، أبيات ذاتية عميقة ، يجتر أبو فراس من خلالها الآمه وأحزانه ، إذ قسا عليه الزمن ، وتزاحمت عليه الخطوب ، ولم يجد في أسره من يرق له أو عليه ، ثم يكتمل الخطب فيكون سيف الدولة مع الزمن عليه ، وكان الأحرى به أن يكون معه في محنته عونا ، وعضدا وقد آل به الحال ، إلى هذا المآل ، وصار به الأمر إلى ذلك المصير .

فالأبيات — كما قلت — اجترار للأحزان والآلام أكثر منها عتابا لسيف الدولة .

وقد يفهم من هذه الأبيات ـ لأول وهله ـ أن نفس أبي فراس قد ضعفت ، وأن همته قد كلّت ، وأنه استسلم للاحزان ، وخضع لقسوة الزمن وجبروته ، ولكن أبا فراس كعهدنا به يأخذ في التغني ببطولته ، موردا سيلا من الأمجاد ، والمكارم يجسد من خلالها بطولته ، وعزته وشرفه وسؤدده ، وسيادته :

أَمِثْلِي تُقْبَلُ الأقوالُ فِيهِ ... ومِثْلُكَ يَسْتَمِرُّ عليه كِذْبُ ؟
جَنَانِي ماعلمتَ ولى لسانٌ ... يَقُدُّ الدِّرْعَ والإنسانَ عَضْبُ
وزَنْدِي وهْوَ زَنْدُكَ لَيْسَ يَكْبُو ... ونَارِي وهْيَ نارُكَ لَيْسَ تخبو
وفَرْعِي فَرْعُكَ الزَّاكِي المُعَلَّى ... وأصْلِي أصْلُكَ السَّامِي وَحَسْبُ
" لإسْمَاعِيلَ " بِي وَبَنِيهِ فَخْرٌ ... وفِي " إِسْحَقَ " بِي وَبَنِيهِ عُجْبُ
وأَعْمَامِي " رَبِيعَةُ " وهْيَ صِيدٌ ... وأَخْوَالِي " بِلَصْفَرَ " وهْيَ غُلْبُ
وفَضْلِي تَعْجَزُ الفُضَلاءُ عَنْهُ ... لأَنَّكَ أَصْلُهُ والمَجْدُ تِرْبُ (١)

وهكذا يحرص أبو فراس على التغني ببطولته ، وتجسيدها حتى وإن اجتر أحزانه ، وآلامه ، وغنّاه جرحه ، وهزيمته ، وأسره . وهكذا كان كل عتاب أبي فراس لابن عمه اجترار أحزان وتذكر آلام ، ثم يتبع ذلك تغنٍ بالبطولة ، وإحساس بالعزة ، من ذلك " بائية " أبي فراس التي ضمنها أبياتا في عتاب ابن عمه ، يبدو أبو فراس من خلالها وكأنه فقد الثقة في الناس معظم الناس ، ولكن تكفيه ثقته في نفسه :

بِمَنْ يَثِقُ الإنسانُ فيما يَنُوبُهُ ... ومِنْ أَيْنَ للحُرِّ الكريمِ صِحَابُ ؟
وقد صارَ هذا النَّاسُ إلا أقَلَّهُم ... ذئاباً على أجسادهنَّ ثيابُ
تغابيتُ عن قومي فظنُّوا غَبَاوةً ... بِمَفْرِقِ أغبانا حَصًى وتُرابُ
ولو عرفوني حقَّ معرفتي بهم ... إذًا علموا أنِّي شَهِدْتُ وغابوا
وما كلُّ فَعَّالٍ يُجَازَى بفعلِهِ ... ولا كلُّ قَوَّالٍ لَدَيَّ يُجَابُ
وَرُبَّ كلامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي ... كما طَنَّ في لَوْحِ الهَجِيرِ ذُبَابُ

ثم يأخذ بعد ذلك ـ وعلى عادته ـ في التغني ببطولته ، وانتصاراته ذاكرا هذه البطولة وتلك الانتصارات ، مجسدا إياها :

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ـ تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٨ .

إلى اللهِ أشكو أننا بمنازلٍ تحكّمُ في آسادِهنّ كِلابُ
تمرُّ الليالي ليس للنفعِ موضعٌ لديَّ ولا للمعتفينَ جَنابُ
ولا شُدَّ لي سرجٌ على ظهرِ سابحٍ ولا ضُربتْ لي بالعراءِ قِبابُ
ولا برقتْ لي في اللقاءِ قواطعٌ ولا لمعتْ لي في الحروبِ حِرابُ
ستذكرُ أيامي "نُميرٌ" و "عامرٌ" "وكعبٌ" على علّاتِها و "كِلابُ"
أنا الجارُ لا زادي بطيءٌ عليهمُ ولا دونَ مالي للحوادثِ بابُ
ولا أطلبُ العوراءَ منهم أُصيبها ولا عورتي للطالبينَ تُصابُ
وأسطو وحبّي ثابتٌ في صدورِهم وأحلُمُ عن جُهّالِهم وأُهابُ

وبعد هذه الأبيات التي يجسد فيها أبو فراس بطولته ، وانتصاراته ، يستعيد هذه الذكريات المضيئة يعاود عتابه لابن عمه ، آخذا عليه تأخره في افتدائه ، مقارنا بينه ، وبين الروم حين دعوا إلى افتداء أسراهم ، فأجابوا في الوقت الذي تقاعس فيه سيف الدولة عن افتدائه :

بني عمّنا ما يصنعُ السيفُ في الوغى إذا فُلَّ منه مضربٌ وذُبابُ ؟
بني عمّنا لا تُنكِروا الودَّ إننا شِدادٌ على غيرِ الهوانِ صِلابُ
بني عمّنا نحنُ السواعدُ والظُّبا ويوشِكُ يوماً أنْ يكونَ ضِرابُ
وإنَّ رجالاً ما ابنُكم كابنِ أُختِهم حَرِيّونَ أنْ يُقضى لهم ويُهابُوا
فعن أيِّ عذرٍ إنْ دُعوا ودُعيتمُ أبيتم بني أعمامِنا وأجابُوا ؟(١)

وهكذا تسيطر الأحزان على هذه الأبيات ، وتغشاها الكآبة ، والأسى ولكن على الرغم من ذلك فهي تغنى بالبطولة ، والأمجاد ، وتجسيد للانتصارات العديدة التي سجلها أبو فراس للعرب وسجلها له التاريخ .

وعلى الرغم من موقف سيف الدولة من ابن عمه وتأخره في افتدائه ، إلا أن أبا فراس ظل على وفائه له ، فدماء بني حمدان تجرى في عروقه وبطولته تأبى عليه غير ذلك ، ويعلم وهو أسير بأرض الروم بأن " الدمستق " خارج في جموع من جيوشه قاصدا سيف الدولة فيكتب إلى ابن عمه معرفا له ذلك من خلال قصيدة يستهلها ببكاء الأطلال :

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ .

حارا ، وهو بارع فى تصوير أحاسيسه ومشاعره سواء تحدث إلى ابن عمه ، وهو فى أسره ، أو خاطب حمامة تنوح ، أو صور ليلة من ليالى حبه ».(1)

---

(1) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف – دار المعارف بمصر – الطبعة العاشرة – ص ٣٥٢، ٣٥٣

أبنيتي لا تحزني ∴ كل الأنام إلى ذهاب(أ)

أبنيتي صبرا جميـ ∴ ـلا للجليل من المصاب

نوحي على بحسرة ∴ من خلف سترك والحجاب

قولي إذا ناديتني ∴ وعييت عن رد الجواب

زين الشباب أبو فرا ∴ س لم يمتع بالشباب !(١)

وهكذا لم يخل شعر لأبي فراس من تغنيه ببطولته وانتصاراته ، ومقومات هذه البطولة ، وعوامل تلك الانتصارات وأسبابها ، تستوى في ذلك أشعاره قبل أسره ، وأشعاره بعد أن وقع في أيدى الروم أسيرا ، وإن كانت أشعاره التى سجلها وهو أسير لدى الروم تخيم عليها ظلال قاتمة من الأسى والحسرة سببها جرح أبى فراس الذى أصاب نفسه بعد هزيمته أمام الروم ، وأسره في أيديهم والذى كان له على نفسه وقع أليم ، وإن لم يغض من بطولته وعظيم انتصاراته .

يقول د . شوقى ضيف عن روميات أبى فراس : " وخير أشعاره جميعا رومياته التى نظمها في أسره ، والتى كان يرسل بها إلى سيف الدولة معاتبا لتقاعسه عن فدائه ، وهى تكتظ بالحنين إلى الأهل ، والشكوى من الدهر والرفاق ومن روائعها قصيدته التى يخاطب فيها أمه ، والأخرى التى يرثيها بها رثاء

(أ) يروى الشطر الأول " لا تجزعى " .

(٢) ديوان أبى فراس ـ تحقيق سامى الدهان جـ٢ ص ٤٧ .

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ∴ أيا جارتا هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ∴ ولا خطرت منك الهموم ببالى
أتحمل محزون الفؤاد قوادم ∴ على غصن نائى المسافة عالى ؟
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ∴ تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحا لدى ضعيفة ∴ تردد فى جسم يعذب بالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة ∴ ويسكت محزون وينطق سالى ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ∴ ولكن دمعى فى الحوادث غالى (١)

وهكذا تجسد الأبيات — إلى جانب ما فيها من حزن وألم — بطولة أبى فراس فهو أسير ولكنه ضاحك ، وحزين ولكنه صامت صبور ، إن من كان فى مثل ظروفه لايملك دموعه ، ولكن دمع أبى فراس غال فى الحوادث . وهذا هو سر بطولته ، ويكمن القوة فى هذه البطولة النفسية التى تغذى بطولته العسكرية وتقويها .

وفى آخر أيامه ، وعندما أحس أبو فراس بدنو أجله ، يخاطب ابنته بأبيات تفيض حسرة وألما ، لأنها تصدر عن فارس يحس أنه فى طريقه إلى الموت ، وهو فى ريعان شبابه ، لم يكمل ما كان يطمح إليه ، وإن كان قد حقق خلال هذا العمر القصير ، مالم يستطع غيره ممن وهبوا طول العمر أن يحققوه ، ولكن بطولة أبى فراس ، وبعد همته ليس لهما حد ينتهيان إليه .

---

(١) أبو فراس الحمدانى — تحقيق السامرائى ص ١٢٧ .

إن زرت " خرشنة " أسيــــرا　　فلكم أحطت بها مغيـــرا ؟

ولقد رأيت النار تنـــــــ　　ـــتهب المنازل والقصـــورا

ولقد رأيت السبى يجـــــــ　　ـــلب نحونا حوا وحـــورا

نختار منه الغادة الـــــــ　　ـــحسناء والظبى الغريـــرا

إن طال ليلى فيـــــ ذرا　　ك فقد نعمت به قصيـــرا

ولئن لقيت الحزن فيـــــ　　ـك فقد لقيت بك السـرورا

ولئن منيت بحـــــادث　　فلا لقين له صبــــورا

صبـــرا لعل الله يفـــــ　　ـتح بعده فتحا يسيــرا

من كان مثلى لم يبـــــت　　إلا أسيــرا أو أميـــرا

ليست تحل سراتنـــــــا　　إلا الصدور أو القبـــورا(1)

وهكذا تــزخر هذه الأبيات بالتغنى بالبطولة التى يستشعرها أبو فراس فيما كان له من وقائع مع الروم ، سجل خلالها انتصارات عديدة ، لا يغض منها وقوعه آخر الأمر أسير فى أيديهم .

ويسمع أبو فراس وهو أسير بأرض الروم حماقة تنوح بالقرب منه علـــــى فرع شجرة ، وتهيج تلك الحماقة أشجانه ، وآلامه ، وتعيد إليه ذكريـــــات ماضيه المجيد ، فيناجيها بأبيات تنم عما يقاسى من آلام وما يتجرع من مرارات وأحزان ، ولكنها فى الوقت نفسه تجسد بطولته الذاتية وإحساسه بهذه ، البطولة و وما تبعها من انتصارات :

---

(1) ديوان أبى فراس الحمد الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

إنّ أمّاً هذه هي صفاتها ، وتلك هي بطولاتها في الحياة من تُقًى وإيمان ، وإجارة ملهوف وإغاثة مسكين ، لحرية أن تنجب ذلك الفارس الذي سجل على الروم انتصارات باهرة ، وعاش يتغنى ببطولته وانتصاراته مثلما يتغنى في هذه الأبيات ببطولات هذه الأم العظيمة التي ورث عنها هذه البطولة ، وأضاف إليها بطولته الحربية التي تمخضت عنها انتصاراته العديدة والمتلاحقة .

وإذا كان أبو فراس قد تغنى ببطولته وانتصاراته في كل أشعاره التي كتب بها من أرض الروم مراسلا ابن عمه إمّا طالبًا المسارعة بافتدائه ، أو معاتبا ، والتي كتب بها الى أمه ، والتي رثاها بها . فلقد تغنى أيضا بهذه البطولة ، في قصائد لم يكتب بها إلى ابن عمه ، ولا إلى أمه ، ولكن نظمها يتغنى فيها ببطولته من خلال إحساسه بالآم جراحه التي سببتها له هزيمته أمام الروم ، وأسره على أيديهم .

يمر أبو فراس بِخَرْشَنَة * وهو أسير بأيدى الروم ، وتُهيج هذه المدينة ذكرياته ، وتعيد إليه صورا من أيام مجده ، فلطالما غزا هذه المدينة ، ولطالما سجّل في جوانبها انتصارات باهرة ، ولطالما تركها والنار تنهب منازلها ، وقصورها ، وتجيش نفس أبي فراس بهذه الذكريات المضيئة ، فيتغنى ببطولته ، مجسدا مشاعر العزة ، وأحاسيس الانتصار وإن كان قد جسد إلى جانب ذلك مشاعر الألم ، وأحاسيس الأسى والحزن ، حين رأى نفسه أسيرا بأيدى قوم أذاقهم من قبل ويلات الحروب :

إذا ابنكِ سار في برٍّ وبحرٍ ∴ فمن يدعو له أو يستجيرُ؟
حرامٌ أن يبيت قرير عينٍ ∴ ولؤمٌ أن يلمَّ به السرورُ
وقد ذقتِ المنايا والرزايا ∴ ولا ولدٌ لديك ولا عشيرُ
وغاب حبيبُ قلبكِ عن مكانٍ ∴ ملائكةُ السماءِ به حضورُ

وهى أبيات تؤكد هذه البطولة التى عاش أبو فراس يجسدها فهو لا يزال يرى نفسه — على الرغم من أسره — على استعداد للسير فى البر ، والبحر مجاهدا ومواصلات قتاله الذى عشقته نفسه وتاق إليه قلبه ، وتعلقت به روحه وإن كانت تخيم على الأبيات ظلال قاتمة أضفاها عليها إحساس الشاعر بفقد أمه التى كانت سنده ، وعونه ، بدعائها ، وصلاحها ، والتى ذاقت من الرزايا ماذاقت حين مات زوجها وابنها فى الثالثة من عمره ، وحين أسر وحيدها التى كانت تعقد عليها أملها ، وتنيط به رجاءها ، وإيمانا فى التغنى ببطولته يشرك أبو فراس معه فى بكائه لأمه فضائلها ، وأخلاقها وشيمها ، وصالحات أعمالها من صيام ، وقيام ، وإجارة ملهوف وإغاثة مسكين ، مستجير :

ليبكك كلُّ يومٍ صُمْتِ فيه ∴ مصابرةً وقد حمى الهجيرُ
ليبكك كلُّ ليلٍ قُمْتِ فيه ∴ إلى أن يبتدى الفجرُ المنيرُ
ليبكك كلُّ مضطهدٍ مخوفٍ ∴ أجرتِيه وقد قلَّ المجيرُ
ليبكك كلُّ مسكينٍ فقيرٍ ∴ أغثتِيه وما فى العظم زيرُ (١)

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى — تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢١٦ ومابعدها .

إِذا ما وقاكَ اللهُ أمراً تخافُهُ ∴ فما لكما تتقيه مقيلُ
وإنْ هو لم ينصرك لم تلقَ ناصراً ∴ وإنْ جلَّ أنصارٌ وعزَّ قبيلُ
وإنَّ رجائِيهِ وظنِّي بفضلِهِ ∴ على قبحِ ما قدمته لجميلُ(1)

وتموت أم أبى فراس وهو فى أسره ، فيحزنه موتها حزنا بالغا ، ويفت ذلك فى عضده ، ويبكى الفارس الأسير أمه فى شعر يفيض أسى ، ولوعة :

أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ ∴ بكرهٍ منكِ ما لقيَ الأسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ ∴ تحيَّرَ لا يقيمُ ولا يسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ ∴ إلى مَنْ بالفدا يأتي البشيرُ ؟
أيا أمَّ الأسيرِ لِمَنْ تربَّى ∴ وقد مِتِّ الذوائبُ والشعورُ ؟

والأبيات وإن كانت يخيم عليها الأسى ، وتغشاها الكآبة ، إلا أنَّ ما يدور فيها من معان تربطه ببطولة أبى فراس علاقة ، وصلة فنداؤه لأمه بـ " يا أم الأسير " وتكراره لهذا النداء هو فى حقيقة الأمر تغن بالبطولة لا بكاء وإيراده " للأسير " معرفة دلالة على إحساسه بالبطولة التى أرغمته على الصمود حتى أسر ، وكان فى مقدوره أن ينجو لو أن نفسه تقبل الفرار ، وتكرر ندااته المتكررة فى هذه الأبيات تغن على مسامع الناس لأنه يعلم أن أمه قد ماتت ، ولن تسمعه ، وفوق ذلك فما يفصل بينهما من بعد مكانى كفيل بأن يجعلها لا تسمعه ، فالأبيات وإن كانت فى ظاهرها بكاء على تلك الراحلة إلا أنها فى باطنها تغن بالبطولة ، والانتصارات ، التى يؤكدها ما تلا هذه الأبيات من أبيات أخرى :

---

(1) ديوان أبى فراس ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص ٣١٣ ـ ٣١٨ .

وَلَوْ رَدَّ يَوماً حَمزةَ الخَيرِ حُزْنُها ∴ إذا ما علتها رَنَّةٌ وعويـــــلُ

ثم يأخذ أبو فراس بعد هذه الوصايا ، التى يلقى بها إلى أمه ، الحزينة الباكية ، يأخذ فى التهوين عليها والتخفيف ، من أحزانها بطريق آخر غير طريق الوصية ، فيتغنى لها ببطولته وشدته على الأعداء يوم لقائهم وعزته، وأنفته وهو فى أسرهم ، وثباته الشديد لجيوشهم وصبره العظيم فى مواجهة الموت غير هياب ، ولا وجل ، بعد أن عود نفسه على لقائه ، وعدم الخوف منه ، وإنه ليعلم أن أمه ليسعدها أن تسمع عن ابنها هذه المفاخر والمكارم فيلجأ إلى ذلك التغنى فى محاولة للتخفيف – كما قلت – عن هذه الأم البائسة ، الحزينة :

وَما أثرى يَوم اللِّقاءِ مذمَّـــمٌ ∴ ولا مَوقفى عندَ الإسارِ ذَليـلُ

لَقِيتُ نُجومَ الأُفْقِ وهْىَ صَوارِمٌ ∴ وخُضْتُ سَوادَ اللَّيْلِ وهْوَ خُيولُ

ولَمْ أَرْعَ للنَّفْسِ الكَرِيمَةِ خُلَّـةً ∴ عِشِيَّةَ لَمْ يَعْطِفْ علَىَّ خَليــلُ

ولَكِنْ لقيتُ الموتَ حتَّى تركتُها ∴ وفيها وفى حَدِّ الحُسامِ فُلُـولُ

ويتبع أبو فراس تغنيه هذا بأبيات ذاتية أيضا يتجلى فيها إيمانه بالله كما تجلَّى فى قصيدته السابقة ، وتتجسد من خلال هذه الأبيات ثقته فى الله سبحانه وتعالى ، وهو طريق ثالث من طرق التخفيف عن هذه الأم الباكية الحزينة ، ومحاولة التهوين من مصابها ، وخطبها الجليل :

ومَنْ لَمْ يُوَقِّ اللهُ فَهو مُمَـزَّقٌ ∴ ومَنْ لَمْ يُعِزِّ اللهُ فَهْوَ ذَليـــلُ

ومَنْ لَمْ يُرِدْهُ اللهُ فى الأمْرِ كُلِّهِ ∴ فلَيْسَ لِمَخْلوقٍ إليْهِ سَبيـــلُ

وإنْ هُوَ لَمْ يدللكَ فى كلِّ مَسْلَكٍ ∴ ضَلَلْتَ ولوْ أنَّ السِّماكَ دَليـلُ

المكلومة ، الباكية ، ولا وصية وقتئذ الا الصبر ، والتجمل به :

فيا حسرتي من لي بخل موافق ∴ أقول بشجوى مرة ويقول ؟!
وإن وراء الستر أما بكاؤها ∴ علي وإن طال الزمان طويل !
فيا أمتا ، لا تعدمي الصبر إنه ∴ إلى الخير والنجح القريب رسول
ويا أمتا ، لا تحبطي الأجر إنه ∴ على قدر الصبر الجميل جزيل
ويا أمتا ، صبرا فكل ملمة ∴ تجلى على علاتها وتزول

وما هذه النداءات المتكررة من الشاعر لأمه إلا صرخات نفسه الجريحة وأنات قلبه المكلوم حين يناشد أمه أن تتجمل بصبر يعجز هو عن التجمل به كثيرا فما بالنا بأم عجوز قد حطمتها السنون ، والخطوب ولكن أبا فراس لا يجد بدا من مناشدة أمه التجمل بالصبر رحمه بها وخوفا عليها ، فيأخذ في ضرب الأمثال لأمه ، لعلها تهدأ نفسا ، وتطيب خاطرا ، وتتخذ من الصبر جنة تقيها مغبة أحزانها ، ونتيجة آلامها فيذكرها " بأسماء " بنت أبي بكر (رضي الله عنه) ذات النطاقين و "بصفية " عمة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ، إذ صبرت كل منهما ، راجية الأجر من الله ، تاركة الأمر له سبحانه ، فليكن لها فيهما الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، والمثل الصالح :

أما لك في "ذات النطاقين" أسوة ∴ "بمكة" والحرب العوان تجول ؟!
أراد ابنها أخذ الأمان فلم تجب ∴ وتعلم علما أنه لقتيل !
تأس كفاك الله ما تحذرينه ∴ فقد غال هذا الناس قبلك غول
وكوني كما كانت "بأحد" "صفية" ∴ ولم يشف منها بالبكاء غليل

أُقلِّبُ طرفي لا أرى غيرَ صاحبٍ ∴ يميلُ مع النَّعماءِ حيثُ تميلُ
وصِرْنا نرى : أنَّ المتاركَ مُحسِنٌ ∴ وأنَّ صديقاً لا يَضُرُّ خليلُ
وليسَ زماني غادرٌ بي وحدَهُ ∴ ولا صاحبي دونَ الرِّجالِ ملولُ !
تصفَّحتُ أقوالَ الرِّجالِ فلمْ يكنْ ∴ إلى غيرِ شاكٍ في الزَّمانِ وصولُ !
فكلُّ خليلٍ هكذا غيرُ منصفٍ ∴ وكلُّ زمانٍ بالكرامِ بخيلُ !

ويستطرد أبو فراس فى تجسيد الغدر ، وخيانة العهود ، والتنكر للذمم فيذكر أن هذه شيم كانت فى الناس من قبله ، ويضرب المثل تلو المثل على ذلك ، وما أراه الا محاولا أن يخفف عن نفسه تلك الآلام ، وهذه الأحزان :

نعمْ دعتِ الدُّنيا إلى الغدْرِ دعوةً
أجابَ إليها عالمٌ وجهولُ
وقبلِيَ كانَ الغدرُ في النَّاسِ شيمةً ∴ وذُمَّ زمانٌ واستلامَ خليلُ
وفارقَ "عمْرو بنُ الزُّبيرْ" شقيقَهُ ∴ وخلَّى "أميرَ المؤمنينَ" عقيلُ(1)

ولكن أنَّى لأبى فراس أن يخفف عن نفسه آلامها ، وأحزانها ، فها هو ذا سرعان ما يعود إلى أحزانه ، وآلامه ، أو بالأحرى تعود إليه أحزانه وآلامه ، حين يتذكر قلة الصادقين المخلصين فى أصحابه ، وحين يتذكر أمه التى طال بكاؤها من أجله ، ولسوف يطول ما بقيت على قيد الحياة ويأخذ أبو فراس — على عادته فى وصية هذه الأم البائسة ، الحزينة

(1) كان عمرو بن الزبير معاديا لأخيه عبد الله ، فقد قام ضده ، وعذب أصحابه وكذلك فارق عقيل بن أبى طالب أخاه " عليا " كرم الله وجهه " فى خلافته

والآلام ، وتصوير خطوبه ، ومصائبه التى تكالبت عليه ، من أسر ، وجراح واشتياق ، وغربة ، وتناسى أصحاب ، وغدر خلان :

مُصابى جليلٌ والعزاءُ جميلُ ∴ وظنى بأنَّ اللهَ سوفَ يُديلُ
جراحٌ ، وأسرٌ ، واشتياقٌ وغربةٌ
أُحمَّلُ ! إنى بعدَها لحَمولُ !
وإنّى فى هذا الصباحِ لصالحٌ ∴ ولكنَّ خطبى فى الظلامِ جليلُ !
وما نالَ منّى الأسرُ ما ترَيانِه ∴ ولكنّنى دامى الجراحِ عليلُ !
جراحٌ تحاماها الأُساةُ مخوفةٌ ∴ وسُقْمان : بادٍ منهما ودخيلُ
وأسرٌ أقاسيه وليلٌ نجومُه ∴ أرى كلَّ شىءٍ غيرهنَّ يزولُ
تطولُ بىَ الساعاتُ وهْىَ قصيرةٌ ∴ وفى كلِّ دهرٍ لا يسرُّك طولُ

وبعد هذه الاستفتاحية التى تفيض حزنا ، وألما ، حين يجسد أبو فراس آلامه ، وجراح جسده ، وجراح نفسه ، وأسره ، وغربته ، واشتياقه لأهله النائين — أقول بعد هذه الاستفتاحية — يأخذ أبو فراس فى ذكر ما كان من أصحابه الذين تناسَوْه ، وما بقوا على عهدهم ، فيذكر ذلك فى أبيات تفيض لوعة ، وأسى ، أكثر من سابقاتها ، ويظهر أبو فراس من خلالها وقد اكتنفه حزن عميق لأصحاب مالوا مع النعماء حيث مالت ، متنكرين له حين نَبابه دهره ، وكبا به جَدُّه ، وتسيل نفس الشاعر حسرات إثر وفاء ظهر رياؤه ، وخداع بانت حقيقته ودعواه :

تَناسانِىَ الأصحابُ إلا عُصَيْبةً ∴ ستلحقُ بالأُخرى غداً وتحولُ !
ومَنْ ذا الذى يبقَى على العهدِ ؟ إنّهمْ
وإنْ كثُرتْ دعواهمُ ، لقليلُ !

لَوْلا العجوزُ "بِمَنْبِجٍ" ∴ ما خِفْتُ أسْبابَ المَنِيَّهْ

ولكانَ لِى عمّا سأَلْـ ∴ ـتُ مِنَ الفِدا نَفْسٌ أبِيَّهْ

لكِنْ أرَدْتُ مُرادَهَا ∴ ولو انْجَذَبْتُ إلى الدَّنِيَّهْ

وأرَى مُحاماتِى عليْـ ∴ ـهَا أنْ تُضامَ مِنَ الحَمِيَّهْ

أمْسَتْ "بِمَنْبِجَ" حُرَّةٌ ∴ بالحُزْنِ مِنْ بَعْدِى حَرِيَّهْ

لوْ كانَ يدفعُ حادِثٌ ∴ أوْ طارِقٌ بِجَمِيلِ نِيَّهْ

لَمْ تطرُقْ نُوَبُ الحَوا ∴ دِثِ أرْضَ هاتِيكَ التَّقِيَّهْ

لكِنْ قضاءُ اللهِ والـ ∴ أحْكامُ تَنْفُذُ فى البَرِيَّهْ

والصَّبْرُ يأتِى كُلَّ ذِى ∴ رُزْءٍ على قَدْرِ الرَّزِيَّهْ

لا زالَ يَطْرُقُ "مَنْبِجًا" ∴ فى كُلِّ غادِيَةٍ تَحِيَّهْ

فِيهَا التُّقَى والدِّينُ مَجْـ ∴ ـمُوعانِ فى نَفْسٍ زَكِيَّهْ

ثم يختتم أبو فراس قصيدته بوصيته لتلك الأم التى تغنى فى الأبيات السابقة بجميل صفاتها ، وعظيم سجاياها ، من نقاء ، وتقى ، وجميل نية ، ويأخذ أبو فراس بعد ذلك فى وصيته لأمه بأن تتجمل بالصبر فى مواجهة خطبها ، فالصبر خير عُدة عند الخطوب :

يا أُمَّتَا لا تَحْزَنِى ∴ وثِقِى بِفَضْلِ اللهِ فِيَّهْ!

يا أُمَّتَا لا تَيْأَسِى ∴ للهِ ألْطافٌ خَفِيَّهْ!

كَمْ حادِثٍ عَنَّا جَلا ∴ هُ ، وكَمْ كَفانا مِنْ بَلِيَّهْ

أُوصِيكِ بالصَّبْرِ الجَمِيـ ∴ ـلِ ، فإنَّهُ خَيْرُ الوَصِيَّهْ(1)

وتثقل العلة بأبى فراس وهو فى أسره ، وتزداد آلام جراحه ، فيكتب إلى أمه يعزيها أيضا بقصيدة "لامية" يستهلها ، بالبكاء ، وتجسيد الأحزان

---

(1) أبو فراس الحمدانى ـ تحقيق د . ابراهيم السامرائى ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

أتمرّ أنت على رسوم مَغَانِ ... فأقيمُ للعبراتِ سوقَ هَوانِ
فرضٌ عليّ لكلّ دارٍ وقفةٌ ... تقضي حقوقَ الدارِ والأجفانِ
لولا تذكُّرُ من هويتُ بحاجرٍ ... لم أبكِ فيه مواقدَ النيرانِ
ولقدْ أراه قُبيلَ طارقةِ النوى ... مأوى الحِسانِ ومنزلُ الضيفانِ
ومكانَ كلِّ مهنّدٍ ومجرّ كـ ... ـلّ مثقّفٍ ومجالَ كلِّ حِصانِ
نشرَ الزمانُ عليه بعدَ أنيسهِ ... حُلَلَ الفناءِ وكلُّ شيءٍ فانِ

ثم يفصح أبو فراس عمن يبكي ، ولمن يتشوق ، إنه يبكي من بالشام من أحياء ، إنه يبكي آله ، وذويه ، وقد نأت به الدار عنهم ، وبعد به المقام ، وفصلت بينه ، وبينهم قلل الدروب وشاطئا جيحان :

يا واقفانِ معي على الدارِ اطلبا ... غيري لها إنْ كنتما تقفانِ !
منعَ الوقوفَ على المنازلِ طارقٌ ... أمرَ الدموعَ بمقلتي ونهاني
فلهُ إذا ونتِ المدامعُ أو همتْ ... عصيانُ دمعي فيهِ أو عصياني
أنا ليجمعنا البكاءُ وكلّنا ... يبكي على شجنٍ من الأشجانِ
ولقد جعلتُ الحبَّ سترَ مدامعي ... ولغيرِه عيناي تنهملانِ

ولا يترك أبو فراس نفسه فريسة للأحزان ، ونهبا للآلام ، وإنما يتخلص من هذه الآلام ، وتلك الأحزان بتذكر أمجاده ، وأيام سؤدده ، فيأخذ في التغني ببطولته وما حطم من سيوف ، وما قاد من جياد ، وما ملأ به الدنيا كرما وجودا :

مالي جزعتُ من الخطوبِ وإنّما ... أخذَ المهيمنُ بعضَ ما أعطاني
ولقد سررتُ كما غممتُ عشائري ... زمنًا وهنّأني الذي عنّاني (١)
وأسرتُ في مجرى خيولي غازيًا ... وحبستُ فيما أشعلتْ نيراني
يرمي بنا شطرَ البلادِ مشيّعٌ ... صدقَ الكريهةِ فائضُ الإحسانِ
بلدٌ لعمرُكَ لم أزلْ زوّارَه ... مع سيّدٍ قومٍ أغرَّ هجانِ
إنّا لنلقى الخطبَ فيكَ وغيرَه ... بموفّقٍ عندَ الخطوبِ معانِ
ولطالما حطّمتُ صدرَ مثقّفٍ ... ولطالما أرغمتُ أنفَ سنانِ

---

(١) ويروى : " وهنأني الذي عزاني " .

وَلَطالَما قُدْتُ الجيادَ إلى الوَغَى ... قُبَّ البُطُونِ طَوِيلَةَ الأَرْسانِ
وأَنا الذى مَلأَ البسيطةَ كلَّها ... نارى وطَنَّبَ فى السماءِ دُخانى
إن لَمْ تَكُنْ طالَتْ سِنِيَّ فإنَّ لى ... رأىُ الكهولِ ، ونَجْدَةُ الشُّبّانِ
قَمِنٌ بما ساءَ الأعادِى مَوْقِفِى ... والدَّهْرُ يَبْرُزُ لى مَعَ الأَقْرانِ

ثم يتذكر أبو فراس حاله ، وما آل إليه مصيره ، فيلقى ببيتين ملؤها الحسرة والألم :

يَمْضِى الزمانُ وما ظَفِرْتُ بصاحِبٍ ... إلاّ ظَفِرْتُ بصاحِبٍ خَوّانِ
يا دهرُ خُنْتَ مع الأصادِقِ خُلَّتى ... وغَدَرْتَ بى فى جُمْلَةِ الإِخْوانِ (١)

وهكذا تحفل القصيدة بالتغنى بالبطولة ، والانتصارات ، ومعانى العزة ، والإباء ، والحرص على الشرف التليد ، والسؤدد ، والسيادة ، وهكذا كان شأن أبى فراس فى كل أشعاره .

وهكذا كانت كل كتابات أبى فراس إلى ابن عمه سيف الدولة ، فكل رسائله إليه كانت أشعارا حافلة بهذه المعانى التى يتغنى الشاعر من خلالها بما حاز من مجد ، وبما وهب من بطولة وشجاعة ، وبما نال من رفعة وعزة ، وعلو شأن حتى وهو بين أظهر الروم .

كما كانت أشعاره – إلى جانب تغنيه بنفسه – تغنيا بأمجاد قومه ، ومفاخرهم ، وبطولاتهم ، وانتصاراتهم . ومثلما كاتب أبو فراس من أسره ابن عمه سيف الدولة ، فقد كاتب كذلك أمه . تلك العجوز التى تركها "بمنبج" تقاسى مرارة فراقه . كاتبها يعزيها ، ويناشدها الصبر والثقة بفضل الله وعباده ، وصوغ أبو فراس وصاياه لأمه فى شعر نفيس أسى ، وحسرة ، على الرغم من أنه دعوة إلى التجمل بالصبر ، والتمسك بالإيمان ، فقد كان ذلك الشعر يصدر عن نفس ألمها جرح هزيمتها ، وأسرها على يد الروم أعداء العرب والإسلام وعلى الرغم من هذا الجرح وذلك الألم إلا أنه يوصى أمه بالثقة الكاملة فى رحمة الله سبحانه وتعالى .

من أشعار أبى فراس الذاتية التى كاتب بها أمه من أسره قصيدته "البائية" التى يتغنى فيها بصبره ، وجلده ، ويلتمس لنفسه فيها العذر ، حين طلب افتداءه ، فما طلب ذلك ولا التمسه ، إلاّ رحمة بأم عجوز ، أسقمها أسره ، وفت فى عضدها بعاده ، وتتردد فى هذه القصيدة نغمات إيمانية جميلة ، يجسد أبو فراس من خلالها إيمانه الشديد بالله ، ورضاه بقضائه سبحانه وقدره ، وثقته الكاملة برحمة الله بعباده ، حين يلهم ذوى المصائب منهم الصبر الجميل . يقول أبو فراس مستهلا هذه القصيدة :

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى – تحقيق السامرائى ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

الفصل الثالث

الشريف الرضي ، والإحساس ببطولة الانتماء

الفصل الثالث

الشريف الرضي ، والإحساس ببطولة الانتماء

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد ، بن موسى ، بن إبراهيم ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ، بن الحسين بن علي ، بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، المعروف بالموسوي" (١) .

ولم يذكر لنا من أرخوا للشريف نسب أمه إلا أننا نقع في ثنايا شعره على بعض إشارات يشتم منها أن أمه لا ينتهي بها نسبها إلى آل البيت كما هو الحال عند أبيه . فالشريف يقول عن هذه الأم ، وهو بصدد رثائها :

شَهِدَ الخلائق أنها لنَجيبةٌ   بدليل من وَلَدَتْ من النُّجباء (٢)

فهو في هذا البيت يصرح بأن أمه قد حازت النجابة بمن ولدت من رجال أماجد ، نجباء ينتهي بهم نسبهم إلى آل البيت . ولو كانت

(١) وفيات الأعيان – لابن خلكان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ج ٤ ص٤٤ .
(٢) ديوان الشريف الرضي . دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت – ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م المجلد الأول ص٢٨ .

تلك الأم نجيبة أصلا لما أكسبها أبناؤها تلك النجابة ولما احتاجت إلى شهادة من أحد تثبت لها ذلك ، فالمعهود أن الأبوين هما اللذان يكسبان أبناءهما شرف نسبهما ، وليس العكس صحيحا ، ومن المعهود أيضا أن شريف النسب ليس في حاجة إلى من يشهد له بشرف نسبه .

ونقع في شعر الشريف على إشارة أخرى لعلها تؤيد ما ذهبت إليه وهي فخره بالانتماء إلى علي (كرم الله وجهه) أبا ، وإلى فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) أما وذلك في قوله :

أبي الوصيُّ ، وأمِّي خيرُ والدةٍ   بنتُ الرسولِ الذي ما بعدَه رُسُلُ (1)

وأما فخره بأمه أنها ابنة لآباء غر ، كرماء ، ناصرين للحق ودعاة للهدى والصلاح ، وكاشفين للغم ، وذلك في قوله :

آباؤكِ الغرُّ الذين تفجَّرتْ   بهمُ ينابيعُ من النَّعْماءِ
من ناصرٍ للحقِّ أو داعٍ إلى   سُبُلِ الهُدى أو كاشفِ الغَمَّاءِ
نزلوا بعَرْعَرةِ السَّنامِ من العُلى   وعَلَوا على الأثْباجِ والأمْطاءِ
من كلِّ مستبِقِ اليدينِ إلى النَّدى   ومُسَدَّدِ الأقوالِ والآراءِ
يُرْجَى على النَّظَرِ الحديدِ تكرُّماً   ويُخافُ في الإطْراقِ والإغْضاءِ
دَرَجُوا على أَثَرِ القرونِ وخلَّفُوا   طرقاً مُعبَّدةً من العلياءِ (2)

---

(1) ديوان الشريف الرضي – المجلد الثاني ص١٨١ .
(2) ديوان الشريف الرضي – المجلد الأول ص٢٨ .

فلا يحمل ذلك الفخر على أن تلك الأم كانت شريفة النسب من آل البيت ، بل هي معان وصفات عامة يتوقع من أى بار أن يضفيها على أمه ، ومن الجائز أن ينتهي نسب هذه الأم إلى آباء متشيعين إذ أن هذه الصفات التي ركّز عليها الشريف الرضى في فخره بأمه ، قد أكثر الشيعة من استخدامها وإضفائها على أنفسهم خاصة سراتهم .

والواقع أن كون أم الشريف لا تنتسب إلى آل البيت ، لا ينقص من قدر ابنها ، ولا يقلل من إحساسه بالانتماء . فانتهاء نسبه من جهة أبيه — إلى " علىّ " (كرّم الله وجهه) جعله يستشعر البطولة في نفسه ، فعاش حياته يتغنى بهذه البطولة ، بطولة النسب الشريف ، والحسب المنيف ، وكان ذلك يقتضيه التغنى ببطولته الحربية وقدرته على القتال ، واستخدام السيف في الذّبّ عن أحقية الطالبية ضد من غصبوهم الخلافة — في رأيه ، ورأى كل شيعى حتى اليوم .
إذن فبطولة الشريف تكمن في إحساسه ببطولة الانتماء ، فهو يستشعر أن نسبه كفيل بأن يرفعه فوق العالمين ، وأن يجعله في مصاف الخلفاء فها هو ذا يخاطب الخليفة القادر بالله بقوله :

عطفًا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ ... أبدًا، كلانا في المعالى مُعرِقُ
إلا الخلافة ميّزتك فإنني ... أنا عاطلٌ منها وأنت مُطوَّقُ(1)

---

(1) المصدر السابق — المجلد الثاني ص٤٢ .

فهو يتساوى مع الخليفة فى عراقة الأصل ، ولكن الخليفة يستعير حلية زائلة هى الخلافة .

هكذا كان الشريف الرضى ينظر إلى نفسه ، نظرة دفعه إليها نسبه الشريف ، الذى ظل يتغنى بإحساس بطولة الانتماء إليه ، مجسّدا من خلال ذلك الإحساس ، نبل شرفه ، وعلو منزلته، ورفعة مكانته .

يقول صاحب اليتيمة عن الشريف الرضى : " وهو اليوم أبدع أبناء الزمان ، وأنجب سادة العراق ، يتحلى مع محتده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم أشعر الطالبيين من مضى منهم ، ومن غبر ، على كثرة شعرائهم المفلقين ، كالجمانى ، وابن طباطبا ، وابن النّاصر ، وغيرهم ، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق "(1) .

وشعر الشريف الرضى يزخر بالتغنى بالإحساس ببطولة الانتماء إلى النسب الشريف ، ويزخر كذلك بالتغنى بحدّة هذا الإحساس وباستعداد النفس لتقبله ، وبما بملك من أسباب ذلك . فتغنى بالشجاعة ، وقوة النفس ، وشدة البأس ، والهمة ، والكرم والإقدام ، والصبر والتجلد ، والإصرار على بلوغ المجد . كما تغنى إلى جانب ذلك بعفته ، ووقاره ، وصون عرضه ، وغنى نفسه ، وهى كلها عوامل الاستعداد النفسى عند الشريف الرضى ، وعُدّة

(1) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ١٥٥ .

الإحساس ببطولة الانتماء إلى النسب الشريف مثلا فى آل البيت (رضى الله عنهم) .

تغنى الشريف الرضى بشجاعة يصفها واحدة من عُدد الإحساس ببطولة الانتماء ، يقول مجسدا هذه الشجاعة ، والقدرة على القتال :

وَيومٍ وَغَّى عَلى الأَعداءِ هَوْلٌ   تُمازُ به السِّراعُ من البِطاءِ
رميتُ فروجَه حتّى تَفَرّى   بأيدى الجُرْدِ والأَسَلِ الظِّماءِ
فَمِنْ غُلْبٍ كأنّهمُ أُسودٌ   عَلى قُبٍّ ضَوامِرَ كالظِّباءِ
وَمِنْ بِيضٍ كأنَّ مُجرِّدِيها   يَمُرُّونَ الأَكُفَّ عَلى الأَضاءِ
نَواحِلَ لَمْ يَدَعْ ضَربُ الهَوادِى   بِها أبدًا مكانًا للجَلاءِ
وَمِنْ هاوٍ تَرَنَّحَ فى العَوالِى   وَعارٍ قد أَقامَ على العَراءِ
وآخَرَ مالَ كالنَّشْوانِ مالَتْ   بِهامَتِهِ شآبِيبُ الطِّلاءِ
وعُدْتُ وقَد خَبأْتُ الحربَ عَنهُ   إِلى سِلْمِ الرَّغائبِ والعَطاءِ
فيومٌ للمكارِمِ والعَطايا   ويومٌ للحَمِيَّةِ والإِباءِ

وهكذا تجسد الأبيات شجاعة الشريف الرضى ، وثباته عند اللقاء وقيادته لرجال كأنهم الأسود جسارة ، وبسالة ، كما تجسد الأبيات إلى جانب - هذه الشجاعة القتالية - وجها آخر من وجوه الشجاعة وهو الصفح ، والعفو ، الذى يتبعه الكرم والعطاء ، فشجاعته ليست شجاعة الغاشمين بل شجاعة رجل يأوى إلى أصل كريم ، ويستند إلى نسب عريق .

ويواصل الشريف الرضى تغنيه بشجاعته ، وقدرته على القتال وصبره فى مواجهته ، ويقول مخاطبا بهاء الدولة :

كفاك نوائب الأيام كاف   طرير العزم مشحوذ المضاء
أمين الغيب لا يوكى حشاه   لأمنه على الداء العياء
أقام ينازل الأبطال حتى   تقلل كل مشهور المضاء
إزاء الحرب يعتنق العوالى   ويغتبق النجيع من الدماء
إذا ما قيل مل رأيت منه   نوازع تغريب إلى اللقاء

ويتوالى تغنى الشريف الرضى بشجاعته ، وتأكيده هذه الشجاعة المقترنة بسداد الرأى ، والحكمة فيواصل تغنيه مكملا خطابه لبهاء الدولة :

فجربنى تجد نصل سيف عزم   يصمم غربه ، وزناد رأى
وأسمر شارعا فى كل نحر   شروع الصل فى ينبوع ماء
إذا علقت يداك به حفاظا   ملأت يديك من كنز الغناء
يعاطيك الصواب بلا نفاق   ويمحضك السداد بلا رياء
جرئ يوم تبعثه لحرب   وقور يوم تبحثه لرأى (1)

والشريف الرضى — يشغله — كما قلت — التغنى بشجاعته وقوته ، وجرأته على الأعداء فكل هذه من عدد الإحساس ببطولة

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول من ص ١٤ — ١٧ .

الانتماء إلى النسب الشريف ، فالنسيب الخامل لا يعد إذا عد الرجال ، وإنما النسيب فى حاجة إلى رصيد من المكارم الشخصية تنمى عنده ، إحساسه بالانتماء إلى ذلك النسب ، وتقويه . لذا فالشريف الرضىّ حريص على التغنى بهذا الرصيد من المكارم التى هى من عوامل الاستعداد النفسى ، ومن أسباب الإحساس ببطولة الانتماء ، والشجاعة أولى هذه العوامل ، وأهمها ، لذا زخر شعر الشريف الرضىّ تغنيا بها وتجسيدًا لها :

لَغَامُ المطايا من رُضابِك أعذبُ ... ونبتُ الفيافى منك أشهى وأطيبُ
ومالىَ عندَ البيضِ ياقلبُ حاجةٌ ... وعندَ القَنا والخيلِ والليلِ مَطْلَبُ
أحبُّ خليلىَّ الصفيّينِ صارمٌ ... وأطيبُ دارىَّ الخِباءُ المُطنَّبُ
ذليلٌ لريبِ الدَّهرِ من كانَ حاضرًا ... وحربٌ لدَى الأيامِ مَنْ يتغرَّبُ
ولِى من ظهورِ الشُّدَّ قِمَّياتِ مقعَدٌ ... وفوقَ متونِ اللاحقيَّاتِ مركبُ
لثامِى غبارُ الخيلِ فى كلِّ غارةٍ ... وثوبى العوالى والحديدُ المذرَّبُ
أساكتُ بعضَ الناسِ والقولُ نافعٌ ... وأغمدُ عن أشياءَ والضربُ أنجبُ
وأطمعنى فى العزِّ أنِّى مغامرٌ ... جرىٌّ على الأعداءِ والقلبُ قُلَّبُ
وعندِى ممَّا خوَّلَ اللهُ سابحٌ ... وأسمرُ عسَّالٌ وأبيضُ مقضبُ (1)

وهى أبيات تفيض من خلالها مشاعر الشريف الرضىّ ، وإحساساته ببطولته الحربية ، تلك البطولة التى يرى الشريف أنها من عُدد الإحساس

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٧٩ .

ببطولة الانتماء إلى النسب الشريف .

وتتكرر هذه المعاني ذاتها كثيرا في تغني الشريف الرضيّ بشجاعته وقدرته على القتال وعشقه له ، ما دام كان ذلك في سبيل شرفه ، ومجده :

مَشْرَبايَ إمَّا صَهْوةٌ أو غَـــارِبُ ... ومُناي إمَّا زاعِـفٌ أو قاضِـــبُ
في كلِّ يومٍ تنتضيني عَزْمَـــةٌ ... وتَمُدُّ أعْناقَ الرّجَـاءِ مَـــآرِبُ
قلبٌ يصادقني الطّلاب جَـرَاءَةً ... ومنَ القلوبِ مُصادِقٌ ومُـــوارِبُ
ما مذهبي إلاّ التَّقحمُ بالقَنَـا ... بَيْنَ الضُّلوعِ وللرِّجَـالِ مَذاهِـبُ
وعليَّ في هذا المقالِ غَضَاضَـةٌ ... إنْ لمْ يُساعدني القَضاءُ الغَالِـبُ
مالي أخَوِّفُ بالرّدَى فأخافُـهُ ... هَيْهاتَ لي في الخَلْقِ بَعْدُ عَجائِبُ
والعزمُ يطْرحُني بكلِّ مَفَـــازةٍ ... مُتَشابِهٍ فيها رُبىً وغَـــوارِبُ
أُعطِي الهَجيرَ مُرادَهُ مِنْ صَفْحَتي ... وتَكُدُّ سَمْعي بالصَّريرِ جَنَــادِبُ
إمّا أقومُ صُدُورَ مَجْدي بالقَنَـا ... ويَقُرُّ غَضْبي أو تَقومُ مَنَــادِبُ

ويكمل الشريف الرضيّ تغنّيه بنفسه ، وما وهب من قدرة على القتال وصبر على الخطوب ومواجهة للموت في ميادين القتال ، والنضال :

وعليَّ تَضْميرُ الجِيَـادِ لِغَـارَةٍ ... فيها خَضِيبٌ بالدِّماءِ وخَاضِـبُ
أَرْضَاءُ وذُبْيانُ الخُطوبِ تَنُوشُني ... والعزمُ ماضٍ والرِّماحُ سَوَالِـبُ
أنا أكْلَةُ المغتابِ إنْ لمْ أجْنِهَـا ... شَغْواءَ يَحْضُرُها العُقَابُ الغَائِـبُ
وكأنَّما فيها الرِّماحُ أرَاقِــمٌ ... وكأنَّما فيها القِسِيُّ عَقَــارِبُ

قدْ عَزَّ مَنْ ضَنَّتْ يداهُ بوجْهِهِ   إنَّ الذَّليلَ مِنَ الرِّجالِ الطَّالِبُ(١)

و هكذا يختتم الشريف الرضى تغنيه ببطولته الحربية بهذه الحكمة التى هى فى الوقت نفسه تغن بعزة النفس التى هى لازمة من لوازم الشجاعة والبطولة . والشريف الرضى عاش عزيز النفس ، عفيفا - وقد حمله التجمل والتعفف - على حد تعبير زكى مبارك - " على هجر أبواب الملوك ، والوزراء ، فلم يمدح إلا عن حب ، أو مداراة ، ولم يره أحد يزاحم الشعراء ، والأدباء على أبواب السلاطين " (٢) .

وترتبط الشجاعة بعزة النفس كثيرا فى تغنى الشريف الرضى ، وفى تجسيده لكل عدة من عدد الإحساس ببطولة الانتماء عنده :

بَنَانِى والعِنَانُ إذا نَبَتْ بِى   ربَى أيْضٍ ورَحْلِى والرِّكابُ
وسَابِغَةٌ كأنَّ السَّرْدَ فِيهَا   زُلالُ الماءِ لَمَّعَهُ الحَبَابُ
مِنَ اللَّائِى يُمَاطُ العيبُ عَنْهَا   إذا نُثِلَتْ لَدَى الرَّوْعِ العِيَابُ
إذا ادَّرَعَتْ تَجَنَّبَتِ المواضِى   مَعَاجِمُهَا وقَهْقَهَتِ الكِعَابُ
ومُشْرِفَةُ القَذَالِ تَمُرُّوهُ وا   كما عَسَلَتْ عَلَى القاعِ الذِّئَابُ
مُجَلِّيَةٌ تشقُّ بِهَا يَدَاهَا   كما جَلَّى لِغَايَتِهِ العُقَابُ(٣)

---

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص٨٤ .
(٢) عبقرية الشريف الرضى - زكى مبارك ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م - الطبعة الرابعة جـ١ ص٤٢ .
(٣) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص١٢٥ ، ١٢٦ .

ويتكرر هذا المعنى كثيرا فى شعر الشريف الرضى إذ يربط – كما قلت بين الشجاعة ، والبطولة الحربية ، وبين عزة النفس بوصفهما عدتين من عدد الاستعداد النفسى للإحساس ببطولة الانتماء . يقول مخاطبا أباه :

وأنا الضارب عن علاك بمقول ماضى الغرار ولا الجراز المصقل
يدمى الجوارح وهو ساكن غمده ولقلما يدمى بغمد منصل
هيهات يلحق بالصميم مدرع أبدا ويزرى بالبحار الجدول
ماصابم كدر الذباب كصارم خلع الجلاء على ظباه الصيقل
وسائنا الظلماء يكتم شخصها أنى أضاء العارض المتهلل
ليس التفرد بالعلاء طماعة إن العلى درج لمن يتوقل
نظم ونثر قد طمحت إليهما صعدا ويعنو للأخير الأول
وحديث فضلى ضارب بعروقه فى الأرض ينقله المطى البزل
لولاك ما سمحت بقول همتى قدرى أجل من القريض وأنضل[(1)]

والأبيات وإن كانت تعن بالفصاحة ، والبلاغة ، وحسن التأنى إلا أن الشريف الرضى قد تغنى ببيانه ، وبلاغته ، وفصاحته على أنها سيوف تدمى الجوارح وهى مغمدة ، فهى لا تعدو أن تكون كلمات ولكن لها فعل السيوف فى ميادين القتال ، وهذا ملمح من ملامح شخصية الشريف الذى لا يرى نفسه إلا مقاتلا حتى لو كان فى ميادين

---

(1) المصدر السابق – المجلد الثانى ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

الكلام ، ثم يربط الشريف – على عادته – بين الشجاعة ، والهمّة وجلال القدر فى ختام هذه الأبيات ، فهو يرى أنه أكبر ، وأجل من أن يكون مادحًا لأحد ، ولولا أن الممدوح أبوه لما سمحت همّته بمدحه ، ويذكرنا الشريف الرضىّ فى هذا الموقف بأبى فراس الحمدانى الذى تغنى من خلال شعره بأنه لم يكن مادحا ، ولا هاجيا ، كما يذكرنا بأبى الطيب المتنبى الذى ترفّع عن مدح كثير من الوزراء تخوفا من أن يحط مديحه لهم من قدره ، أو يغض من بطولته . ومثلما تغنى الشريف الرضىّ بشجاعته ، وقدرته على القتال ، وصبره فى مواجهة الموت فقد تغنى كذلك بقوة نفسه على أنها هى الأخرى عُدة من عُدد الإحساس ببطولة الانتماء :

يطولُ عناءُ العيسِ ما دُمْتَ فوقها ... وما دام لى عزمٌ ورأىٌ ومذهبُ
وهوّنَ عندى ما يقلّبى من الصّدى ... ظماءٌ تجافى موردَ الماءِ لُغّبُ
فما أنا بالوانى إذا كنتُ صاديًا ... ولا الماءُ يعطينى قُوًى يومَ أشربُ
وما الوِرْدُ بعدَ الوِرْدِ بلا لغلّتى ... وإنْ بلَّ ظمأ الداعريّاتِ مشربُ (1)

وهكذا ، ومن خلال هذه الأبيات يجسد الشريف الرضىّ قوة نفسه وشدة عزمه ، وصبره وجلاده فى مواجهة الحياة ، وهذه كلها من عدد الاستعداد النفسى ، والإحساس ببطولة الانتماء التى تحققت للشريف الرضىّ بما ورثه عن أهله ، وبما أضاف إليه من رصيد شخصى

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٨١ .

ومقومات للمكارم والمحامد التي يمتلكها هو نفســه .

ويتغنّى الشريف الرضّي بهذه المعاني ذاتها مجسدا إيّاها حين يتحدث عن أمر نقابة الأشراف ، ويتذكر ما كان من قومه حين تولاها :

وَلكنّ الحَمِيّةَ فِيّ تَأبَى ... قَرارِي لِلرِّجالِ على التّكافِي
وَأنْظُرُ سُبَّةً وعظيمَ عارٍ ... رِضايَ مِنَ المُنازِعِ بالكَفافِ
ولوْ أنّي رميتُ أصابَ سَهْمي ... ولكنّي أُنقِّبُ عَنْ شِغافِي
فما سَهمِي السَّديدُ من النَّوابِي ... وَلا باعِي الطّويلُ مِنَ الضِّعافِ
وَلِي أنفٌ كأنفِ اللّيثِ يأبَى ... شَمِيمَ لِلْمَذلّةِ واشْتِيافِي
وَقدْ عرفَ العِدى وبَلَوْا قديمًا ... خُطايَ إلى المَنايا وازْدِلافِي
لِيَ العزمُ الّذي قَدْ جَرّبُوهُ ... يَقُدُّ مَضارِبَ البِيضِ الخِفافِ
ورَبْطُ الجأشِ والأقدامُ زُلٌّ ... يُزَلْزِلُها الرّدى يومَ الوِقافِ (1)

فالحمية ، والهمّة ، وطول الباع ، والأنفة ، والعزم ، وربط الجأش كلها من مقومات قوة النفس وأسبابها ، وقوة النفس واحدة من عدد الإحساس ببطولة الانتماء عند الشريف الرضّي . وكذلك وإلى جانب التغني بالشجاعة والقوة والقدرة على القتال ، وقوة النفس فقد تغنى الشريف الرضي بشدة البأس والحلم بوصفها أيضا عُدّ تين من عدد استعداد النفس للإحساس بالبطولة الذاتية عنده ، ببطولة

(1) المصدر السابق — المجلد الثاني ص ١٥ و ١٦ .

الانتماء إلى النسب الشريف :

قَدْ قُلْتُ للعَادِي عَلَيَّ بِهَفْبِهِ ... مَهْلاً فما يلحو القتادة لاحِي
فَحَذارِ إِنْ مطرتْ عليك صواعقي ... وحَذارِ إِنْ هبَّتْ عليك رياحي
أوفى الصَّباحُ فشقَّ كلَّ دُجُنَّةٍ ... وعلا الزئيرُ فغضَّ كلَّ نُبَاحِ
أنا مَنْ علمتَ على المكاشحِ مُرْهَفٌ ... نابي وشَاكٍ في الخِصام سلاحي
وأبيتُ أنْ أُعطي الأعادي مِقْوَدي ... أوْ أنْ تدِرَّ على الهوانِ لِقَاحي
مِنْ بَعْدِ ما أوْضَعْتُ في طُرُقِ العُلا ... وأضرَّ بالأعداءِ طُولُ كِفَاحي
وسحبتُ مِنْ خِلَعِ الخلائفِ طارِفًا ... لحظاتُ كلِّ مُعانِدٍ طمّاحِ
ووليتُ في السِّنِّ القريبةِ أُسْرتي ... فوكلتُ فاسدَهُمْ إلى إصلاحي
بمهابةٍ عمّتْ بغيرِ تكبُّرٍ ... وصرامةٍ أُدْمَتْ بغيرِ جِرَاحِ
حِلْمٌ كحاشيةِ الرِّداءِ ودُونَهُ ... بأسٌ يدُقُّ عوامِلَ الأرماحِ
فلَئِنْ علوتُهُمُ فليسَ بِمُنْكَرٍ ... إمّا علتْ غُرَرٌ على أوضاحِ (1)

وهكذا يرتبط الحلم بشدة البأس عند الشريف الرضيّ ، كما ارتبطت عنده الشجاعة بالعفو والصفح والكرم . فالبأس والحلم من عُمُد استعداد الشريف الرضيّ النفسي للإحساس ببطولته الذاتية ، وبهما يعتدل ميزان القوى في النفس البشرية ، والأمر فيهما كالأمر في الشجاعة والعفو تماما يكمل كل منهما الآخر ولا غنى لإحدى المكرمتين عن أختها .

---

(1) ديوان الشريف الرضي — المجلد الأول ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

بوصفها مكرمة

ومثلما ارتبطت الشجاعة بعزة النفس عند الشريف الرضي من مكارم النفس ، وعدتين من عدد الإحساس بالبطولة الذاتية ، فكذلك ارتبطت عند الشريف الهمّة بعزة النفس أيضا فالهمّة ضرب من ضروب الشجاعة لأنها شجاعة المرء في مواجهة الحياة ، وأعبائها :

إنّي لتحقِنُ ماءَ وجهيَ همّتي ... مِنْ أنْ يُراقَ على يدي بأيادي
مَمّا يقلّلُ رغبتي أنّي أرى ... صَفَدي ببذْلِ المالِ مثلَ صِفادي
والمالُ أهونُ مطلَبًا منْ أنْ أرى ... ضرعًا أرامي دونَه وأُرادي
ومُناضِلٍ عثرتْ به أحسابُهُ ... في مَسْلَكٍ وعْرٍ منَ الأجدادِ
خلّقْتَ عُرْفَ جوادِه بنجيبهِ ... والسّبْقُ في طلقِ الرّدَى لجوادِ(1)

وهكذا يرى الشريف الرضي أن الحسب الشريف يضمن لصاحبه السبق على من تعثرت به أحسابه ، شريطة أن يكون الحسيب مناضلا ، لا خاملا فالحسيب الخامل لن يجد مسلكا للسبق في هذه الحياة . لذا كان الشريف الرضي حريصا على التغنى بهذا الرصيد الشخصي من المكارم التي هي في حقيقة الأمر عدد ، وأسباب من عدد الإحساس بالبطولة الذاتية وأسبابه . ومن عدد الإحساس ببطولة الانتماء التي تغنّى بها الشريف الرضيّ ، وجسّدها من خلال أشعاره الإقدام ، والإقدام كالهمة ضرب من ضروب الشجاعة سواء في ميادين القتال ، أو في ميادين الحياة :

رِدي مُسّ الوُرودِ ولا تخافي ... فما يَنْأى بموتِكِ أنْ تخافي

---

(1) المصدر السابق ـ المجلد الأول ص٣٣٨ .

فَطَـوْرًا تُعْرِضِينَ علـى زُلالٍ   وَطَوْرًا تُعْرِضِينَ على ذُعَـاف
وَمَنْ يَشْرَبْ بِصافٍ غَيْرِ رَنْقٍ   يَرِدْ يَوْمًا بِرَنْقٍ غَيْرِ صَـافِ (1)

والصبر والتجلد مما يَجْمُل بالإنسان أن يتحلّى بهما ، وأن يكونا من عُدده في مواجهة الحياة وخطوبها ، ولقد تحلّى بهما الشريف الرضىّ وكانا عُدة من عُدد إحساسه ببطولته الذاتية ، بطولة الانتماء إلى النسب الشريف الذى يصله بآل بيت النبوة الذين ضربوا المثل فى الصبر والتجلد فالشريف الرضى فى رثائه لأمه يتغنّى بصبره ، وجلاده فى مواجهة ذلك الخطب فيبدو متجمّلا بهما ، ساترًا دموعه ، حتى لا يشتفى أعداؤه حين يرونه متململا جزعا ، ضعيفا خائر القوى ، والعزيمة :

أَبْكِيكِ لو نَقَع الغليلُ بُكائى   وأقولُ لو ذهَبَ المَقَالُ بِدائِى
وأعوذُ بالصّبرِ الجميلِ تَعَزِّيًا   لو كانَ بالصّبْرِ الجميلِ عَزائِى
طَوْرًا تُكاثِرُنِى الدموعُ وتارَةً   آوِى إلى أُكْرُومَتى وحَيائى
كمْ عَبْرةٍ مَوّهْتُها بأَنَامِلِى   وسَتَرْتُها مُتجمّلا بِرِدائى
أُبْدِى التَّجمُّلَ للعَدُوِّ ولوْ دَرَى   بِتَمَلْمُلِى لقد اشْتَفَى أَعْدائى
ما كنتُ أذخرُ فى فداكِ رَغيبةً   لو كانَ يُرْجِعُ مَيِّتًا بِفِداءِ

ويذكّرُ الشريفُ الرضىّ صبرَه فى مواجهة فقد أمه ، بصبره فى ميادين القتال وسط رفاقه ، وصحبه الذين ذهبوا كما ذهب الشريفُ القدوةَ

---

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الثانى ص١٥ .

والشجاعة ، والصبر والجلاد ، فيأخذ التغنى بهؤلاء الرفاق وصبرهم ، وما ذلك إلا امتداد للتغنى بصبره وجلاده :

لو كان يدفع ذا الحمام بقوة ... لتكدست عصب وراء لوائي
بعد تبين على القراع تعبئوا ... ظل الرماح لكل يوم لقاء
قوم إذا مرهوا بأغباب السرى ... كحلوا العيون بإثمد الظلماء
يمشون في حلق الدروع كأنهم ... صم الجلامد في غدير الماء
ببروق أذراع ورعد صوارم ... وغمام قسطلة ووبل دماء(1)

والعفة ، والنقاء ، والطهر مما تغنى به الشريف الرضى بوصفها من عدد الاستعداد النفسى للإحساس ببطولته الذاتيه — بطولة الانتماء إلى من كانت العفة ، والطهر أول سجاياهم وأهم محامدهم وأعظم رصيد لهم فى هذه الحياة . ولقد ركز الشريف الرضى فى تغنيه على هذه المحامد ، والمكارم مجسدا لها لعلمه أنها أول أسباب بطولته ، وأجل مقوماتها :

أرابك من مشيبى ما أرابا ... وما هذا البياض علىّ عابا
لئن أبغضت منى شيب رأسى ... فإنى مبغض منك الشبابا
يذم البيض من جزع مشيبى ... وذل البيض أول ما أشابا
وكانت سكرة فصحوت منها ... وأعجب من أبى ذاك الشرابا
يميل بى الهوى طربا وأنأى ... ويجذبنى الصبا غزلا فآبى
ويمنعنى العفاف كأن بينى ... وبين مآربى منه هضابا

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٢٦ .

نصلتُ عن الصِّبا وصاحبيه ... وأبدلني الزَّمانُ بهم صِحابا
ولمّا جدَّ جِدُّ البينِ بيني ... وهبْتُ لهُ الظّمائنَ والقِبابا
وما روّعتُ من جزعٍ جَنانًا ... ولا رَوّيتُ من دمعٍ جِنابا (١)

وهكذا يربط الشريف الرضيّ بين عفته وقوة نفسه ، فبدون هذه القوة لا يستطيع الإنسان أن يكون عفيفا . ويتكرر التغني بالعفة في شعر الشريف الرضيّ كثيرا ، فهي صفة متأصلة فيه ورثها عن قومه ونمّاها في نفسه ، تدفعه إليها دائما غيرته على عرضه وأصالة محتده :

يشكو الحبيبُ إليّ شدّةَ شوقِه ... وأنا المشوقُ وما يبين جَناني
وإذا هممتُ بمن أُحبّ أمالني ... حَصَرٌ بحوقٍ وعفّةٌ تنهاني
لله ما أغضتْ عليه جوانحي ... والشوقُ تحت حجابِ قلبي عانِ
ما مرّ بوقٌ في فروجِ غمامةٍ ... إلّا وأعدى القلبَ بالخفقانِ
وإذا تحرّكتِ الرّياحُ تحرّكتْ ... بين الضّلوعِ غوامضُ الأشجانِ
أجمعتُ لحظي عفّةً وسجيّةً ... أنْ لا أُجمّ البيضَ في الأجفانِ
غيرانَ دونَ العرضِ لا أسخو به ... والعرضُ خيرُ عقيلةِ الإنسانِ
وأذودُ عن سمعي الملامَ كأنّه ... عضوٌ أخافُ عليه حدَّ سِنانِ
لي يقظةُ الذئبِ الخبيثِ فإنْ جرى ... سَفَهٌ فعندي نومةُ الظّربانِ
حدثٌ على الأحبابِ لا أشكو الذي ... يشكو ولا أنسى الذي ينساني (٢)

---

(١) المصدر السابق — المجلد الأول ص ٩٣ .
(٢) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص ٥١٧ .

وهكذا يربط الشريف الرضيّ بين العفة والغيرة ، واليقظة والتسامح ، وكلها من عُدد الإحساس بالبطولة الذاتية التي يستشعرها في نفسه بطولة الانتماء إلى نسب شريف ، يمتلك أصحابه هذه الصفات ويورثها منهم جيل بعد جيل .

ومثلما تغنّى الشريف الرضيّ بالعفة ، فقد تغنى بغنى النفس وما العفة إلاّ ضرب من ضروب غنى النفس ، فعفاف المرء وكسره لشهوته وامتلاكه لنفسه ، وكبحه لجماحها ، دليل على الاقتناع بالشبع ، والقناعة بالحلال ، وذلك معنى من معاني غنى النفس الذي تغنّى به الشريف الرضي على أنه عُدة من عُدد الاستعداد النفس لتقبل الإحساس بالبطولة الذاتية في نفسه ، بطولة انتمائه إلى آل البيت الذي غنيت أنفسهم عن زخارف الحياة ، ومتعها :

تَميلُ بِيَ الدُنيا إِلى كُلِّ شَهوَةٍ ... وَأَينَ مِنَ النَجمِ البَعيدِ مَنالُ
وَتَسلُبُني أَيدي النَوائِبِ ثَروَتي ... وَلي مِن عَفافي وَالتَقَنُّعِ مالُ
إِذا عَزَّني ماءٌ وَفي القَلبِ غُلَّةٌ ... وَجَعتُ وَصَبري لِلغَليلِ بِلالُ
أَرى كُلَّ زادٍ ما خَلا سَدَّ جَوعَةٍ ... تُراباً وَكُلَّ الماءِ عِندي آلُ
وَمِثلِيَ لا يَأسى عَلى ما يَفوتُهُ ... إِذا كانَ عُقبى ما يَنالُ[1] زَوالُ

(1) المصدر السابق — المجلد الثاني ص ١٢٥ .

وغنى النفس لا يتعارض مع الإصرار على بلوغ المجد ، ونيله عند الشريف الرضيّ ، فنفس الكريم لا تقنع بما حققت من مجد ، وما حازت من فخار ، أما غنى النفس فمقصور على الزهد في كل ما كان زائلا في هذه الحياة مهما غلا ثمنه . لذا فالشريف الرضي يتغنى كثيرا بإصراره على بلوغ ما يبقى به لأجله حديثا من مجد مهما كلفه ذلك ، ومهما عانى في سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة التي تُعَدُّ من عُدد البطولة في النفوس الزكية الكريمة :

دَعيني أُطلُبُ الدُّنيا فإنّي ... أرى المسْعُود منْ رُزِق الطِّلابا
ومنْ أبْقَى لأجلِه حديثاً ... ومن عانَى لعاجِله اكتِسابا
وما المغبُونُ إلاّ من دهتْه ... ولا مَجْدًا ولا جِدةً أصابا
فلا واللّهِ أتركُها خليباً ... ولمَّا أجْنُبِ الأُسْدَ الغضابا
وأركبُها محصَّنةً شَبُوباً ... تُمانِعُ غيرَ فارسِها الرِّكابا
إذا نهْنَهْتُها أُرِنَتْ جِماحاً ... إلى أملٍ تُجاذِبُني جِذابا
فإمّا أملأُ الدُّنيا علاءً ... وإمّا أملأُ الدنيا مُصابا
سَجيّةُ منْ رَعَى الأيّامَ حتَّى ... أشابَ جِماجِمًا منْها وشابا (1)

وطبعي أن يتغنى الشريف الرضيُّ بقوته ، وعزمه ، وهو بصدد التغنى بإصراره على بلوغ المجد ونيله ، لذا يربط الشريف هذا بذاك لصلتهما الوثيقة وبحاجة من يبغى المجد ، ويهفو إليه إلى القوة وشدة

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٩٣ ، ٩٤ .

العزيمة وصدق الإصرار .

ويكثر الشريف الرضى من تغنيه بإصراره على بلوغ المجد ، ونيله ، يدفعه إلى ذلك إحساسه ببطولة الانتماء إلى نسب شريف ، فالإحساس بالانتماء إلى مثل ذلك الشرف يدفع بصاحبه دائما إلى مزيد من المجد ومزيد من العزة ، والسيادة ، فالبطولة تمنع صاحبها من الاقتناع بما حقق من مجد ، وما حاز من فخار بل البطولة فى ذاتها تطلع دائم إلى المزيد مهما اختلفت مناحى البطولة ، وتشعبت مسالكها . لذا فالشريف الرضىّ يبدو حريصا على التغنى بإصراره على بلوغ المجد ، بل على الإكثار من التغنى به بوصفه عُدة من عُدد الإحساس ببطولته الذاتية كما قلت من قبل :

رِدِى يا جيادى وأْذَنِى برحيلى ... سَتَرْعَيْنَ أَرْضَ الحَىِّ بَعْدَ قليلِ
ألا إنّ فى قلبى إلى المجْدِ طَرْبَةً ... وعندَ القَنَا يوماً شفاءُ غليلى
إذا ما اتَّخذْتَ الليلَ دِرْعاً حصينةً ... فأهونْ بخطبٍ للزمان جليلِ
علىَّ دماءُ البُدْنِ إنْ لم أُثِرْ بها ... رَعيلاً يشُقُّ الأرضَ بَعْدَ رَعيلِ
فآخُذُ حقى أو يَثُورَ غُبَارُهَا ... منَ القاعِ عنْ أرضٍ بِشَرٍّ مَقيلِ
وما حاجتى إلاّ المعالى وقلَّمَا ... يضيعُ رجائى والطِّعانُ رسولى
وإنّى لتَرَّاكُ البلادِ إذا نَبَتْ ... علىَّ وماذونَجْدَةٍ بذليلِ

ويؤكد الشريف الرضى فى تغنيه هذا على الربط بين الإصرار على بلوغ المجد والقوة — كما رأينا له منذ قليل — لا قتناعه — كما قلت

بحاجة طالب المجد إلى هذه القوة التي تمكنه من بلوغ ما يريد ، ومن تحقيق ما يأمل :

وإنّي مَعيرٌ ساعِدِي مَنْ أرادَهُ ... بأبيضَ طاغي الشّفرتينِ صقيلِ
إلى المَجْدِ دونَ الرّبعِ رمْتُ عزائِمي ... وبالعزّ دونَ الغيدِ بانَ تحولي
أسومُ الهوى نفسًا عزوفًا عن الهوى ... وقلبًا لضيمِ الحبِّ غيرَ قبولِ
وأمنعُ ودّي النّاسَ إلاّ أقلّهُ ... لآمنَ مَنْ طاغٍ عليّ صؤولِ
وأعْدو من عقلي حَبيبًا أصونُهُ ... وأفدي كثيري منهمُ بقليلِ
وأحْطمُ سرّي في الضّلوعِ مخافةً ... ألمْ يأنِ يومًا أنْ أذيعَ دخيلي
نديمي على شربِ الهمومِ مُهنّدٌ ... إذا شاءَ أضغى الهمّ دونَ مَقيلي
وإنّي آبَى أنْ أذلّ وفي يدي ... عناني ولمْ يقطعْ عليّ سبيلي
وكلّ دمٍ/عندي إذا ما حملتُهُ ... وإنّ أثقلَ الأقوامِ غيرُ ثقيلِ (1)

وهكذا يظهر إصرار الشريف الرضيّ على بلوغ المجد ، فهو عاشق له ، نحله عشقه للعز ، في الوقت الذي لم يشغل فيه نفسه بعشق النساء فنفسه عنه عزوف ، وقلبه لضيمه غير قبول .

ومن عُدد الإحساس ببطولة الانتماء التي تغنّى بها الشريف الرضيّ إلى جانب كل ما سبق — الوقار وصون العرض ، وهما من أسباب العفة التي تغنى بها الشريف الرضيّ كثيرا ، ومن مقوماتها ، وكل إنسان يجمل

---

(1) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص ١٥٠ ، ١٥١ .

به أنْ يكون عفا ، وقورًا ، صائنا لعرضه ، فما بالنا برجل ينتهي بـه نسبه الى بيت النبوة ، و يحس دائما ببطولة الانتماء الى هذا النسب الشريف ، وهو حريص على التغنى بهذه البطولة وبحدة الاحساس بها ، والوقار ، وصون العرض من أهم عدد ذلك الاحساس:

أنا المرء لا عرضي قريبٌ من القذى ... ولا فيّ للباغي عليّ مقـــالُ
وما العرضُ الأخير عضوٌ من الفتى ... يُصابُ وأقوالُ العداة ينـــالُ
وقورٌ فانْ لم يرعَ حقيّ جاهـــلٌ ... سألتُ عن العوراءِ كيف تقـــالُ (١)

وهكذا تغنى الشريف الرضى بكل عدة من عدد الاحساس ببطولتـــه الذاتية ، بطولة الانتماء الى النسب الشريف ، ولم يترك واحدة من تلـك العدد الا وجسدها من خلال تغنيه بها لأنها أسباب بطولته ،ومقومات الاحساس بها الى جانب ما ورثه عن اهله وذويه .

والاحساس ببطولة الانتماء قد دفع الشريف الرضى الى التغنى بابيه ، وقومه اولئك الذين ينتمى اليهم ، ويشعر ان الاحساس بالانتماء اليهــم بطولة فى حد ذاته ، لذا يكثر تغنيه بابيه ، وقومه ، وبما جازوا من مجد ، وشرف ، وعــز ، وسـؤدد .

تغنى الشريف الرضى بابيه كثيرا ، وهذا شئ طبعــى لأنه أول مـــن يحس بالانتماء اليه ، ومن خلال تغنيه بهذا الأب جسد الشريف بطولـــة أبيه ، ومناقبه ، هذه البطولة وتلك المناقب التى تكمن فى انتساب ذلك الأب الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والى " على " كـــرم الله وجهه " .

---

(١) ديوان الشريف الرضى المجلد الثانى ص ١٢٥ .

يغيظُ الى الأيّام أنّكَ لى حمىً
وغيظٌ من الأيام أنّكَ لــــى أبُ

أبَعدَ النّبىّ والوصىّ تروقنى
مناسبُ من يُعزى لمجدٍ وينسبُ

يُقرّ بفضلى كلّ بادٍ وحاضرٍ
ويَحْسُدنى هذا العظيم المحجّبُ(١)

وهكذا تجسّد الأبيات احساس الشريف الرضىّ ببطولة انتمائه الى مثل ذلك الأب حين يرى أن كل بادٍ ، وحاضر يقر بفضله وحين يجد أن كل عظيم حاسدٌ له على ذلك النسب الشريف .

(١) ديوان الشريف الرضى المجلد الثانى ص٨٣

والشريف الرضيّ في كل أشعاره التي يتغنّى فيها بأبيه يجسّد شيم ذلك الأب وفضائله التي اكتسبها جميعا بانتسابه الى بيت النبوة :

وأبي الذي حَصَدَ الرِّقاب بسيفه	في كلِّ يوم تَصادُمٍ ونِطاح
ردّتْ اليه الشمسُ يحْدث ضوؤها	صُبحًا على بُعُدٍ من الاصْبَاح
سائل به يومَ " الزبير " مشمّرا	يختال بين ذوابلٍ وصِفاح
واسْألْ به "صِفّين" إنّ زئيره	أودى بكبْشِ "أميّةَ" النطّاح
وأسألْ "شراةَ النهروان" فإنّهمْ	صُرِعوا بمُنْزلقِ البديْن وقَاح
كمْ مِنْ طَعِينٍ يومذاك مرمّل	وحَريمٍ عِزٍ بالطّعان مُبَاح
ومناقبٍ بيضِ الوجوه مُضيئة	أبدًا تُكاثر ألسُنَ المُدّاح
مَنْ قاسَ ذا شرفٍ به فكأنّما	وَزَنَ الجبالَ القُودَ بالأشْباح (1)

وتظهر من خلال هذه الأبيات نزعة الشريف الرضيّ الشيعية وعداؤه لبني أمية ، وبغضه لهم ، ذلك البغض الذي ظل يكنّه في نفسه لهم ، حتى بعد أن بعد عهدهم ، وزالت دولتهم فها هو ذا يذكر مواقع الإمام عليّ معهم ، وحروبه لهم وهو بصدد التغني بشجاعة أبيه وقدرته على القتال ، وما ذلك إلاّ تجسيد لبطولة " عليّ " (كرم الله وجهه) الحربية ، وبطولة أبنائه وأحفاده الذين هم في الوقت نفسه أجداد وآباء للشريف الرضيّ .

---

(1) ديوان الشريف الرضى ـ المجلد الأول ص ٢٥٢ .

ولا يمل الشريف الرضيّ التغني بأمجاد أبيه ، ومناقبه ، فأمجاد الأب ، ومناقبه هي في الوقت نفسه أمجاد ، ومناقب لأبنائه ، ويركّز الشريف الرضي في تغنّيه بهذا الأب — وكما قلت من قبل — على حسد الرجال له ، فذو المناقب محسود في كل زمان ، ومكان :

وأبي الذي حسدَ الرجالُ قديمه ... إنّ المناقبَ آيةُ المحسودِ
ذو السّنّ والشرفِ الذي جُمِعَتْ بِهِ ... كفّاهُ أخْطَةَ العُلَى والجُودِ
إحْدَى أخامِصِهِ رِقابُ عداتِهِ ... مِنْ سيّدٍ بلغ العُلَى ومَسُودِ (1)

ومثلما تغنّى الشريف الرضي بأبيه مجسدا بطولة ذلك الأب ، ومناقبه وأمجاده ، فقد تغنى كذلك بقومه مجسّدا أيضا مناقبهم ، وأمجادهم وشرف نسبهم الذي يحس الشريف الرضيّ ببطولة الانتماء إليه :

أنا ابنُ السّابقين إلى المعالي ... إذا الأمدُ البعيدُ ثنى البطاءَ
إذا ركبوا تضايقتِ الفيافي ... وعطّل بعضُ جمعِهمُ الفضاءَ
نَمانِي مِنْ أباةِ الضّيمِ نامٍ ... أناخ على تلك الكبرياءَ
شأَونا النّاسَ أخلاقًا لدانًا ... وأيمانًا رِطابًا واعتلاءَ

وهكذا يجسد الشريف الرضي من خلال هذه الأبيات شجاعة قومه وبسالتهم وكثرتهم ، وإباءهم ، ويؤكد الشريف الرضي هذه الأمجاد بترديدها مضيفا إليها أمجادا أخرى ، ومناقب حازها قومه :

---

(1) المصدر السابق — المجلد الأول ص ٢٨٧ .

وهكذا يجسّد الشريف الرضيّ من خلال هذه الأبيات شجاعة قومه وبسالتهم وكثرتهم ، وإباءهم ، وجميل أخلاقهم ، وكلها عدد للبطولة ومقومات لها ، ودوافع للإحساس بها في نفس الشريف الرضيّ ، ويؤكد الشريف الرضى هذه الأمجاد بترددها مضيفًا إليها أمجاد أخرى ، ومناقب حازها قومه :

وَنحنُ النازلونَ بكلّ ثغْرٍ نريقُ على جوانبه الدِّمَاءَ
وَنحنُ الخائضون بكلّ هَوْلٍ إذا دَبَّ الجبانُ به الضَّرَاءَ
وَنحنُ اللابسُون لكلّ مجْدٍ إذا شِئْنا ادّراعًا وارْتِدَاءَ
أقمْنا بالتجارب كُلَّ أمْرٍ أبى إلاّ اعْوِجَاجًا والتِوَاءَ
نَجُرّ إلى العُداةِ سَلافَ جَيْشٍ كعرض اللّيلِ يَتَّبعُ اللّوَاءَ

وهكذا يكثر الشريف الرضى من استخدام " نحن " و " نا " التي ترددت كثيرا في هذه الأبيات إمعانا في التغنى ببطولة قومه ، وشدة بأسهم ، وخوضهم للأهوال ، وإراقتهم الدماء ، وجرهم الجيوش ، وكلها من عدد البطولة التي استشعرها الشريف الرضى في قومه وذويه .

ويضيف الشريف الرضيّ إلى هذه الأمجاد التي حازها قومه ، أمجادا أخرى تتمثل في حلمهم ، وإبائهم وعفوهم وصفحهم :

ومنّا كُلُّ أغلبَ مستحيٍ إن انتَ لدَدْتَه بالذُّلِّ قَاءَ
إذا ما ضِيمَ نمّ صَفْحَتَيْهِ وقامَ على براثنهِ إبَاءَ

وإنْ نودِى بهِ والحلمُ يهفــو ... صَفَـا كرما إلى الداعى وفَـاءَ
وَنأبَى أنْ ينالَ النّصفُ منّـا ... وأنْ نُعطِى مَقارِعنا السّـواءَ
ولوْ كانَ العداءُ يسوغُ فينـا ... لما سُمْنا الورَى إلاّ العَـداءَ(1)

الزى

و من خلال ذلك الشعر الذاتى/يفيض حماسة ، وإحساسا بالبطولة والعزة ، والكرامة يجسد الشريف الرضى مناقب قومه ، ومفاخرهم وأمجاد آبائه ، وأجداده متغنيا بما ملكوا،وما حازوا من شيم ، وسجايا هى فى الواقع عدة بطولتهم ، ومقومات عزهم وسؤددهم .

و يظل الشريف الرضى متغنيا بقومه ، معددا مناقبهم ، ومفاخرهم من سعى ، وكد ، وجد ، واجتهاد فى هذه الحياة ، ومن مجد حققوه ، وعز حازوه ، برماحهم ، وسيوفهم ، وكرمهم ، وجودهم وغضبهم لشرفهم ، ثم يختتم هذه المناقب ، وتلك المفاخر بأعظمها قدرا فى نظره — وهو انتساب قومه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

ولَمْ أرَ كالمآربِ رامِيــاتٍ ... بنَا الدُّنيَا بِعَادا واقْتِرابَـا
تُخَوِّضُنَا البحارَ مُزَمْجِــراتٍ ... وتُسْلِكُنا المضايقَ والعِقَابَـا
وأعظمُ منْ عُبابِ البحرِ حِرْصٌ ... على الأرزاقِ أركبَنا العُبَابَـا
وغُلْبٌ كالقواضِبِ من " قُرَيْـشٍ " ... يُرَوُّون القَواضِبَ والكِعَابَـا
فما ولدَ الأجارِبُ من " تَمِيمٍ " ... نظيرَهُمُ ولا الشُّعَرُ الرِّقَابَـا
وإنَّ المجدَ قد عَلِمتْ " مَعَدٌّ " ... ودارَ العزِّ والنسبَ القُرابَـا

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص١٩ ، ٢٠ .

لأطولهم – إذا ركبوا – رماحا ... وأعلاهم – إذا نزلوا – قبابا
وأغزرهم – إذا سئلوا – عطاء ... وأوحاهم – إذا غضبوا – ضرابا
بنو عم النبي وأقربوه ... وألصقهم به عرقا لبابا (1)

ويركز الشريف الرضى دائما فى تغنيه بقومه على انتهاء نسبهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذلك هو أعظم مفاخر قومه، وأجل مناقبهم، وذلك سر بطولته، وأساسها، بطولة الانتماء إلى ذلك النسب الشريف:

المجد يعلم أن المجد من أربى ... ولو تماديت فى غى وفى لعب
إنى لمن معشر إن جمعوا لعلى ... تفرقوا عن نبى أو وصى نبى
إذا هممت ففتش عن شبا همم ... تجده فى مهجات الأنجم الشهب
وإن عزمت فعزمى يستحيل قذى ... تدمى مسالكه فى أعين النوب (2)

والابيات فيها مغالاة، ومبالغات أشبه بمغالاة أبى الطيب ومبالغاته فى شعره أيام صباه وشبابه، ولا عجب فأبيات الشريف الرضى هذه من قصيدة نظمها وله من العمر عشر سنين لكنها مؤشر إلى أن ذلك الصبى قد استشعر بطولته وهو ابن العاشرة، وربما قبل ذلك، وعرف أن هذه البطولة إنما تكمن فى انتهاء نسب قومه إلى نبى الله (صلى الله عليه وسلم)

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٩٤، ٩٥.
(2) المصدر السابق – المجلد الأول ص ١١٢، ١١٣.

والى « علـىّ » (كـرّم الله وجهـه) .

وظلّ الشريف الرضىّ – وكما قلت من قبل – يركز فى تغنيه بقومـه على شرف نسبهم وما يستتبعه من فضائل ، وأمجاد ، ومفاخـر :

إنّما نعـبُ ولا نعـاب ... ونَصيبٌ منكَ ولا نُصـابُ
آلَ النّبىّ ومنْ تقلّـ ... ـبَ فى حُجورهم الكتـابُ
خُلقتْ لهمْ سمرُ القنـا ... والبيضُ والخيلُ العـرابُ
فاقنَ حياءك انّما الـ ... أيامُ غُنْمٌ أو نهـابُ
مَنْ لذّ وردَ المـوت لا ... يصْفو لهُ أبدًا شـرابُ
وتطرّفى حيثُ السّمـا ... حُ الغمْرُ والحسبُ اللّبـابُ
فى حيثُ للرّاجى الثّـوا ... بُ ندًى ، وللجانى العقابُ
قومٌ إذا غمزَ الزّمـا ... نُ قنيّهمْ كرموا وطابـوا
وإذا دُعـوا والخيلُ فى الإجـ ... ـفالِ ثابوا أو أجابـوا

ويكمل الشريف الرضى تغنيه بقومه – فنراه يهجو بنى عدى مجسّدًا مناقبهـم ومفاخرهم متغنيا بأمجادهم ، وفضائلهم :

أبنى عـدىّ إنّمـا ... سالتْ بخيلكمُ الشّعـابُ
وشرفتمْ بالطّعْن والضّـرْ ... بِ ضِرامُ أوْ ضـرابُ
ماكنتُمْ إلّا البحـو ... رَ توالدتْ فيهـا الذّئـابُ
وقرعتمْ بالبيضِ حـ ... ـتّى ضاعَ فى اللّمم الشّبـابُ

والْيومَ تَسْتَلُّ السيوفَ بِهِ وَتُنسل الرقابُ
كتمتْ دماءَكُمُ الظُّبى كالشَّيبِ يكتُمُهُ الخِضابُ(1)

وإحساس الشريف الرضيّ ببطولة الانتماء إلى النسب الشريف يجعله لا يكف عن التغني بقومه الذين أورثوه ذلك المجد والشرف ، ولا يكف كذلك عن تجسيد أمجادهم ، ومفاخرهم من سبق إلى المعالي ، وحرص على المجد ، وإباء ، وشمم ، وشجاعة عند اللقاء ، وانتماء إلى نسب شريف ، وحسب منيف ، هو الانتساب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وآل بيته :

قَوْمِي أُنوفُ بَنِي "مَعَدٍّ" والذُّرى مِنْ واضِحٍ فِيهِمْ ومِنْ وَضّاحِ
السابقُونَ إلى عَلىً وَمَفاخِرٍ والغالبون على نَدىً وسَماحِ
ذَهبُوا بشأوِ المجدِ ثم تلفَّتُوا هَزْؤاً إلى الطُّلاعِ والطُّلّاحِ
شُوسُ الحواجِبِ منصِفِينَ وفي الرِّضى ما شئتَ من بيضِ الوجوهِ صِباحِ
وَرِثُوا المعالِيَ بالجُدودِ وبَعدَها بضرابِ مُرْهَفَةٍ وطعنِ رِماحِ
وقيادِ مُخْطَفَةِ الخُصُورِ كأنَّها الْـسِّحقبانُ تحتَ مُجَلْجِلٍ دَلّاحِ
يَغبِقْنَ ليلاً بالغَبوقِ وتارَةً يَصْبَحْنَ بالغاراتِ كُلَّ صَباحِ
ضَرَبَتْ بِعِرْقِي دَوْحَةٌ نبويَّةٌ في مَنصِبٍ وارِي الزِّنادِ صُراحِ
يَنْمِي إلى أغْيَاصِ خَيْرِ أرُومَةٍ لَيْسَتْ بِعَشّاتِ الفُرُوعِ ضَواحِ(2)

---

(1) ديوان الشريف الرضي – المجلد الأول ص ١١٧ ، ١١٨ .
(2) ديوان الشريف الرضي – المجلد الأول ص ٢٥١ .

وهكذا يرى الشريف الرضى أن قومه حازوا المكارم ، والفضائل ، ولكن أعظم هذه المكارم ، تلك الفضائل ، فى نظره – هو انتسابهم إلى بيت النبوة ذلك الانتساب الذى استشعر الشريف الرضى بطولته من خلاله ، بطولة الإحساس بالانتماء إلى ذلك النسب الشريف ، الذى ظل الشريف الرضى يتغنى به من خلال أشعاره التى يجسد من خلالها هيم قومه ، وسجاياهم التى تتفق وانتسابهم إلى آل البيت :

أَنَا ابنُ الفرعِ من أعلَى نِـزارٍ ... وَمَنْ يَزِنُ الأَسافِلَ بالأَعالـى
نَمانِى كلُّ متعِـفٍ أبِـيٍّ ... جَـرَى طَلْقَ الجَمُوحِ إلَى المَعالى
مِنَ القَومِ الأُلَى مَلَكُوا رقابَ الْـ ... أَواخِرِ واخْتَلَوْا قِمَمَ الأَوالِـى
إِذَا بسَطُوا الخُطا سَحَبُوا رِقَاقَ الـ ... بُرُودِ عَلَى الرِّقَاقِ مِنَ النِّعَـالِ
وإنْ قُسِمَتْ بيوتُ المَجْدِ حَـازُوا ... فِنَاءَ البَيْتِ ذِى العُمُدِ الطِّوالِ
وإنَّهُمُ لأعنفُ بالمذاكِـى ... مُحاضَرةً وأقرعُ بالعَوالِـى
أفظُّ مِنَ الأُسُودِ فإنْ أنالُـوا ... رَأَيْتَ أَرَقَّ مِنْ بِيضِ الحِجَـالِ
يَخِفُّ عليهِمُ بذلُ الأيـادِى ... وقَدْ أثقَلْنَ أعناقَ الرِّجَـالِ (1)

والأبيات تجسيد لبطولة قوم الشريف الرضى ، وأمجادهم ، وما تحلوا به من شيم وسجايا ، يكمل كل منها الآخر فهم أباة ، شجعان ، أرباب قتال ، أصحاب حروب ، وهم إلى جانب ذلك أفظ من الأسود بأسا ، وشدة ولكن فى الوقت نفسه ذوى رحمة ورقة قلب ، وهكذا تكون

---

(1) المصدر السابق – المجلد الأول ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

البطولة ، ويكون كمال النفس البشرية ، فالبأس ، والشدة مطلوبان في وقت لا يحتاج إلا إليهما ، وكذلك اللين والرحمة مطلوبان في وقت لا يجدي فيه البأس والشدة شيئا .

وهكذا يحرص الشريف الرضي على تجسيد مفاخر قومه ، ومناقبهم تلك المفاخر والمكارم التي حازوها لا بتسابهم إلى بيت النبوة من جهة ولعظم نفوسهم ، وامتلاكهم لرصيد شخصي من المكرمات والفضائل من جهة أخرى ، هذه المكرمات ، وتلك الفضائل الذي يعد الطهر والجود والذود عن العرض من أهمها وأعظمها .

يتغنى الشريف الرضي بهذه الفضائل التي حازها قومه وهو بصدد رثاء أبيه :

الطاهرُ ابنُ الطاهرين ومن يكُنْ ... لأبٍ إلى جِذْمِ النُّبوةِ يَعْظُمِ
مِنْ معشرٍ تخذُوا المكارِمَ طُعْمَةً ... وَرِوُوا مِنَ الشَّرفِ الأعزِّ الأقْدَمِ
مِنْ جَائدٍ أو ذائدٍ أو عاقرٍ ... أو ماطِرٍ أو مُنْعِمٍ أو مُرْغِمِ
وَفَرُوا على المجد المَشيدِ هُمومَهُمْ ... وتَهاوَنوا بالنَّائلِ المُتَهدِّمِ
عِيصُ ألَفَّ تَقابَلَتْ شُعُباتُهُ ... في المَجْدِ شَجَرٌ بقَوْمٍ لِمُقَوَّمِ
يتعاوَرُونَ المَكْرُماتِ وِلادَةً ... مِن بَيْنِ جَدٍّ في المَكارِمِ وابْنِمِ (١)

---

(١) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص ٢٩٤ .

وهكذا لا تستطيع فجيعة موت الأب أن تسكت ذلك الابن الذي عاش يستشعر البطولة بانتسابه إلى أب ينتهي نسبه إلى بيت النبوة فتغنى وهو في خضم أحداث هذه الفجيعة بقومه وشرف نسبهم كما تغنى بأمجاد أبيه الفقيد ومآثره :

إنَّ ابنَ موسى والبقاءُ إلى مدى ... أعطى القيادَ بمارنٍ لم يُخْطَمِ
ومضى رحيضَ الثَّوبِ غيرَ مدنَّسٍ ... وقضى نقيَّ العودِ غيرَ موصَّمِ
وحماهُ أبيضُ عِرضِهِ وثنائِهِ ... ضمَّ اليدينِ إلى بياضِ الدِّرْهَمِ
وغنى عن الدُّنيا وكان شجًى لها ... إنَّ الغنيَّ قذًى لطرفِ المُعْدِمِ
ملأ الزَّمانَ منائحًا وجرائحًا ... خبطًا ببؤسى في الرِّجالِ وأنعُمِ
واستخدمَ الأيامَ في أوطارِهِ ... فبلغنَ أبعدَ غايةِ المُستخْدِمِ

وتسيطر الأحزان على الشريف الرضيّ لحظة حين يتذكر أن أباه الذي مات لم يكن رجلا ككل الرجال بل كان سيفا عضبا، وجبلا أشم، وأنه لم يحزن عليه وحده، ولم يفقده وحده، بل حزنت عليه المكارم والعلى حين أحست بفقده :

اليومَ أُغمدتُ المهنَّدَ في الثَّرى ... ودفنتُ هضْبَ متالعٍ ويلملمِ
وغدتْ عرانينُ العُلى وأكفُّها ... من بين أجدعَ بعدَهُ أو أجذمِ
متبلِّجٌ كرمًا إذا سُئلَ الجَدا ... مَطرَ النَّدى أمًّا ولم يتغيَّمِ

ويصل الشريف الرضيّ بعد تجسيده لأمجاد أبيه، ومفاخره إلى تقرير

حقيقه يراها ماثلة أمام عينيه ، وهي أنه لن يتساوى أب مع أبيه في بطولاته وأمجاده ، ثم يعود مرة أخرى إلى ماكان فيه من أحزان لفقده مثل ذلك الأب الكريم :

هَلْ مِنْ أبٍ كأبى لجُرْحٍ مُلِمَّةٍ ... أعيا وشِعْبِ عظيمةٍ لَمْ يُلأَمِ
إنَّ الخُطُوبَ الطَّارقاتِ فَجَعْنَنَا ... بحمى الأبِيِّ وجُنَّةِ المُسْتَلْئِمِ
بُمُهَّلٍ في الغَابِرِينَ مُؤَخَّرٍ ... ومحفّزٍ في السَّابِقِينَ مُقَدَّمِ
الطَّاهِرِ بنِ الطاهرين ومَنْ يكُنْ ... لأبٍ إلى جِذْمِ النبوة يَعْظُمِ (1)

والأبيات ليست في الرثاء بقدر ما هي في التغني بأمجاد ذلك الأب ومناقبه ، تلك التي ورث الشريف الرضي كثيرا منها كانت له عدة من عدد الإحساس ببطولة الانتماء إلى ذلك الأب الشريف وإلى بيت النبوة الذي أنجبه .

ومثلما اتخذ الشريف الرضي من موت أبيه مجالا للتغني بأمجاد ذلك الأب ومآثره ، فقد اتخذ كذلك من موت جده الحسين بن علي (رضي الله عنه) مجالا يتغنى من خلاله بأمجاد قومه ، وذويه ، التي هي في نفس الوقت نفسه أمجاد له ، إذ أن بطولته التي يستشعرها في داخله تكمن في الإحساس بالانتماء إلى هؤلاء القوم .

لذا كان الشريف الرضي يتخذ من ذكرى " عاشوراء " مجالا يبكي فيه سبط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا من أجل البكاء ، وإنما

(1) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص ٢٩٠ ومابعدها .

ليجسد من خلال ذلك البكاء مآثر قومه - كما قلت - ، تلك المآثر التى تتمثل فى عفتهم ، وصونهم عرضهم ، وبلوغهم المجد ، وسبقهم إلى العلى :

كربلا لازلت كربا وبلا ... مالقى عندك آل المصطفى
كم على تربك لما صرعوا ... من دم سال ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروى دمعها ... خدها عند قتيل بالظما
تمسح الترب على إعجالها ... عن طلى نحر رميل بالدما
وضيوف لفلاة قفرة ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بحدى السيف على ورد الردى
تكسف الشمس شموسا منهم ... لا تدانيها ضياء وعلى
وتنوش الوحش من أجسادهم ... أرجل السبق وأيمان الندى
ووجوها كالمصابيح فمن ... قمر غاب ونجم قد هوى
غيرتهن الليالى وغدا ... جائر الحكم عليهن البلى

ويأخذ الشريف الرضى - بعد هذه الأبيات - فى مناجاة الحسين بن على (رضى الله عنه) متغنيا بنسبه الشريف :

ياقتيلا قوض الدهر به ... عمد الدين وأعلام الهدى
قتلوه بعد علم منهم ... أنه خامس أصحاب الكسا
وصريعا عالج الموت بلا ... شد لحيين ولا مد ردا
غسلوه بدم الطعن وما ... كفنوه غير بوغاء الثرى

مُرهقًا يدعو ولا غوثَ لَهُ ... بأبٍ بَرٍّ وجدٍّ مُصطفَى
وبأمٍّ رفعَ اللهُ لها ... علماً ما بينَ نسوانِ الورَى
أيّ جدٍّ وأبٍ يدعوهما ... جدُّ يا جدّ أغثني يا أبا
يا رسولَ اللهِ يا فاطمةُ ... يا أميرَ المؤمنينَ المرتضَى (1)

وهذه الأبيات الأخيرة بما فيها من أنات ألم ، وزفرات أسى وحزن ، لم تكن بكاء كذلك بقدر ما كانت مثيرا يثير به الشريف الرضى حمية الشيعة ويلهب قلوبهم بالثورة على من اغتصبوا "عليا" (كرم الله وجهه) وأبناءه حقهم .

يقول د . شوقى ضيف عن هذه القصيدة : "إن الشريف قد عنى بوصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة ، ولتكون صالحة ، لكى يرددها النائحة "(1) . ويحرص الشريف الرضى على أن يتخذ من ذكرى "عاشوراء" كل عام مجالا يتغنى فيه بأمجاد قومه ، ويثير حمية الشيعة بهذا التغنى الذى يجسد فيه شيم آل البيت ، وسجاياهم وما ملكوا من مجد ، وحازوا من سؤدد ، وشرف :

يا يومَ عاشوراءَ كم لكَ لوعةٍ ... تترقّصُ الأحشاءُ مِنْ إيقادِها
ما عُدتَ إلاّ عادَ قلبى غُلّةٌ ... حرّى ولو بالغتُ فى إبرادِها
مِثلَ السّليمِ مَضيضةٌ آناؤُهُ ... خُزْرُ العيونِ تعودُهُ بعِدادِها

(1) عصر الدول والإمارات ص ٣٧٤ .

يا جَدّ لا زالت كتائب حسرةٍ ... تغشى الضمير بكرّها وطرادها
أبدًا عليك وأدمعٌ مسفوحةٌ ... إنْ لم يراوحها البكاءُ يغادِها
هذا الثناءُ وما بلغتُ وإنما ... هي حَلْبةٌ خلعوا عذار جوادِها
أأقول جادكمُ الربيعُ وأنتمُ ... في كلّ منزلةٍ ربيعُ بلادِها
أمْ أستزيدُ لكمْ علاً بمدائحي ... أين الجبالُ من الربى ووِهادِها ؟
كيف الثناءُ على النجومِ إذا سمتْ ... فوق العيون إلى مدى أبعادِها
أغنى طلوعُ الشمسِ عن أوصافها ... بجلالها وضيائها وبعادِها[1]

وهكذا لا تأتى هذه الأبيات فى البكاء – كما قلت – بقدر ما تأتى فى التغنى بجود آل البيت وكرمهم ، وعلاهم ، وسمو منزلتهم ، وشرف نسبهم وهذه كلها من عُدد البطولة عند هؤلاء القوم الذين يحس الشريف الرضى ببطولة الانتماء إليهم .

ويتكرر كل " عاشوراء " تغنى الشريف الرضى بجده الحسين بن على (رضى الله عنه) إمعانا فى تجسيد إحساسه ببطولة الانتماء إلى هذا الجد الذى عاش حياته مناضلا لرفع رايه الدين مورداً نفسه موارد الموت مستطيلا على الأزمان ، حتى لقى ربه شهيدا فى ساحة القتال :

للهِ مُلقىً على الرمضاءِ عَضَّ به ... فمُ الردى بين إقدامٍ وتشميرِ
تحنو عليه الربى ظلاًّ وتسترُهُ ... عن النواظر أذيالُ الأعاصيرِ

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٣٦٤ .

تهابه الوحش أن تدنو لمصرعه … وقد أقام ثلاثا غير مقبور
و مورد غمرات الضرب غرته … جرت إليه المنايا بالمصادير
ومستطيل على الأزمان يقدرها … جنى الزمان عليه بالمقادير
أغرى به "ابن زياد" لؤم عنصره … وسعيه "ليزيد" غير مشكور
وود أن يتلافى ما جنت يده … وكان ذلك كسرا غير مجبور
تسبى بنات رسول الله بينهم … والدين غض المبادي غير مستور

ثم يأخذ الشريف الرضى بعد هذه الأبيات التى يبكى فيها جده "الحسين"، ويثير من خلالها حمية الشيعة و يتغنى بمواقف "الحسين" (رضى الله عنه) النضالية، وشجاعته القتالية — يأخذ — فى تجسيد أمجاد جده الشهيد ، و تهديد "بنى أمية" بيوم يقتص فيه منهم لذلك الفقيد :

إن يظفر الموت منا بابن منجبة … فطالما عاد ريان الأظافير
يلقى القنا بجبين شان صفحته … وقع القنا بين تضميخ و تعفير
من بعد ما رد أطراف الرماح به … قلب فسيح ورأي غير محصور
والنقع يسحب من أذياله وله … على الغزالة جيب غير مزرور
فى فيلق شرق بالبيض تحسبه … برقا تدلى على الآكام والقور
بني أمية ما الأسياف نائمة … عن شاهر فى أقاصى الأرض موتور
والبارقات تلوى فى مغامدها … والسابقات تمطى فى المضامير
إنى لأرقب يوما لاخفاء له … عريان يقلق منه كل مغرور
وللصوارم ما شاءت مضاربها … من الرقاب شراب غير منزور (١)

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

وهكذا تجسد الأبيات بطولة الحسين بن على (رضى الله عنه) وأمجاده ، ومناقبه ، هذه البطولة ، وتلك الأمجاد التى يحس الشريف الرضى أنها بطولة له فالفقيد جده ، لذلك - وكما قلت آنفا لم يكن رثاء الشريف الرضى لأبيه ولقومه خاصة الحسن بن على (رضى الله عنه) إلا تغنيا بالأمجاد ، وتعدادا للمفاخر ، والمناقب التى حازها آل البيت الذين يحس الشريف الرضى ببطولة الانتماء إليهم ، تلك البطولة ، وذلك الإحساس اللذان يدفعانه دفعا إلى التغنى بأمجاد قومه ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، ذلك التغنى الذى يبغى الشريف الرضى من ورائه تجسيد بطولته الذاتية التى يستشعرها فى داخله والتى يكفلها له إحساسه بالانتماء إلى قوم شجعان ، أباة ، أعزة طاهرين ، ينتهى بهم نسبهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإلى "علىّ" بن أبى طالب (كرم الله وجهه) .

والشريف الرضى حر كريم ، يسيئه أن يتنكر الدهر له ، ويسيئه أيضا أن يسلم مقاده لهذا الدهر ، ويَجِدُ لذَّته فى مقاومة الزمن ، والحياة كما وجدها فى مقاومة أعدائه وقتالهم .

لذا نجد الشريف الرضى كلفا بالتغنى بتنكر الدهر له ، وبتغير أحوال الناس ، وأخلاقهم ، وكلفا - تبعا لذلك - بالتغنى بما وُهب من قوة ، وشجاعة ، وصبر ، وجلاد ، فى مقاومة الزمن ،

والحياة ، فهذه القوة وتلك الشجاعة ، وهذا الصبر ، وذلك الجلاد من عُدّته التى خلقت عنده الاستعداد النفسى للإحساس ببطولته الذاتية بطولة الانتماء إلى أصحاب نسب شريف تجسدت شجاعتهم ، وتجلّى بأسهم فى معاداة الزمن لهم ، ومقاومتهم إياه ، وصبرهم على مكائده ، والشاعر امتداد لهم فى هذه الحياة ، فهو غرض للدهر كما كان أهله ، وكذلك كل شريف فى كل زمان ومكان .

تغنى الشريف الرضى – كما قلت – بما أصاب الناس فى زمنه من نفاق ، وخداع ، ورياء وتغنى – تبعا لذلك – بصبره ، وحزمه وعزمه فى مواجهة أولئك الذين تبدّلت أخلاقهم :

إذا قلَّ مالى قلَّ صحبى وإنْ نَمَا ... فَلِى من جميعِ النَّاسِ أهلٌ ومَرْحَبُ
غِنَى المرءِ عِزٌّ والفقيرُ كأنَّه ... لدَى النَّاسِ مهنوءُ الملاطَيْنِ أجْرَبُ
تُطالِبُنِى نفسٍ بكلِّ عظيمةٍ ... أرَى دونَها جارِى دَمٍ يتَصَبَّبُ
ويأمرُنِى الذُّلاّنِ أنْ لا أطيعَهَا ... وأعلمُ من طُرقِ العُلَى أينَ أذْهَبُ
إذا كانَ حُبُّ المرءِ للشيءِ ضَيْعَةً ... فأضيعُ شيْءٍ ما يقولُ المؤنِّبُ
أنا السّيفُ إلاّ أنَّنِى فى مَعَاشِرٍ ... أرَى كلَّ سيفٍ فيهمُ لا يُجَرَّبُ
ولاعلمَ لى بالغيبِ إلاّ طليعَةً ... من الحَزْمِ لا يَخْفَى عليْهَا المُغَيَّبُ
أُجَرِّبُ مَنْ أهواهُ قبلَ فِراقِهِ ... فيصْدُقُ منه الغَدْرُ والودُّ يَكْذِبُ
تغيَّرَ لى أخلاقُ مَنْ كنتَ أصْطفى ... وتغْدُرُنى أيامُ مَنْ كُنتُ أصْحَبُ

فالشريف الرضىّ يرى أن الغِنَىَّ له من جميع الناس أهل جذبهم إليه

ماله . ولكن الفقير يبتعد عنه الناس كل الناس وهذا من نفاق الناس وخداعهم إلاّ إنه سيف قاطع ، وذو نفس عظيمة تتوق دوما إلى المعالى ولن يستطيع خداع الناس أن يبعد عنه الحق ، أو أن يبعده عن الحق فإنّ له من حزمه ما يستطيع أن يستكشف به ستر الغيب ، وهكذا يتخذ الشريف الرضى من مصائب الزمن له مجالا يجسد من خلاله ما وهب من عُدد الاستعداد النفسى ، والإحساس بالبطولة الذاتية عنده بطولة الانتماء إلى النسب الشريف ، والمحتد الكريم ، مثلما اتخذ من قبل — من مصيبة موت أُحبائه مجالا جسد فيه ذلك . ويكمل الشريف الرضى تغنيه بقوته فى مواجهة الزمن بأبيات حكيمة يستق فيها حكمته من تجاربه الخاصة ، ومعرفته بالناس ، والزمن كما يستقيها من إحساسه ببطولته :

وَلَيْسَ نسيبى أنّ فى القلْبِ لوعَةً ... ولكنّنِى أبكِى زمانِى وأَنْدُبُ
ومانافِعِى عندَ البعيدِ تقرّبى ... ولاضائِرِى عند القريبِ التَجَنُّبُ
قريبُ الفَتَى دونَ الأنامِ صديقُهُ ... وليسَ قريبًا منه مَنْ لا يُقَرِّبُ
ومَا فى نجادِ السيفِ زينٌ لحَامِلٍ ... ولا الزّيْنُ إلاّ للفَتَى يومَ يَضْرِبُ
أخُو الحربِ مَنْ للسّيْفِ فيهِ عَلامَةٌ ... وللطّعْنِ فى جنْبَيْهِ طُرْقٌ ومَلْعَبُ
وحسبُ غلامٍ شاهدًا بشَجاعَةٍ ... تَغيظُ العِدَى أنّ القَنَا منْه تَخْضِبُ
إلَى غايةٍ تجرى الأنامُ لنحوِهَا ... فماشٍ بطيءٌ مشيُه ومقرِّبُ
يغُرُّ الفَتَى ماطَالَ منْ حبْلِ عمْرِه ... وتُرْخِى المنَايَا بُرْهَةً ثمّ تجْذِبُ[1]

---

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٨٠ ، ٨١ .

فالأبيات تجسيد لشجاعة الشريف الرضى ، وعزة نفسه ، وإبائه وتعففه وكلها من عدد استعداده النفس للإحساس ببطولته – كما قلت من قبل – وتتردد هذه المعانى ذاتها كثيرا فى شعر الشريف الرضىّ مما يدل على مقاساته من زمنه ، وصموده أمام مصائبه ، ونكباته :

إنْ كانَ فقرٌ فالقريبُ مباعِدٌ ... أو كانَ مالٌ فالبعيدُ مُقارِبُ
وأرى الغَنيَّ مطاعنا بثرائِهِ ... أعداءه والمالُ قرنٌ غالِبُ
يشكو تبذُّلِيَ الصحابُ وعاذرٌ ... أنْ ينبذَ الماءَ المرنَّقَ شارِبُ
من أجلِ هذا الناسِ أبعدتُ الهوى ... ورضيتُ أنْ أبقى ومالِيَ صاحِبُ
وأرى اللَّيالِيَ إنْ غدَرْنَ فإنَّه ... ماسَنَّ أصحابٌ لنا وحبائِبُ
الذنبُ لِي أنِّي جزعتُ وعَنَّونَتْ ... عنِّي دموعُ العينِ وهْيَ سَواكِبُ
دُنيا تضرُّ ولا تسرُّ وذا الورى ... كلٌّ يجاذبُها وكلٌّ عاتِبُ
تَلقى لنا طرفًا فإنْ هيَ أعرضَتْ ... نَزَعَتْ ولوْ أنَّ الجبالَ جَواذِبُ
هيهاتَ يا دُنيا وبرقُكِ صادِقٌ ... أرجُوه فكيفَ إذا وبرقُكِ كاذِبُ
والناسُ إمّا قانعٌ أو طالِبٌ ... لا ينتهى ، أو راغبٌ أو راهِبُ
وإذا نعِمتُ فكلُّ شيءٍ ممكنٌ ... وإذا شَقِيتُ فكلُّ شيءٍ عازِبُ

وهكذا يتحسر الشريف الرضىّ على ما آل إليه حال الناس فى زمنه وإنْ دل هذا التحسر منه على شيء فإنَّما يدل على عزة نفسه ، وإبائه وحبه للمجد ، وشغفه به ، وحرصه عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا وهو يعلم أن الدنيا لن تستطيع أن تجذبه إليها ، أو أن تغره وتخدعه فله من عراقة أصله ، ونبل محتده ما يجعله فى حمى منها ، لذا فهو

يناجيها مناجاة القادر عليها ، الواثق من نفسه ، والآوى إلى ركن شديد من أصالة عرق ، وشريف نسب ، وصدق إيمان ويقين :

هيهات يا دنيا وبرقك صادق أرجوه فكيف إذا وبرقك كاذب

وهو بيت يجسد الشريف الرضى من خلاله عزة نفسه ، وزهوه وقناعته ، وترفعه ، وإباءه ، إلى جانب إحساسه ببطولة الانتماء إلى نسب شريف ، ومحتد أصيل .

ويخلص الشريف الرضيّ من تحسره على ما آل إليه حال الناس في زمنه ، ذلك التحسر الذى جسده فى الأبيات السابقة – يخلص منه – إلى التغنى بنفسه من جديد حين يواجه أحد الباغين عليه بحلمه الذى عرف عنه وكان عُدّة من عُدد إحساسه ببطولته الذاتية ، كما يتغنى بعزة نفسه ، وإبائه اللذين يفرضان عليه أن ينأى بنفسه عن كل مكان يحس أن الضيم ربما يلحق به فيه :

قدْ قلتُ للباغى علىّ ودنه من فضل أحلامى ذُوَى وذوائبُ
احذرْ مبالغة الرجال فإنها تُدمى وتقدرُ أنْ يقولَ العائبُ
البعدَ يا أيدى المطىّ فإننى للضيم إنْ أسرى إلىّ مُجانبُ
ومجاهلُ الفلوات أطيبُ منزلٍ عندى وأوفى الواعدين نجائبُ (1)

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٨٥ ، ٨٦ .

ويظل الشريف الرضيّ يردد هذه المعاني ذاتها ، مركّزاً على تغنيه بنفسه ، التي تختلف عما حولها من أنفس لأناس عاشوا للمطامع وأذلهم الرجاء في الوقت الذي سمت فيه نفس الشريف الرضيّ عن كل ما يشينها ، أو ما يذلها يدفعها إلى ذلك السمو أصالة عرقها ، وشرف نسبها :

فَمالِيَ والمُقامُ على رِجالٍ … دَعَتْ بهمُ المطامعُ فاستجابُوا
ولمْ أرَ كالرجاءِ اليومَ شيئاً … تَذِلُّ به الجماجمُ والرِّقابُ
وكانَ الغَبْقُ لو ذلّوا ونالوا … فكيفَ إذا وقدْ ذلّوا وخابُوا
يُريدونَ الغِنى والفقرُ خيرٌ … إذا ما الذُّلُّ أعقبهُ الطِّلابُ
وبعضُ العُدْمِ مأثُرةٌ وفخرٌ … وبعضُ المالِ مَنقصةٌ وعابُ

ثم يتبع الشريف الرضيّ هذه الأبيات التي يتحسر فيها على حال الناس ، وتبدل أخلاقهم في زمنه بأبيات يتغنى به في القصيدة السابقة من إباء ، وعزة نفس ، ونأيٍ عن أي مكان يساء إليه فيه :

بَنانِي والعِنانُ إذا نَبَتْ بِي … رُبَى أرضٍ ورَحْلِي والرِّكابُ
وسابغةٌ كأنَّ السَّرْدَ فيها … زُلالُ الماءِ لمَّعَهُ الحَبابُ
من اللّائي يُماطُ العيبُ عنها … إذا نُثِلَتْ لدى الرَّوْعِ العِيابُ
إذا ادَّرَعَتْ تجنّبتِ المواضي … مَعاجِمَها وقهقهتِ الكِعابُ
ومُشرِقةُ القَذالِ تَمرُّ رَهْواً … كما عَسَلَتْ على القاعِ الذِّئابُ
مجلّيةٌ تَشُقُّ بها يَداها … كما جَلّى لغايتهِ العُقابُ

ويدفعه ذلك التغنى بنفسه إلى التعرض لحاسديه ، أولئك الذين ألصقوا به عيوبهم حين لم يجدوا لنفسه الأبية عيبا :

وإنّ مقام مثلي في الأعادي　　مقام البدر تنبحه الكلاب
رموني بالعيوب ملفقات　　وقد علموا بأنّي لا أعاب
وأني لا تدنسني المخازي　　وأني لا يروّعني السباب
ولمّا لم يلاقوا فيّ عيبا　　كسوني من عيوبهم وعابوا (1)

ويتتبع الشريف الرضى أعداءه كاشفا عوارهم ، متغنيا بما أحنقهم عليه ، من فضائل ، وأمجاد ، ويأخذ الشريف الرضى قبل تعرضه لهؤلاء الأعداء الحاقدين ، في التغنى بنفسه التي جربت الحياة وعرفتها واشتد فيها عودها ، وحلت عند الخلفاء محلا كريما ، ونزلت منهم منزل المحبب إليهم وذلك لما ملكت من مجد ، وعز وسؤدد :

فالآن إذ نبذ المشيب شبيبتي　　نبذ القذى وأقام من تأويدي
وفررت من سن القروح تجاربا　　وعسا على قمص السنين عمودي
ولبست في الصغر العلى مستبدلا　　أطواقها بتمائم المولود
وصفقت في أيدي الخلائف راهنا　　لهم يدي بوثائق وعقود
وحللت عندهم محل المجتبى　　ونزلت منهم منزل المودود

---

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ١٢٥، ١٢٦.

ثم يتبع الشريف ذلك التغنى بنفسه بالتعرض لأعدائه وحاسديه والمتحاملين عليه ، رادًا عليهم بفضائله ، وأمجاده :

فَغَرَ العَدُوُّ يريدُ ذَمَّ فضائِلِي　　　هيهاتَ أُلجِمَ فوك بالجلمود
همسًا فكمْ أُسكتَّ قبلكَ كاشِحًا　　　بمناقِبي وعلىَّ فضلُ مزيدِ
مالِي أُريغُ النَّصفَ من مُتَحامِلٍ　　　أوْ أطلبَ الإِجْمالِ عِنْدَ حَسُود ؟
أمْ كيفَ يرأمُني وليْسَ بمُنْجِبِي　　　أتُرى الرَّؤمُ تكونُ غيرَ وَلُود
ولأَنْهَضَنَّ إلى المعالي نَهْضَةً　　　ملءَ الزمانِ تَفِي بِطُولِ قُعُودِي
اجمَحْ أمامكَ إنْ هممتَ بفعْلَةٍ　　　وتغابَ عنْ عذْلٍ وعنْ تفْنِيدِ
وإذا التفتَّ إلى العواقِبِ بدَّلَتْ　　　قلبَ الجرِئِ بمُهْجَةِ الرِّعْدِيدِ

وهكذا تتخلل هذه الأبيات حكمة الشريف الرضى ، تلك الحكمة التى يستقيها الشاعر دائما من خبرته بالحياة ، وتجربته فيها ، ومعرفته لها ، وهى حكم يسوقها الشريف متغنيا من خلالها بهمته ، وفضله وصبره ، وجلاده ، فى سبيل الحفاظ على مجد ورثه ، وعمل ما استطاع على الحفاظ عليه ، متحملا فى سبيل ذلك مالم يستطع تحمله إلا كل من وهب نفسا كبيرة ، وهمة عالية ، وقدرة عظيمة على التحمل والتصبر .

ويؤكد الشريف الرضىُّ – كثيرا – على تحسره مما أصاب الناس

(١) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

فى زمنه من تبدل فى أخلاقهم وبما أصابه به زمنه من خطوب ونكبات ذلك التحسر الذى يظهر – كما قلت – إباء الشريف الرضى ، وعزة نفسه ، والذى يتبعه الشريف الرضى بتغن بهذا الإباء ، وتلك المهمة التى يتردد تغنيه بها كثيرا فى أشعاره يوصفها عُدة من عُدد البطولة فى النفس البشرية أيا كان مَنْحَى هذه البطولة ، ومهما اختلف طرقها ومسالكها :

ما للزمانِ يذودُنى عنْ مَطْلَبِى ... ويَرِيغُنى عن طارِفى وتِلادِى
يحنو علىَّ إذا أقمتُ كأنَّنى الْـ ... أسرارُ فى أحشاءِ كلِّ بلادِ
عاداتُ هذا الناسِ ذمُّ مفضَّلٍ ... وملامُ مقدامٍ وعَذْلُ جَوادِ
ولقدْ عجبتُ ولاعجيبُ أنَّه ... كلُّ الورى للفاضلين أعادِى
وأرَى زمانِى يستلينُ عَرِيكَتِى ... وأرى عدُوِّى يستحرُّ عنادِى
أتظنُّنى ألْقى إليكَ يدًا ومَا ... بَيْنى وبينَكَ غيرُ ضَرْبِ الهادِى
أسْعَى لكلِّ عظيمةٍ فأنا لها ... عَزْمًا يفوتُ هَواجِسَ الحُسَّادِ
عزمًا قويًا لا يشاوِرُ رَقْبَةً ... للخَطْبِ فى الإصْدارِ والإيرادِ
مازالَ يشهَدُ لِى إذا اسْتَنْطَقْتُهُ ... بالجُودِ فى لَيْلِى لسانُ زِنادِى[1]

وهكذا يتخذ الشريف الرضىُّ من الحديث عن الزمن مجالا يتغنى من خلاله بفضله وشدة عريكته ، وطلبه لكل عظيم ، وحزمه ، وعزمه وكرمه ، وكلها عُدة الإحساس ببطولته الذاتية – بطولة الانتماء إلى

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الأول ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

النسب الشريف ، والأصل الكريم الذى يأبى على صاحبه إلا أن يكون صبورا ، جسورا فى مواجهة المصائب ، والنوازال ، وتقلبات الزمن ، ونكباته و يتولى الشريف الرضى نقابة الأشراف ، و يضيق صدره بها ، وبأمرها و ما تتكلفه من التشدد و إقامة الهيبة فيها ، و يلاقى الشريف الرضى من قومه و هو نقيب للأشراف ما يسوءه ، فيذكر ذلك متحسرا على ماكان منهم ، متخذا من ذلك الموقف مجالا يتغنى من خلاله بنفسه صبورا جلدا عزيزا ، عفا ، طاهرا ، حليما ، عفوا :

غَمَسْتُ يَدَىَّ فِى أمرٍ فمن لِى ... وأينَ يَنْزِعُ كفِّى وانْكِفَافِى
كَأَنِّى أَتَّقِى حربٌ لقومِى ... وذلكَ لِى من الضَّرَّاءِ كَافِى
حطمتُ صِعَادَهُم حتَّى استقاموا ... مُجَاوِزَةً بهِمْ حدَّ الثِّقَافِ
فصرتُ لذمِّهِم غرضًا رَجيمًا ... يُرامونى بِمثلِ حَصَى القِذافِ
وأُكْذَبُ بالتَّصَوُّنِ مدعيهم ... وأُلجِمُ قائليهم بالعفافِ
ولو أنِّى أُطِعتُ الرُّشْدَ يومًا ... لأبدلتُ التَّحامُلَ بالتَّجافِى
وأغضيتُ اللَّواحِظَ عن ذنوبٍ ... وموضِعُهَا لِعَيْنِى غيرُ خافِ

ثم يكمل الشريف الرضىّ تغنيه بنفسه مقارنا بين أفعاله ، وأفعال قومه ، ليجسد فضائله و شيمه وسجاياه ، التى تشهد له بالبطولة التى يستشعرها فى نفسه بإحساسه بالانتماء إلى بيت شريف يحتِّم على أبنائه أن يكونوا مثالا للحلم ، والعفو :

أُداوِى داءَهم فيزيدُ خُبْثًا ... وليسَ لِداءِ ذِى البَغْضاءِ شافِ

حَنوْتُ عليهمُ ولـــرُبَّ حـانٍ على جانٍ وإنْ بعُدَ التلاقـى
فما قلبى وإنْ جهلوا بقـاسٍ ولا حِلْمى وإنْ قطعوا بهـافِ
فما تُغْنِى القوادمُ من جناحٍ تحامل إنْ قعدْنَ به الخوافى (١)

ويظل الشريف الرضى متخذا من ذلك الموقف الذى وقفه قومه معه حين تولى نقابة الأشراف مجالا — يجسد من خلاله فضائله ، وشمائله ويتغنّى فيه بحلمه ، وبأسه ، وبما نال من مجد وحقق من فخار :

بَنى عمّى وعزّ على يمينى من الضّراء ما لقيتْ شمالى
أعودُ على عقوقكمُ بحلمى إذا خطر العقوقُ لكمْ ببـال
أرونى من يقومُ لكمْ مقامى أرونى من يقولُ لكمْ مقالى
ومن يحمى الحريمَ من الأعادى ومن يَشْفى من الداء العضال
يُشايحُ دونكم يوم المنايا ويرمى عنكمُ يوم النضال
سأبلغُ بالقلى والبعد عنكمْ مبالغ ليس تبلغ بالأوال
فمنْ لا يستقيم على التصافى جديرٌ أنْ يقوّم بالتقالى
وأحسبُ أن سينفعنى انتصارى إذا ما عاد بالضّرر احتمالى
أكيداً بعدَ أنْ رفعتْ منارى وأرستْ فى مقاعدها جبالى ؟
وشدّ المجدُ أطنابى إليه ومدّ على جوانبه حبالى
وتمّ علاؤكمْ من بعد نقصٍ تمامَ الحضرميّة بالقبال
وما فضلى على قومى بخافٍ كما فضلَ القريعُ على الإفال

---

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص ١٥ ، ١٦ .

وإني إن لحقت أبي جلالاً فهذى النار من ذاك الذبال
وأين القطر إلا للغوادى وأين النور إلا للهلال (١)

وهكذا يطول تغنى الشريف الرضى بنفسه ، وبأبيه مجسدا فضائلهما وشمائلهما ، متخذا من تبدل أخلاق الناس مجالا لهذا التغنى الذى يظهر فيه إحساس الشريف الرضى ببطولته الذاتية ، بطولة الانتماء إلى بيت كريم ، ونسب شريف يقتضى ممن ينتسب إليه أن يكون كذلك ، وأن تتوفر فيه عدة الإحساس بتلك البطولة ، ومقوماتها من شجاعة ، وإقدام ، وحماية حمى ، وصون عرض ، وامتلاك مجد وبلوغ علاء ، وحيازة فضل ، وفخار ، وجلال ، تظل هذه المعانى تتردد فى شعر الشريف الرضى وهو يتخذ مواقف حساده معه مجالا للتغنى بها ، وتجسيدها :

يَقُرُّ بعينى أنْ أروحَ مُحَسَّدَا فما حسدُ الحسادِ غيرُ نبيل
وما صافحتْ يوما يدى يدَ غادرٍ ولا ضاقَ خُلقى عنْ مقامِ نزيلَ
وأولُ لؤمِ المرءِ لؤمُ أصولِه وأولُ غدرِ المرءِ غدرُ خليلِ
عذولىَ مَنْ أوطاقرا العجزِ مَركبًا ولكنّ ظهرَ العزمِ غيرُ ذلولَ
نسيمٌ منَ الدنيا يطيبُ لنا شِق وأىُّ أوامٍ بعده وغليل
تفىءُ الليالى فيئةَ الظلِّ للفتى بنُعمى وما إنعامُها بجزيلِ
تداعتْ لىَ الأيامُ حتى رمينَنى بما كنتُ أخشى منْ لقاءِ بخيلِ

---

(١) ديوان الشريف الرضى – المجلد الثانى ص١٧٦ ، ١٧٧ .

وَلَابُدَّ لِى أَنْ أَغسلَ العارَ بعدَهُ ... ويا رُبَّ عارٍ دام غيرَ غسيلِ
يظنُّ الفتى أنَّ التطاوُلَ دائمٌ ... وكلُّ صعودٍ مُعْقَبٌ بنزولِ
أأرجو ذُبابَ السيفِ ثمَّ أخافُه ... وأرضى بسُخْطِ المَجْدِ قولَ عذولِ(1)

و هكذا تزخر الأبيات بمشاعر العزة ، والإباء ، تلك المشاعر التى جسدها الشريف الرضى من خلال حديثه عن حساده ، و الحاقدين عليه مدفوعا فى ذلك بإحساسه ببطولة الانتماء إلى أصل كريم ، ونسب شريف ، لا يدانيه أصل حساده العاجزين ، أولئك الذين ينتمون إلى أصل لئيم و نسب غير شريف . ويتعرض الشريف الرضى لذكر حساده ، وأعدائه كثيرا — حاطا من قدرهم ، فاضحا عوارهم ، مقابلا بين حطه من قدرهم والتغنى بنفسه التى لا يمل التغنى بها و هذا شيء طبعى من رجل يستشعر البطولة فى نفسه :

أَنا مَنْ علمتَ وليسَ يطغى سطوتى ... غُلواءُ من يَطْغَى إِلَىَّ ويجهلُ
يُغْضِى العدوُّ إذا طلعتُ وقلبُه ... يَغْلِى عليه من الضغائن مِرْجَلُ
ويزيغُنى عمّا أُجِنُّ مخاتلًا ... والأورقُ العادِى لا يتزلزلُ
أُجْلُو عليه ناجذى ولو اجتلى ... ما بَيْنَ أضلاعى لباتَ يُقَلْقَلُ
فعلامَ أُزْجَرُ بالوعيدِ وأجترى ... وإلامَ أُطْلَبُ بالذُّحولِ وأُمْطَلُ
مالِى قنعتُ كأنْ ليس مُهَنَّدى ... بيدى ولا جدِّى النبىُّ المرسلُ(2)

---

(1) المصدر السابق — المجلد الثانى ص 152 .
(2) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص 155 ، 156 .

وهكذا يفصح الشريف الرضى عن سر بطولته التى يستشعرها فى نفسه بطولة الانتماء إلى بيت النبوة ، ونسب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

ويبلغ الشريف الرضى أن كلاما ما ينكره جرى فى دار أحد أصدقائه فكتب إليه يشكو الواشين ، أولئك الذين نالوا منه فى غيبته ، ويتخذ من ذلك الموقف مجالا يتغنى من خلاله بنفسه ، وعرضه ، وشرفه وكرم أصله ، الذى هو سر بطولته التى يستشعرها فى داخله — كما قلت — :

مَا رَقَّعَ الواشون فِيَّ وَلَفَّقُوا ... قُلْ لِي نَمَّا حاسِدٌ أَوْ مُنْفِقُ
فى كلِّ يومٍ ظَهْرُ دارِى مَغْرَبٌ ... لِكِلَابِهِمْ وَجَبِينُ دارِكَ مَشْرِقُ
وإلى مَتَى عُودِى على أيْدِيهِمُ ... مُلْقًى يُنَيَّبُ دائبًا وَيُحَرَّقُ
كَمْ يَسْبِكُ الذَّهَبُ الصفِىُّ سَرَّةً ... قَدْ لاحَ جَوْهَرُهُ وبانَ الرَّوْنَقُ
يَحْلُو لهم عِرْضِى فَيَسْتَرِطُونَهُ ... وَيَصِلُّ عِرْضُهُمُ الذَّلِيلُ فَيُبْصَقُ
نَفَضُوا عيونَهُمُ علىَّ وإنَّمَا ... وَجَدُوا مَصَحًّا فى الأديمِ فَمَزَّقُوا(1)

والأبيات — وإن كانت فى الواشين من حساد الشريف الرضى — إلا أنها تجسيد لمشاعر العزة وأحاسيس السيادة والشرف ، والبطولة ، بطولة الانتماء إلى النسب الشريف الذى يجسده الشريف الرضى فى قوله :

(1) المصدر السابق — المجلد الثانى ص٨٢ ، ٨٣ .

كَمْ يُسْبك الذهب المُصفى مَـرّة قدْ لاحَ جوهره وبان الرونــق

وقولـــه :

نَفَضوا عيوبَهم علــىّ وإنمــا وجَدُوا مَحَاً فى الأديم فمزقوا

وهكذا كان يتخذ الشريف الرضى من شكاية دهره وشكاية الناس فى زمنه مجالا يتغنى من خلاله بشيمه ، وسجاياه ، وما حقق من أمجـاد وحاز من فضائل ، ومكارم تدفعه كلها إلى الإحساس ببطولته الذاتيـة ، بطولة الانتماء إلى النسب الشريف المتمثل فى انتسابه لآل رسول اللـــه (صلى الله عليه وسلم) .

ويواصل الشريف الرضى الاستغناء فى النقابة حتى أعفى منها ، ورد ت إلى من خطبها ويتخذ الشريف من هذه المناسبة مجالا يشكو فيه دهــره لا بغرض الشكوى فحسب بل لينفذ من خلالها إلى ما يقصد من تغـــن بنفسه ، وتجسيد لمكارمــه :

تَطاطَ لَها ، فيوشك أنْ تجلَّى وولِّ جُنُونَ دهرك ما تولَّـــى
ولا تكل الزَّمانَ إلى عتـــابٍ فما يدرى الزَّمانُ أسَـــاءَ أمْ لا
خُيُوطُ باليدينِ يُشتُّ شمْـــلاً جَميعًا بالنَّوى ويلمُّ شمْـــلاَ
يُحرِّى الغاربَ الأعْلى ويُحْـذِى عَظيمَ العِزِّ والخَطَرَ الأظَـــلاَّ
فقدتُكَ من زمانٍ كُلَّ فقْــــدٍ وفعْلُكَ ما أخسَّ ومَـــا أذَلاَّ
أمثلى يُسْتَضامُ وما ترى لــــى إذا عَرَضَ العيانُ بنيكَ مِثْـــلاَ؟

فحسبك قد حملت على مطيق ... شآك تجلدا و شجاك حملا (١)

والأبيات برغم ما تحمل من تحسر وتألم ، من فعل الزمن إلا أنها تحمل أيضا من الاعتزاز بالنفس و التيه بها أكثر مما تحمل من هذا التحسر و ذلك التألم .

و ليلة القبض على الخليفة الطائع كان الشريف الرضى يجالسه فى داره ، لكنه استطاع النجاة فى الوقت الذى سلبت فيه ثياب أكثر القضاة والأشراف ، وغيرهم ، وامتهنوا ، و يذكر الشريف ذلك فى شعر يذم فيه الزمان و يتغنى — على عادته — بحزمه ، وعزمه :

مَنْ لِي بِبُلْغَةِ عيشٍ غيرِ فاضلةٍ ... تكفني عَنْ قذى الدُّنيا وتكفيني
أخي مَنْ باعَ دُنياهُ وزخرفَها ... بِصَوْنِه كانَ عندي غيرَ مغبونِ
قالوا : أتقنعُ بالدُّونِ الخسيس وما ... قنعتُ بالدُّونِ بل قنَّعْتُ بالدُّونِ
إذا ظنَنَّا وقدَّرنا جرى قدرٌ ... بِنازلٍ غيرِ موهومٍ ومظنونِ
اعجبْ لِمُسْكَةِ نفسي بعدَ ما رُمِيَتْ ... مِنَ النَّوائبِ بالأبكارِ والعُونِ
ومَنْ نجائي يومَ الدّارِ حينَ هوى ... غيري ولمْ أخْلُ من حزمٍ يُنَجِّيني
مرقْتُ مِنْها مروقَ النَّجمِ مُنكدِرًا ... وقد تلاقَتْ مصاريعُ الرَّدى دُوني
وكنتُ أولَ طلّاعٍ ثنيَّتَها ... ومِنْ ورائي شرٌّ غيرُ مأمونِ

---

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص٢٤٢ .

والأبيات يبدو فيها تحسر الشريف الرضى على تقلب الزمن وتنكره للانسان ، وفيها — إلى جانب ذلك — تغنٍ بحزمه ، وصواب رأيه ، فبطولة الشريف الرضى تأبى عليه أن يخضع للأحزان وأن يستنيم للأسى ، ويظهر ذلك جليا فى ختام هذه القصيدة حين يتغنى بشجاعته وقوته ، وطعانه ، وضرابه ، وكأنه يرى فى الزمن عدوا لابد من منازلته والانتصار عليه :

أَنَّى تُهيبُ بى البُقيا وأتبعُها ... فلمْ أُباقِ بها مَنْ لا يُباقينى
توقّعوها فقدْ شبّتْ بوارقُها ... بعارضٍ كصريمِ اللّيلِ مدجُونِ
إذا غدا الأفقُ الغربىُّ مختمرا ... من الغُبارِ فَظُنُّوا بى وظُنُّونى
لتنظُرُنّى مُشيحًا فى أوائلِها ... يغيبُنى النّقعُ أحيانا ويُبدينى
إقدامُ غضبانَ كظّتْهُ ضغائنُه ... فمالَ يخلطُ مضروبًا بمطعونِ
فإنْ أُصبْ فمقادِيرٌ مُحجّزةٌ ... وإنْ أُصبْ فعلى الطّيرِ الميامينِ(١)

وهكذا يجسد الشريف الرضى من خلال هذه الأبيات شجاعته وإقدامه ، وقدرته القتالية فى ميادين القتال وكلها من عدد إحساسه ببطولته الذاتية بطولة الانتماء إلى قوم حملوا أرواحهم على أكفهم فى سبيل الدين والشرف . وإن كان الشريف الرضى قد اختتم هذه الأبيات ببيت يبدو فيه ضعفه أمام الأقدار ، فعذره فى ذلك أنه رأى خليفة المسلمين نفسه مهينا بعد عزٍّ ضعيفا بعد قوة ، ولا تزال صورة ذلك الخليفة حين قُبض عليه ، وخلع ، عالقةً بذهن الشاعر لا تبرحه

---

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص ٤٤٦ ، ٤٤٨ .

ولا تزال هذه اللحظة ماثلة أمام عينيه .

ولا يزال تنكر الدهر للفاضلين من الناس يؤرق نسيبًا كالشريف الرضيّ ، وإن كان لم يستطع أن يضعفه أمام سطوته ، فكونه يؤرقه شيء، أما أن يضعفه ويذله فهذا شيء آخر ، والشريف الرضيّ لا يتعرض في أشعاره لذم الدهر ليظهر شكواه وتحسره من ذلك بل كما قلت في أكثر من موضع - ليتغنى من خلال خوضه لهذه المصائب ، وتلك النكبات بالسجايا الكريمة والخلال الشريفة ، التي حازها وإن كان قد ورث كثيرا منها من آبائه ، وأجداده ، أولئك الذين يحسّ الشريف الرضي ببطولة الانتماء إليهم ، هذه البطولة التي يجسدها من خلال تغنيه بها وهو يواجه خطوب الزمن ، ومصائبه :

وِمنْ عجبٍ صدودُ الحظِّ عنّا	إِلَى المتعمّمِين على الخزايا
أُسِفَّ بمَنْ يطيرُ إِلى المعالي	وطارَ بمَنْ يسِفُّ إلى الدّنايا
ترى لهمُ المزايا إِنْ أرامُوا	وإِنْ نطقُوا رأيتَ لنا المزايا
غباوةُ هاجرِ الدّنيا وكيدٌ	ولاكيدُ الفواجرِ والبغايا
وإِنّ ظُهورَهُمْ لوْ كانَ نَصْفٌ	منَ الأنعامِ أولَى بالولايا
جرتْ بِهِمُ الحظوظُ مع القُدامى	وأسقطَنا الزّمانُ معَ الرّدايا
ففاقوا في المراتبِ والمعالي	وفُقْنا في الضّرائبِ والسّجايا
لهُمْ عنْ مالِهِمْ نفحاتُ كَهْدٍ	قِراعُ الدّبْرِ ذادَ عنِ الخلايا
ذَممْنا كُلّ مُرتَجعٍ عطاءً	ولَمْ يُعْطُو فَيَرْتجِعُوا العطايا
فلوْلا اللهُ لاأُرْتابَتْ قلوبٌ	بِقاضٍ لا يجوزُ في القضايا (1)

(1) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص٥٧٨ .

وهكذا ومن خلال شكوى الدهر والناس جسّد الشريف الرضيّ قوته وشجاعته ، وصبره ، وإقدامه وحلمه ، وصفحه وكلها من عـــدد الاستعداد النفسى ، والإحساس ببطولته الذاتية التى يستشعرها فى داخله منذ طفولته ، بطولة الانتماء إلى بيت كريم ، ونسب شريف زانت أصحابه هذه المكارم وتلك الخلال التى كفلت لهم البطولة ، والسيادة والسؤدد . وإذا كان الشريف الرضيّ قد واجه مصائب زمنه ، ونكبات دهره ، وتقلب أيامه ، وتبدل أخلاق الناس فيه بصبر ، وشجاعة ، وعزم وحزم ، فإنه يقف أمام خطب جلل ، ومصيبة لا يملك لها الإنسان دفعا مهما بلغت به بطولته ، تلك هى قضية الشيب — يقف أمامها — وقد أحس أنه لن يستطيع لها دفعا ، فجسد من خلال الحديث عنهــا تحسره على ذلك الضعف الذى لا يَدَ له فيه ، وتحسر الشريف الرضيّ أمام الشيب يعد — فى حقيقة الأمر — بطولة ، لأن إحساسه ببطولته هــو الذى دفعه إلى هذا التحسر ، ولا يعيب البطل أن يبكى أو يتحسر إذا ما واجهته ظروف يدرك أن مقاومتها فوق إرادة الإنسان وعزيمته . ومن هنا فإننا لا نعد بكاء الشريف شبابه ضعفا ، ولا خورا فى العزيمة ، ولـن ينفى ذلك إحساسه بالبطولة التى عاش يتغنى بها ، بطولة الانتماء إلـى النسب الشريف ، بل إننا نرى بكاءه شبابه هذا دليل على تعقله ، وإيمانه وهذه أيضا من عدد الإحساس ببطولته .

وإذا كنا نرى الشريف الرضى فى بكائه شبابه يصرح ببعض جوانـب الضعف فى نفسه ، فالشريف إنسان قبل كل اعتبار ، وهو يحس أنـــه

يفارق شيئا غير هين ، إنه فى الحقيقة يفارق قوته وفتوته ، ومقومات حياته ، إنه يحس أنه بشيبه الذى حلّ به ينسحب من ميدان الحياة الفسيح ، إلى زاوية ضيقة يقبع فيها بعيدًا عن مواجهة الحياة ، وخوض غمارها باقتدار مثلما عاش خائضا هذه الغمار ، مقتدرًا عليها . يبكى الشريف الرضى شبابه ولكنه يبدو متماسكا - إلى حد ما - فشيبه الذى زاره لم يخفه لأن شبابه لم يستر عليه فيجزع أن ينم المشيب عليه فهو ممن لا تحيف بهم العيوب :

أَلاَنَ جوانبِى غَمْزُ الخُطُوب ... وأَعْجلنى الزَّمانُ إلى المَشِيبِ
وكَمْ يبقَى على عَجْم اللَّيالِى ... وقَرْع الدّهْر جائِرة الكُعُوب
نَبا ظهرُ الزّمانِ وكنتُ منه ... على جَنْبىْ مُوَقّعةٍ رَكُوب
وقالُوا : الشيبُ زارَ ، فقلتُ : أهْلاً ... بنَوْر ذَوائب الغُصْن الرَّطيب
ولمْ أكُ قبلَ وَسْمِك لى مُحِبًّا ... فَيبْعُدَ بى بِعادُكَ مِنْ حَبيب
ولاَ سَترَ الشَّبابُ علىَّ عيبًا ... فأجزعَ أنْ يَنِمَّ على عُيُوبى
ولمْ أنْمِ طُلوعكَ بى لِشىءٍ ... سِوى قُرْب الطُّلوع إلى شَعُوب

وعلى الرغم من أن الشريف الرضى قد بدا فى هذه الأبيات متماسكا كما قلت - إلا أنه لم يلبث أن ألم به اليأس إلى ودفع به التشاؤم :

وأَعْظَمُ ما أُلاقِى أنَّ دَهْرِى ... يُعِدُّ مَحاسِنى لِى مِنْ ذُنُوبى
أقولُ إذا امتلأتُ أسًى لنفسى ... أيا نفسُ اصْبِرى أبدًا وطِيبى
دَعِى خوضَ الظَّلام بكلِّ أرضٍ ... وإعمالَ النَّجيبَة والنَّجيب
وجَرِّ ضوامِرِ الأحْشاءِ تَجْرِى ... كما تَهْوِى الدِّلاءُ إلى القَلِيب

مترفة إلى الغايات حنق ... ترنح في الشكيم من اللغوب
فليس الحظ للبطل المحامى ... ولا الإقبال للرجل المهيب
ونيل الرزق يؤخذ من بعيد ... كنيل الرزق يؤخذ من قريب
وغاية راكبي خطط المعالي ... كغاية من أقام عن الركوب
أليس الدهر يجمعنا جميعاً ... على مرعى من الحدثان موبي
كلانا تضرب الأيام فيه ... بجرح من نوائبها رغيب(1)

وهكذا يدفع اليأس بالشريف الرضى إلى أن يقرر أن الناس متساوون الجزاء في هذه الحياة العامل وغير العامل، الراكب لتحقيق غاياته والقاعد المتثاقل، الناهض إلى المعالي والمتقاعس عنها، فهذا وذاك تصيبهما الأيام بمصائبها، وهذا وذاك تجمعهما نهاية واحدة، وهو مدفوع إلى هذا التحسر بإحساسه ببطولته. ويتجاوز الشريف الرضى الثلاثين بقليل، ويرى في رأسه بياضا، فيحلق وفرته، وهو "بمنى" يومذاك ويأخذ في التغني وبكاء شبابه، والتفجع عليه. يقول في ذلك:

لا يبعدن الله برد شبيبة ... ألقيته "بمنى" ورحت سليبا
شعر صحبت به الشباب غرانقا ... والعيش مخضر الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبة ... عجبا "أميم" لقد رأيت عجيبا
قد كان لي قططا يزين لمتي ... شروى السنان يزين الأنبوبا
فاليوم أطلب الهوى متكلفا ... حصرا وألقى الغانيات مريبا
إما بكيت على الشباب فإنه ... قد كان عهدي بالشباب قريبا

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ١٠٢، ١٠٣.

لو كان يرجع ميت بتفجع	وجوى شققت على الشباب جيوبا
ولئن حننت إلى "منى" من بعدها	فلقد دفنت بها الغداة حبيبا (١)

وهكذا يبكى الشريف الرضى شبابه ، كما لو كان يبكى إنسانا فارق الحياة ولن يرجع بتفجع وجوى ، ولو كان الميت يرجع بتفجع وجوى لشق الشاعر جيوبه حزنا على شباب راحل ، آملا أن يعود إليه من جديد .

وللشريف الرضى فى المناسبة ذاتها ، مناسبة حلق وفرته " بمنى " وقد رأى فيها طاقات من البياض فى غير أوانه قوله :

ولم يلبثن غربان الليالى	نعيقا أن أطرن غراب راسى
ومازال الزمان بحيف حتى	نزعت له على مضض لباسى
نضا عنى السواد بلا مرادى	وأعطانى البياض بلا التماس
أروع به الظباء وقد أرانى	زميلا للغزال إلى الكناس
لمسقط حامل الشعرات عنى	بحد السيف فى اليوم الحماس
أحب إلى من نزعى ردائى	كسانيه الشباب وأى كاس
وأخلق وهو يذكرنى التصابى	وعود النبع يغمز وهو عاس
وددت بأن ما تخفى النواصى	بدا لى بما جنت المواسى
ويغضى المشيب إلى لداتى	وهونى البقاء على أناس
خذوا بأزمتى فلقد أرانى	قليلا مايلين لكم شماسى
أليس إلى الثلاثين انتسابى	ولم أبلغ إلى القلل الرواسى

(١) المصدر السابق ـ المجلد الأول ص ١٨٠ .

فَمَنْ دَلَّ المَشِيبَ على عِذارِي وما جرَّ الذُبولَ على غِراسي

وهكذا يتمنى الشريف الرضى أن لو سقط رأسه بحد سيف فى يوم قتال ، فذلك أحب إليه من أن ينزع عنه رداء الشباب . وهو متأثر فى ذلك بأبى الطيب المتنبى الذى قال حين ألم به المشيب :

ضَيفٌ ألمَّ برأسي غيرَ مُحتشِمٍ والسَّيفُ أحسنُ فِعْلاً منهُ باللِّمَمِ

فالشريف الرضىّ يرى — كما يرى المتنبى — أن الموت خير للإنسان من البقاء حتى المشيب — فالمشيب — فى نظر الشريف الرضىّ سوف يبغضه إلى لداته ، وسوف يحط من قدره بين أهله وأناسه وهذه النظرة من الشريف الرضىّ تعد بطولة فى حد ذاتها ، ويأخذ الشريف الرضىّ على نفسه العهد بأن يبكى شبابه ما عاش ، وبألا ينسى عهده ما بقى على قيد الحياة ، فهو لا يبكى شيئا هينا ولكن يبكى إحدى عدد إحساسه ببطولته :

سأبكي للشباب بشاردات كصادرة السِّهام عن القِياسِ
يُعلِّلُ شدوَها الطلحَ المُعنَّى إذا سقطَ العصيُّ من النُّعاسِ
فمَنْ يكُ ناسيًا عهدًا فإنِّي لعهدِكَ يا شبابي غيرُ ناسِ
وكنتُ عليكَ معْ طمعي جزوعًا فكيفَ يكونُ وجدي بعدَ ياسِ (1)

---

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

ويظل الشريف الرضى يبكى شبابه متحسرا عليه ، حزينا أسفا من مقدم شيب قد ألم به وهو لا يزال فى سن الشباب ، ويذكره شبابه الآخذ فى الرحيل بأهله الراحلين ، فيبكى شبابه ، ثم يخلص من بكائه ، إلى بكاء أولئك الأهل ، ويصوغ ذلك فى أبيات تحمل حسرة ، وألما ، وتفيض أسى ، ولوعة ، يقول الشريف باكيا شبابه ، متذكرا أيام عزه ، وسؤدده يوم كان يرفل فى أثواب الشباب الغضة :

وَلَقَدْ أَكُونُ مِنَ الْغَوانِى مَرَّةً ... بأعزِّ منزلةِ الحبيبِ الأَقْرَبِ
أَقتادُهُنَّ بِفاحِمٍ متخايلٍ ... فيُرِينُنى ويرين لى ويزِينُ بى
وإِذا دَعَوتُ أَجَبْنَ غَيْرَ شَوامِسٍ ... زَفَفَ النياقِ إلى رُغاءِ المُصْعَبِ
فاليومَ يلوينَ الوجوهَ صوادِفًا ... صَدَّ الصِّحاحِ عَنِ الطَّلِىِّ الأَجْرَبِ
وإِذا لَطُفْتُ لهُنَّ قالَ عَواذِلى ... ذِئْبُ الغَضاةِ يَرِيغُ وُدَّ الرَّبْرَبِ

ثم ينتقل الشريف الرضىّ بعد هذه الأبيات إلى بكاء أهله الراحلين وقد ذكره رحيل شبابه برحيلهم ، فيبكيهم فى أبيات ذاتية تفيض أسى ولوعة ، وقد فجع بهم وهم فروع المجد من "مدركة" ، تقارعت عليهم السنون فتركتهم شعبا ممزقة ، وربط الشريف بين رحيل الشباب وبين أهله دليل على أنه يُعدّ رحيل الشباب موتا ، ولكنه موت غير مباشر :

فلئِنْ فُجِعتُ بِلِمَّةٍ فَيْنانَةٍ ... ماتَ الشَّبابُ بها ولمّا يَعْقُبِ
فلَقَدْ فُجِعتُ بكلِّ فرعٍ باذخٍ ... مِنْ عيصِ "مُدْرِكَةَ" الأعزِّ الأطْيَبِ
قومٍ تقارَعَتِ السنونَ عليهِمُ ... فثَلَمْنَ كلَّ فتًى كحدِّ المِقْضَبِ

شعبا مفرقة يطير فضاضها ... كالقعب منصدعا ولما يشرأب
هتف الردى بجميعهم فتتابعوا ... طلق العطاس بنى أب وبنى أب
وردوا وإنى بعدهم كظميئة ... تسل القوارب عن بلوغ المشرب
طرق الزمان بكل خطب بعدهم ... فإذا رأيت عجيبة لم أعجب (1)

وللشريف الرضى فى بكاء شبابه أبيات ، يجسد من خلالها تحسره على ذلك الشباب الذى فارقه وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وحل به مشيب جعله عرضة لنوائب الأيام ، وخطوب الزمن هذه الخطوب وتلك النوائب التى ألانت عوده للزمان الكاسر .

قالوا : المشيب ! فعم صباحا بالنهى ... واعقر مراحلك للطروق الزائر
لو دام لى ود الأوانس لم أبل ... بطلوع شيب وابيضاض غدائر
لكن شيب الرأس إن يك طالعا ... عندى فوصل البيض أول غائر
واها على عهد الشباب وطيبه ... والغض من ورق الشباب الناضر
واها له ما كان غير دجنة ... قلصت صبابتها كظل الطائر
سبع وعشرون اهتصرن شبيبتى ... وألن عودى للزمان الكاسر
كان المشيب وراء ظل قالص ... لأخى الصبا وأمام عمر قاصر
وأرى المنايا إن رأت بك شيبة ... جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدى ... وتضل فى ليل الشباب الغابر
لو يفتدى ذاك الشباب فديته ... بسواد عينى بل سواد ضمائرى

(1) المصدر السابق – المجلد الأول – ص ١٨١ ، ١٨٢ .

أبياضُ رأسٍ واسْوِدادُ مطالِبٍ صَبْراً على حُكْمِ الزَّمانِ الجائِرِ (١)

وهكذا تغشى الحسرةُ والكآبةُ نفسَ الشريف الرضيّ حين يرى المشيب وقد ألم به ، فيعلم أنه من اليوم فصاعدا سيكون مرمى لنبل المنايا ، وغرضا لسهام الخطوب والنكبات ، وهو إحساس شبيهٌ بإحساس البطل إذا ما أحس بدنو هزيمته .

ومن المقطوعات الذاتية للشريف الرضيّ في بكاء شبابه مقطوعته التي يقول فيها :

لِجامٌ للمشيبِ ثَنَى جِماحِي وَذَلَّلَنِي لأيَّامٍ وَراضَا
أُقَسِّرُ بِلُبْسِهِ ولقد أرانِي أُجاحِدُهُ إباءً وامتعاضَا
تعوَّضْتُ الوقارَ من التَّصابِي لشدَّ على المعوَّضِ ما اسْتعاضَا
لوى عنِّي الخدودَ من الغواني وقطَّعَ دونِيَ الحَدَقَ المِراضَا
فصارَ بياضُهُ عندي سَوادا وكانَ سوادُهُ عندي بياضَا (٢)

ويبكي الشريف الرضي شبابه في أبيات يضمنها قصيدة له في الفخر يقول متغنيا وباكيا شبابه :

ولَّى الشبابُ وهذا الشيبُ يطرُدُهُ يَفْدِي الطريدةَ ذاكَ الطّارِدُ العَجِلُ

---

(١) ديوان الشريف الرضي — المجلد الأول ص٤٧٩ ، ٤٨٠ .
(٢) المصدر السابق — المجلد الأول ص٥٨٢ .

مَا نَازِلُ الشَّيبِ في رأسي بمُرْتَحِلٍ ... عَنِّي وأعلمُ أني عنه مرتحلُ
مَنْ لم يَحِظْهُ بياضُ الشَّعرِ أدْرَكَهُ ... في غرّةٍ حتفُهُ المقدورُ والأجَلُ
مَنْ أخطأتْهُ سهامُ الموتِ قيّدَهُ ... طولُ السنينَ فلا لَهْوٌ ولا جَذَلُ
ضَاقَ مِنْ نفسِهِ ما كانَ مُتّسِعًا ... حتّى الرّجاءُ وحتّى العزمُ والأمَلُ(١)

وعلى الرغم من أن الأبيات قد تضمنتها قصيدة جاءت كلها في الفخر الذي يتيه الشريف من خلاله على الدنيا كلها بنسبه، وشرفه، وحزمه وأبيه، وأمه، من مثل قوله:

قومي هُمُ الناسُ لا جيلٌ سواسيةٌ ... الجودُ عندهُمُ عارٌ إذا سُئلوا
أبي الوَصيُّ وأمّي خيرُ والدةٍ ... بنتُ الرسولِ الذي ما بعدَهُ رُسُلُ
وأين قومٌ كقومي إنْ سألتَهُمُ ... سوابقَ الخيلِ في يومِ الوغى نزلوا
كالصَّخرِ إنْ حلُموا والنارِ إنْ غضبوا ... والأُسْدِ إنْ ركبوا والوَبْلِ إنْ بذلوا
الطاعنينَ من الجبّارِ مَقتلَهُ ... والضاربينَ وذيلُ النقعِ مُنْسَدِلُ
والراكبينَ المطايا والجيادَ معًا ... لا الشُّكلُ تحبسُها يومًا ولا العُقُلُ
تُغْضي عيونُ الأعادي عن رماحِهِمُ ... وللأسنّةِ فيهمْ أعينٌ نُجُلُ(٢)

أقول — على الرغم من أن أبيات الشريف الرضي التي يبكي من خلالها شبابه قد تضمنتها قصيدة في الفخر جاء فيها مثل هذه الأبيات السابقة التي تفيض شعورا بالعزة والهيبة والمنعة إلا أن أبياته في بكاء الشباب قد رانت عليها الكآبة، وتسلل من خلالها اليأس إلى نفس

(١) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص١٧٩.
(٢) المصدر السابق — المجلد الثاني ص١٨١، ١٨٢.

ذلك الشاعر البطل ، الذى رأى أن شيبه قيدٌ له فى حياته وضيقٌ لمدى رجائه ، وعزمه ، وأمله ولن يحس ذلك الإحساس إلا من عاش بطلا كميا ، يجد من الشباب عونا ، وعضدا ويرى فى المشيب ضياعا أى ضياع ، ويظل الشريف الرضى يجسد من خلال أشعاره أحزانه وآلامه ، لشباب ضاع ، وشيب قد حل به :

لونُ الشبيبةِ أنصلُ الألوانِ ... والشيبُ جلُّ عمائمِ الفتيانِ
نبتٌ بأعلى الرأسِ يرعاهُ الردى ... رعْىَ المطىِّ منابتَ الغيطانِ
الشيبُ أحسنُ غيرَ أنَّ غضارةً ... للمرءِ فى ورقِ الشبابِ الآنى
وكذا بياضُ الناظرينِ وإنما ... بسوادِها تتأملُ العينانِ
لهفى على زمنٍ مضى وكأننى ... منْ بعدهِ كلٌّ على الأزمانِ
أفنيتُهُ طاغى الغرامِ كأنما ... فى أمِّ رأسى نخوةُ السكرانِ
يرجو الفتى خلسَ البقاءِ وإنما ... جارا حياةِ العمرِ مفترقانِ
متعرضٌ إما للونٍ حائلٍ ... بينَ الذوائبِ أو لعمرٍ فانِ (1)

وهكذا يتحسر الشريف الرضى على زمن قد مضى ، وشباب قد رحل وكأنه قد أصبح بعد رحيل ذلك الشباب كلاًّ على الأزمان .

ويطول بكاء الشريف الرضى وتحسره ، ثم يجد أن لا جدوى من ذلك البكاء ، فيهدأ قليلا ، وكأن نظرته إلى الحياة قد تغيرت ، فيبدأ فى

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص ٥١٦ .

مديح الشيب ، اذ يرى أن فيه هدايةً ، ورشدا ، وكأنه بذلك يهيء نفسه لتقبل الأمر ، الذى لا مفر منه :

مَسيرى إلى ليل الشّباب ضَلالُ ... وشيْبى ضياءٌ فى الورى وجَمالُ
سَوادٌ ولكنّ البياضَ سيادةٌ ... وليلٌ ولكنَّ النَّهارَ جَلالُ
وما المرءُ قبلَ الشيب إلاّ مهنّدٌ ... صَدِئٌ وشيبُ العارضَيْن صِقالُ
وليسَ خضابُ المرءِ إلا تعلّةً ... لمَنْ شابَ منْه عارِضٌ وقَذالُ[1]

و هكذا تتغير نظرة الشريف الرضىّ إلى المشيب ، فيرى أنه ضياء للمرء فى حياته ، وسيادة ، وجلال بين أهله ، وذويه ، وبين الناس كل الناس .

و هذه النظرة إلى الشيب وإن اختلف – فى ظاهرها مع نظرة الشريف الرضى له قبل ذلك إلا أنها تضيف إلى شخصيته مقومات تضمن لبطولة الشريف الاستمرارية ، والبقاء ، من ذلك وقاره ، وجلاله وسيادته ، والشريف الرضىّ حريص على أن يجسد بطولته من خلال أشعاره مهما اختلف مناحى هذه الأشعار ، وأغراضها .

فالشريف الرضى مدفوع فى كل أشعاره بإحساسه ببطولة الانتماء إلى بيت كريم ، ونسب شريف يتمثل – كما قلت – فى انتسابه إلى بيت النبوة

---

(1) المصدر السابق – المجلد الثانى ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

ولعل مما يؤيد ذلك أنه كان في غزله حجازيّ الهوى ، نجـــديّ المشاعر ، فلم يتغزل إلا بالحجازيات ، ولم يذكر في غزله إلا تلك البقـــاع التي كانت موطنا لأولئك الذين عَزَّتهم الشريف ، وأحس ببطولة الانتمـــاء إليهـــم .

ونستطيع القول بأن أشعار الشريف الرضى في الغزل ، لم يكن الغـزل فيها حقيقيًا بل كان ذلك مجالا اتخذه الشريف للتعبير عن حبه لتلـــك الديار ، وتعلقه بها وبأهلها ، والا فما معنى أن لا يدير غزله حـــول بغداد ، ورياضها ، وأن لا يشغل باله نساؤها اللائى ملكـن قلـــوب جل من عاصر الشريف أو سبقه ، واللائى حوين من أسباب الفتنة ما حويـن : من رقـة ، وجمال ، والإلمام بضروب المتعة من رقص ، وطرب ، وغناء ، وغير ذلك مما يشد كل رجل شغلته الحياة ، وبهرته فتنتها .

ان الشريف الرضى قد نأى بنفسه من خلال هذه الأشعار ، عـــن بيئة رأى أنها لا تليق بمن كان مثله في أصالة شرفه ، وطيب منبته ، وكـرم محتده ، فتطلع إلى بيئـة أخرى يبثها لواعـج نفسه ، وخالص أشواقـــه فلم يجد غير تلك البيئة التي تفجرت منها ينابيع إحساسه ببطولته الذاتيـة التي يستشعرها ، ببطولة الانتماء إلى قوم أنبتتهم تلك البيئة إن أصالـــة الشريف واضحة جلية من خلال هذه الأشعار التي جسدت إحساســـه ببطولته وإن كانت في ظاهرها تعد غزلا .

أنجد الشريف الرضى ليلة ، وشم رائحة الشيح فاستطابها ، وهيجت

أشواقه ، وذكرته بمن أحب ، فتغنى بذلك :

ولَقَدْ أقولُ لصاحبٍ نبَّهتُه ... فوقَ الرِّحالةِ والمطيُّ رواقي
أوَ ما شممْتَ بذي الأبارقِ نفْحَةً ... خلصتْ إلى كَبِدِ الفتى المُشْتاقِ ؟
فجنى نسيمُ الشِّيحِ منْ نجْدٍ لَهُ ... حُرَقُ الحشى و تحلُّبُ الآماقِ
آهاً على نفحاتِ نجْدٍ إنَّها ... رُسُلُ الهوى وأدلَّةُ الأشواقِ
أسُقِيتَ بالكأسِ التي سُقِّيتها ... أمْ هلْ خطتْكَ إلى كفِّ الساقي؟
فأوى وقالَ : أرى بقلبِكَ لسعَةً ... للحُبِّ ليسَ لدائِها منْ راقِ
فصفِ الغرامَ لِمُغْرقٍ منْ دائِهِ ... إنّي لأقدمُ منكَ في العشاقِ
أبثثْتُه كمدي وطولَ تجلُّدي ... وعظيمَ ما بي منْ نوى وفراقِ
أشكو إليهِ بياضَ سُودِ مفارقي ... ويظلُّ يعْجبُ منْ سوادِ الباقي (١)

والشريف الرضى فى هذه الأبيات لا يحن إلى محبوب — كما يفهم من ظاهر الأبيات بل يحن إلى هذه الديار التى حمل لها بين جنبيه حبا جارفا ، لأنها ديار من ينتسب إليهم ، ومن يحس ببطولة الانتماء لهم .

وإذا كانت الأبيات السابقة قد أنجد فيها الشاعر حقيقة ، ورأت فيها عيناه ربى نجد ، وخلصت إلى أنفه روائح شيحها فهيجت فيه كامن الذكرى حقيقة لا خيالا إلا أن ذكرى هذه البقاع لم تغب عن خاليه وهو بعيد عن الحقيقة ، والواقع ، إذ طالما زاره طيفها ، وتمثلت له فى النوم بعد رقاده ، حين فصل بينهما بُعْدُ مكانى فهو فى سواد العراق ، وهذه

(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص٧٨ .

البقاع الحبيبة إلى خياله ، الأثيرة لدى نفسه فى الحجاز :

يا ظَبْيَةَ البانِ تَرْعَى فى خمائِلِهِ ... لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مرعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربهِ ... وليس يَرْوِيكِ إلا مَدْمَعِى الباكى
هَبَّتْ لنا مِنْ رياحِ الغَوْرِ رائحةٌ ... بعدَ الرُّقادِ عرفْنَاها برَيَّاكِ
ثُمَّ انثنينا إذا ما هزَّنا طَرَبٌ ... على الرِّحال تعلَّلْنا بذكراكِ
أنتِ النعيمُ لقلبى والعذابُ له ... فما أمرَّكِ فى قلبى وأحلاكِ

فالشريف الرضىّ فى هذه الأبيات يجسد حبه لبقاع تعلقت بها نفسه وهفا إليها فؤاده فهو يردد ذكرها ، كما يردد الحبيب ذكر من يحب فإنه يجد راحة نفسية فى ترديد أسماء هذه البقاع ، وتلك الأمكنة التى يذكر منها الرضى " البَان " ، والغَوْر " و " ذى سَلَم " و " الجِزْع " .

والشريف الرضى يركز دائما فى تغنيه بهذه البقاع على ما تحويه تلك البقاع من أرواح زكية طيبة ، وهو فى هذه الأبيات يجسد ذلك إذ يتغنى برياح " الغَوْر " تلك التى قد خلصت إلى أنفه وهو نائم " مما يجسد حبه لهذه البقاع وتعلقه بها ، ذلك الحب الذى يدفعه إلى تلك المبالغة التى يتعدى بها ما ألفه الناس ، وكذلك المحبون .

ويتابع الشريف الرضى تغنيه بهذه البقاع ، إذ يضيف إليها " مِنَى " وما تمثله من مشاعر النقاء والصفاء النفسى ، مما يجعلنا نستشعر ذلك الجو الدينى الذى يهفو إليه الشريف ، بوصفه دافعا له فى حبه لهذه البقاع ، وتعلقه بها مما يؤكد أنه إنما يصدر فى ذلك الغزل عن إحساسه

ببطولة الانتماء إلى بيت النبوة :

سَقَى "مِنًى" ، ولياليَ الخيفِ ما شَرِبَتْ | مِنَ الغمامِ وحَيّاها وحَيّاكِ
إذْ يلتقي كلُّ ذي دَيْنٍ وماطِلِه | مِنّا ، ويجتمع المشكوُّ والشاكي
كما غدا السربُ يعطو بين أرحلنا | ما كان فيه غريمُ القلبِ إلاّكِ
هامتْ بكِ العينُ لم تتبعْ سواكِ هوًى | مَنْ علّمَ البَيْنَ أنَّ القلبَ يهواكِ
حتّى دنا السِّربُ ، ما أحيَيْتِ مِن كمدٍ | قتلى هواكِ ، ولا فادَيْتِ أسراكِ
يا حبّذا نفحةٌ مرّتْ بفيكِ لنا | ونُطفةٌ غُمِسَتْ فيها ثناياكِ
وحبّذا وقفةٌ والركبُ مُغتفلٌ | على ثرًى وخدتْ فيه مطاياكِ
لو كانت اللِّمةُ السوداءُ من عُدَدي | يومَ الغميمِ لما أفلتِّ أشراكي(1)

ويظل الشريف الرضى ذاكراً "مِنًى" حيث التقى بمحبوبته التى يرمز بها لأهله فكلما عاد إلى "مِنًى" ، عادت إليه ذكرياته ، وانتفض قلبه لهذه الذكرى ، وذلك الحب الذى علق به ، وانطلق يؤكد لمحبوبته وفاءه لها ، وإبقاءه على حبها :

أُحِبُّكِ ما أقامَ "مِنًى" وجَمْعٌ | وما أرسى بمكّةَ أخشباها
وما رفع الحجيجُ إلى المُصَلّى | يجرّون المطيَّ على وجاها
وما نحروا بخيفِ مِنًى وكبّوا | على الأذقانِ مشعرةً ذُراها
نظرتُكِ نظرةً بالخيفِ كانت | جلاءَ العينِ مِنّي بل قذاها

(1) ديوان الشريف الرضى – المجلد الثانى ص ١٠٧ – ١٠٨

وَلَمْ يكُ غيرُ موقفِنَا فطارَت بكلِّ قبيلةٍ منَّا نَوَاهَا
فوا‌هًا كيفَ تجمَعُنا اللَّيالِي ؟ وآهًا من تفرُّقِنَا وآهًا

ولا يكتفى الشريف الرضى بترديد هذه الآهات التى تنم عن أسى دفين ، وحزن عميق يتغلغلان فى قلبه ، ويغشيان نفسه لبعاده عن عن أحبائه ، بل راح يقسم لمحبوبته بكل شعيرة من شعائر الله أنها منى النفس إن لم تكن هى النفس خالصة :

فأُقْسِمُ بالوقوفِ علَى " أَلالٍ " وَمَنْ شَهِدَ الجِمارَ وَمَنْ رَمَاهَا
وأركانِ العتيقِ وبانِيَيْهَا وزَمْزَمَ والمقامِ وَمَنْ سقَاهَا
لأنْتِ النفسُ خالصةً فإنْ لَمْ تكُونِيها فأنْتِ إذًا مُناهَا
نَظَرْتُ ببطنِ مَكَّةَ أُمَّ خِشْفٍ تَبَغَّمَ وهْىَ ناشدةٌ طَلاهَا
وأعجبَنِى مَلامِحُ مِنْكِ فِيهَا فقلْتُ أخَا القَرِينةِ أم تَرَاهَا ؟
فلولا أنَّنِى رَجُلٌ حَرَامٌ ضَمَمْتُ قرونَها ولثَمْتُ فاهَا (1)

ويتردد ذكر " مِنًى " ، ومكَّة " فى أشعار الشريف الرضى كثيرا فهو يذكرهما كلما ذكر محبوبته ، أو بالأحرى يذكر محبوبته ، كلما حلَّ " بمكة " ، " ومنى " ، فعلى أرضهما التقى بها ، وفى أكنافهما سعد بلقائها ، ولا عجب فى أن يكثر ذكرهما فى شعره .

وفى قصيدة أخرى يذكر الشريف الرضى "مكَّة" ، وما لقى فيهما من

(1) ديوان الشريف الرضى ـ المجلد الثانى ص٥٦٣، ٥٦٤

تباريح الهوى حين علق قلبه بمحبوبة رآها هناك :

عاد الهوى بظباء مـ	ـكة للقلوب كما بداها
وخبت عليك منى تبا	ريح الغرام وما زهاها
طربا على طرب بها	يا دين قلبك من جواها
إنى علقت على منى	لمياء يقتلني لماها
راحت مع الغزلان قد	لعبت بقلبي ، ما كفاها
تبغي الثواب فمهجتي	هذى القريحة من رماها
تزهو على تلك الظبا	ء فليت شعرى من أباها
وقف الهوى بي عندها	وسرت بقلبي مقلتاها
بردت على كأنما	ظل الغمامة عارضاها
شمس أقبل جيدها	يوم النوى وأجل فاها
وأزور قلبا ظامئا	لو قيل : وردك ما عداها
ولو استطاع لقد جرى	مجرى الوشاح على حشاها

ومن خلال هذه الأبيات يظهر حرص الشريف الرضى على تجسيد عفته ونقائه والتغنى بجميل شمائله ، وحلو صفاته ، وعظيم أخلاقه ، التى هى من عدد إحساسه ببطولته الذاتية بطولة الانتماء إلى أشراف كآل البيت :

شمس أقبل جيدها	يوم النوى وأجل فاها
وأزور قلبا ظامئا	لو قيل : وردك ما عداها

ثم يتذكر الشاعر يوم فراقهما ، فيأخذ فى التغنى بذكريات ذلك الفراق :

يا يومَ مفترقِ الرفا ق ترى تعودُ لملتقاها ؟
قالتْ : سيطرقُك الخيا لُ من العقيقِ على نواها
فعدى بطيفِك مقلةً إن غبتِ تطمعُ فى كراها
إنّى شربتُ من الهوى حمراءَ صرّف ساقياها
يا سرحةً بالقاعِ لمْ يُبللْ بغيرِ دمى ثراها
ممنوعةً لا ظلّها يدنو إلىّ ولا جناها
أكذا تذوبُ عليكمُ نفسى وما بلغتْ مناها
جسدٌ بقلبٍ للضنى بيدى طبيبةٍ سواها
أبْسَ الوجوهُ أحبُّها ؟ وأودُّ لو أنّى فداها
أمسى لها متفقدًا فى العائدينَ ولا أراها
واهًا ، ولولا أنْ يلو م اللائمونَ لقلتُ آها (1)

وهكذا لا يتغنى الشريف إلا بهذه البقاع التى يحرص على أن يردد أسماءها كثيرا فى أشعاره تلك ، مبديا أساه لبعاده عن هذه البقاع التى تعلق بها ، ولكن حبها فى صدره ، والتى لا تغيب عنه لحظة فى صحوه ونومه ، وإن كان حزنه لا يزال قائما لبعاده عنها ، فها هو ذا بعيد عنها ومريض بحبها ، تمرضه طبيبة أخرى سواها ، وهو يعلم

(1) ديوان الشريف الرضى — المجلد الثانى ص٥٦٦، ٥٦٧

أن دواءه هناك فى هذه البقاع التى تشده إليها ، وتستحوذ على حبه لأنها أنجبت من يحس ببطولة الانتماء إليهم .

هذه البطولة التى عاش الرضى يجسدها حين تغنى بها فى كل أشعاره التى جسدت هذه البطولة من خلال تغنى الشريف الرضى بنفسه ، وأبيه ، وقومه ، وبما وهب من عدد الاستعداد النفسى للإحساس بهذه البطولة ، بطولة الانتماء إلى آل البيت ، تلك البطولة التى استشعرها الشريف الرضى - كما رأينا - وهو ابن العاشرة أو ربما أقل من ذلك ، والتى أضاف اليها من رصيد شخصى مقومات كثيرة وأسبابا عديدة تمثلت فى شجاعة ، وقوته ، وشدة بأسه ، وحلمه ، وصفحه ، وعفوه وكرمه ، وصبره ، وجلاده ، وعفته ، وإبائه ، وصونه لعرضه ، وإن كانت معظمها موروثة عن أهله ، ولكنه حافظ عليها ، وأضاف إليها فلم يكن خاملا يعيش على تراث آبائه ، وأجداده ، بل كان عاملا ما استطاع على المحافظة على هذا التراث الذى كفل له الإحساس ببطولته الذاتية وعلى أن يضيف إليه ما استطاع إلى ذلك من سبيل .

البـــاب الثانـــــــى

العناصر الفنية فى الشعر الذاتى فى القرن الرابع

مقدمـــــة :

عند دراستنا للشعر الذاتي في القرن الرابع ، خلال فصول الابـــواب الثلاثة السابقة " استطعنا أن نتبين أن كل شاعر من شعراء ذلك القـــرن كانت له ذاتية خاصة فيما يتحدث فيه ، وفيما يتخذه اتجاها لفكره .

واذا كان قد ظهر أنه قد ربط بين أكثر من شاعر اتجاة ذاتي عام الا أنه كان لكل منهم اتجاه خاص يتفرع عن ذلك الاتجاه الذاتي العام الذي ربـط بينهم .

فالمتنبي وأبو فراس الحمداني والشريف الرضي ، ربطت بينهما ذاتيـة البطولة ولكن بالمعنى العام لهذه البطولة ، ثم كان لكل واحد منهـــم اتجاه خاص يميز بطولته عن بطولة زميليه .

وشعراء الانحلال الخلقي ربطت بينهما هذه الذاتية بوصفها اتجاهــا عاما ، ثم تفرعت عن ذلك الاتجاه الذاتي العام اتجاهات ذاتية خاصــــة تندرج كلها تحت ذلك الاتجاه الذاتي العام ، وان اختلفت فيما بينهـــا اختلافا ظاهريا ، وبينا .

وكذلك مثلما حدث مع شعراء القرن الرابع ربطت بينهم ذاتية العقــد النفسية بوصفها اتجاها عاما أيضا ثم تفرع عن ذلك الاتجاه العام اتجاهان خاصان تمثلا في عقدة الشعوبية ، والتشيع عند مهيار الديلمي ، وعقـــدة الفقر عند الاحنف العكبري شاعر بني ساسان ، أو شاعر المكدين في القرن الرابـــع .

واذا كنا قد تبينا ذلك فى دراستنا الموضوعية لهذه الاتجاهات الذاتية فانه من المؤكد أن كل اتجاه ذاتى ميز كل شاعر عن غيره ، ينبغى أن تقترن به ذاتية خاصة فى عناصره الفنية ، لان المضمون والشكل لا ينفصلان فهما نسيج واحد .

وسوف نحاول فى هذا الباب استخراج العناصر الفنية المصاحبة لمضمون كل شاعر مع محاولة ملاحظة العناصر المشتركة .

* * * * *

الفصـــــل الاول

بنـــاء القصيـدة ولغـة الشعـــر

الفصـــــــل الاول

بنـــاء القصيدة ولغـــة الشعـــر

أولا ـ بنـــاء القصيـــدة :

حظيت القصيدة العربية القديمة بدراسات متعددة ، من حيث شكلها ونظامها وأقسامها ، ومن الباحثين من خص مقدمة القصيدة العربيـــــة بدراسة مستقلة ، فللدكتور / حسين عطوان ، بحث عن مقدمة القصيـــدة العربية القديمة فى الشعر الجاهلى ، يرى فيه أن كثيرا من الشعـــراء لم يلتزموا النهج الذى حدده ابن قتيبة للقصيدة [1] بل منهم من ابتـــداء قصائده بوصف الخمر ، والفروسية مثلا ، وأورد الباحث قصائد عديـــدة مستشهدا بها على ما يقـــول • [2]

وإذا كنا فى هذا المقام ندرس بناء قصيدة التعبير عن الذات فى القرن الرابع ، فاننا نرى أن الثورة على افتتاح القصائد بذكر الاطلال ، ووصفها والبكاء عليها التى فجرها أبو نواس ورفاقه ، فى القرن الثانى الهجرى هى أقرب الى القرن الرابع من الشعر الجاهلى ، وأجدى عند دراسة بنـــاء قصيدة التعبير عن الذات فى هذا القرن •

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، ٠٠ دار المعارف بمصر ، ج ١ ، ص ٧٤ : ٧٥ •

(٢) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى ، د / حسين عطوان ، دار المعارف بمصر " الفصلان الثانى والثالث " •

فشعراء القرن الثانى ، أولئك الذين بدأوا هذه الثورة " كـــان معظمهم من المولدين وهؤلاء لا تربطهم بمعالم الحياة الجاهلية عاطفة ما ، فلماذا يصورون فى شعرهم ناحية لا توجد فى واقع مجتمعهم الـذى يعيشون فيه ، انهم يحيون فى حواضر ذات مدنية راقية ، فيها القصور الرائعة ، وفيها الرياض الزاهرة المونقة ،فكيف يتركون هذه المظاهر التى تقع عليها عيونهم ، ليصفوا أطلالا خربه ودمنا باليه ، لعل الكثيريـــن منهم لم يروها فى حياتهم ؟ (١)

وثورة أبى نواس تلك ورفاقه من شعراء القرن الثانى الهجرى مثل مطيع بن اياس ، ومحمد بن أمية ، وأشجع السلمى ، وسلم الخاسر ، وعبد الله لبن أبى أمية ، وبشار بن برد ، وغيرهم ، لم تكن محازاة للقديم ــ كمـا يرى بعض الباحثين (٢) ، بل كانت كما يرى أستاذنا د / هدارة ،استغلالا لبداية قصائدهم فى التعبير الحر عن أنفسهم ، ومشاعرهم ، ونـــوازع حياتهم " . (٣)

والحقيقة أن هذا الرأى يعد نظرة جديرة بالوقوف عندها ، لانها ربط بين المضمون والشكل فى غير تعسف ، أو بعد عن الحقيقة .

فأبو نواس حين أستهل قصائده بالخمر ودعا الى ذلك ،لم يكن يدعـو

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ، د / محمد مصطفى هداره ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب / محمد مندور، نشر مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٤٨م ، ص ٥٩ .

(٣) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ، ص ١٥٤ .

الا نفسه ولم يشغله الا التعبير عن خوالج هذه النفس التى لم تفكر في شيء كما فكرت في الخمر وملذات الحياة ، ويخطىء كل من يظن أن ذلك من أبى نواس كان دعوة لترك نمط سار عليه الاقدمون واستبداله بنمط آخر وكأنه يضع أسسا لقانون جامد لا يقيم للنفس ، ومشاعرها وزنا .

وما يقال عن أبى نواس يمكن أن يقال عن من عاصروه ، وشاركوه ثورته على افتتاح القصيدة ببكاء الاطلال ، وان اختلفوا فيما بينهم في طرائق استهلال كل منهم لقصائده ، مما يجسد الذاتية عند كل منهم .

وشعراء القرن الرابع الهجرى ، الذين درسناهم فى الفصول السابقة من أبواب هذا البحث وان كان معظمهم من أصل عربى ، وليسوا من المولدين ، الا أنهم كانوا كشعراء القرن الثانى الهجرى تفصلهم عن حياة الجاهلية بما فيها من سمات للبداوة مئات من السنين ، اذ يعيشون في بيئة مختلفة عن بيئة الجاهليين ، وظروف تتباين مع ظروفهم ، فهم يقيمون فى حواضر ذات مدنية راقية ، تقع أعينهم على قصور حواضرهم ورياضيها الزاهرة ، الموثقه فمن المستبعد أن ينشغلوا عن حياتهم التى يحيونها بحياة عاشها آباؤهم وأجدادهم القدماء ، فيتركون وصف ما تقع عليهم أعينهم ليصفوا ما وصف آباؤهم ، وأجدادهم لا لشىء الا لمجرد تقليد هؤلاء الاباء والاجداد والمحافظة على تراثهم الشعرى .

لذا فاننا نرى أن شعراء القرن الرابع الهجرى ، قد تأثروا الى حد بعيد بالسابقين عليهم مباشرة من شعراء القرنين الثانى والثالث الهجريين فهم أقرب اليهم كما قلت من شعراء الجاهلية ، واستغلوا مثلهم ــ بداية

قصائدهم فى التعبير عن أنفسهم ، ومشاعرهم ، ونوازع حياتهم .

فالمتنبى مثلا ذلك الذى عاش حياته يستشعر بطولة النضال فى نفسه فناضل الزمن ، والناس ، ونوازع النفس البشرية ، يستغل معظم بدايات قصائده فى تجسيد هذا الجانب الذاتى فيه ، جانب البطولة النضالية أو بطولة النضال — كما أسميناها — .

فهو يستهل — مثلا — قصيدته الدالية ، التى جاءت كل أبياتها فى تجسيد بطولته الذاتية ، بطولة النضال — كما قلت — والتى كانت سببا فى اتهامه بادعائه النبوة — يستهلها — بالغزل :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود (١)

ويلاحظ فى هذا النموذج من نماذج بدايات قصائد أبى الطيب ما يلى :

* اضرابه عن الوقوف بالاطلال .
* أن الغزل فى هذه الافتتاحية غزل موظف لخدمة الغرض يظهر ذلك فى قوله (قتيل — قتلت — شهيد — فتكت — المعمود) فكلها تدل على ما هو فيه من هم وعذاب دفع من أجلهما دفعا الى النضال الذى اتخذه دينناً له فى الحياة ، وتجسدت من خلاله بطولته ، يؤكد ذلك ويؤيده

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى ، بشرح العكبرى ، جـ١ ص ٣١٣ : ٣٢٤ .

أن المتنبي يخلص من ذلك الغزل الذي وظفه لخدمة المعنى الذي يريده الى الفخر بنفسه ، والتغني بما وهب ، وما ملك من سجايا ومكارم :

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ، ولكن قميصي مسرودة من حديد

ويظل أبو الطيب متغنيا بنفسه وببطولته التي جعلت قومه يشرفون به :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ولا يختمها الا بالغرض نفسه :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

من ذلك يتضح أن أبا الطيب قد استغل بداية قصيدته تلك في التعبير عن احساساته ومشاعره ونوازع نفسه وان جاءت البداية غزلا الا انه كان غزلا موظفا لخدمة المعنى الذي أراده أبو الطيب ، كذلك جاءت قصيدته " اللامية " التي نظمها في صباه أيضا ، مجسدا من خلالها همته متغنيا فيها ببطولته الذاتية ، جاءت كذلك في غرض واحد هو الفخر والتغني بالنفس ، وشمائلها ، هذه القصيدة التي يستهلها أبو الطيب بالدخول الى غرضه مباشرة دون توطئة ، أو تمهيد ، بل يأخذ في التغني ببطولته الذاتية مباشرة :

قفا تريا وقعى فهاتا المخايـــل   ولا تخشيا خلفا لما أنا قائـــل (١)

فأبو الطيب لم يطلب من صاحبيه الوقوف معه على الاطلال كما فعـــل القدماء ، بل طلب منهما التريث ، والتمهل ، حتى يرياه على حقيقته التى ظهرت مخايلها مؤكدة عظم شأنه .

ثم يأخذ أبو الطيب بعد هذا البيت الذى استفتح به قصيدتـــه ـ يأخذ ـ فى التغنى بنفسه ، والغض من شأن حاسديه :

وما نى خساس الناس من صائب استه   وآخر قطن من يديه الجنـــادل

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله   ويجهل علمى أنه بى جاهـــل

ويجهل أنى مالم الارض معسر   وأنى على ظهر السماكين راجـــل

تحقر عندى همتى كل مطلب   ويقصر فى عينى المدى المتطـــاول

ويظل أبو الطيب متغنيا بنفسه ، مجسدا مناقبه ، ومفاخره حتى يختتم قصيدته بقوله :

غثاثة عيشى أن تغث كرامـــتى   وليس بغث أن تغث المآكـــل

وهكذا تأتى هذه القصيدة كلها فى غرض واحد هو الفخر بنفسه والتغنى بما هلكت هذه النفس من مكارم ، وأمجاد ، وما حازت من بطولة ضمنها لها نضالها المستمر ضد الحياة نفسها . وكذلك كانت قصيدة أبى الطيـــب " الميمية " التى نظمها فى صباه أيضا ، والتى يتغنى من خلالهـــا

---

(١) ديوان لابى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج٣ ص ١٧٤ وما بعدها .

ببطولته ، وحبه للعزة ، والشرف ، والسؤدد ، فقد جاءت كلها في هذا الغرض وان كان أبو الطيب قد استهلها بالحديث عن شيبه الذى ألم به ، ثم أتبع حديثه عن شيبه بأبيات في الغزل ، ولكن ذلك كله لم يكن الا تأكيدا على صلابته وقوته ، وتجسيدا لعزة نفسه وإبائها يؤكد ذلك قوله عن شيبه :

ضيف ألم برأسى غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللمم (١)

فإحساس أبو الطيب ببطولته ، وفتوته ، وعزة نفسه ونظاله وقدرته على هذا النضال جعله يرى أن الشيب لم " يحتشم " حين ألم بمواحد مثله مما يؤكد أنه لم يستهل قصيدته بالحديث عن شيبه الا ليتخذ من ذلك توطئه للحديث عن نفسه ، والتغنى بها ، الذى يجسده قوله " .

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى

وما أظن بنات الدهر تتركنى حتى تسد عليها طرقها همى

ويظل أبو الطيب يتغنى بنفسه حتى يبلغ الغاية فى ذلك حين يناجى نفسه قائلا :

ردى حياض الردى يا نفسى واتركى حياض خوف الردى للشاء والنعم

ان لم أدرك على الارماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ، ج ٤ ، ص ٣٤ ... وما بعدها .

وهذا هو منتهى الاصرار على النضال الذى يحمس أبو الطيب أن بطولته انما تكمن فيه وتتجسد من خلاله ، وهكذا تأتى القصيدة كلها فى غرض واحد ، فلم يسلك فيها المتنبى مسلك القدماء فى بناء قصائدهم بالانتقال من غرض الى غرض ، وما قيل عن هذه النماذج من شعر أبى الطيب الذاتى يمكن أن يقال على شعره الذاتى كله فى كل مراحل حياته وفى جميع بيئاته المختلفة فى بغداد وحلب ومصر وغيرها .

ومثلما سجل أبو الطيب المتنبى أشعاره الذاتية فى قصائد لم ينهج فيها نهج القدماء ، ولم يسلك مسلكهم فى بناء قصائدهم ، فكذلك فعل أبو فراس الحمدانى فى أشعاره الذاتية ، حين سجل أعذب قصائده الذاتية وهو أسير لدى الروم ، فلم ينهج فى بنائها نهج الاقدمين بل كان يعمد مباشرة الى غرضه الاساسى الذى من أجله نظم هذه القصائد ، ونلمح من ذلك أن الشاعر فى محاولة اثبات ذاتيته مشغول بها عن سواها فلا يمهد الا نادرا وهذا التمهيد عادة يكون مدخلا للحديث عن ذاتيته ، كتب أبو فراس من أسرة الى أمه بعد أن ثقلت عليه جراحه ، واستبدت به الامه ، ويئس من الخلاص ومن النجاة ـ كتب الى أمه ـ فلم يقف على طلل ، ولم يناج بقايا ديار ، ولم يصف مرتع صبا بل عمد مباشرة الى تسجيل أحزانه والامه التى أصابته فى أسره ، مدفوعا فى ذلك كله باحساسه بجرح هزيمته بعد أسره :

مصابى جليل والعزاء جميل   وظنى بأن الله سوف يديل (1)

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / سامى الدهان ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ومابعدها .

جراح وأسر واشتياق وغربـــه   أحمل انى بعدها لحمـــول

وظل أبو فراس يدور حول غرضه الاساسى واصفا حاله فى أسره الى أن يقـــول :

فيا حسرتى من لى بخل موافـ   ـق أقول بشجوى تارة ويقـــول ؟

ثم يتحدث الشاعر عن أمه تلك التى خلفها وراءه ، باكية ، متحسرة على ما أصابـــه :

وان وراء الستر أما بكاؤها   على وان طال الزمان الطويـل

ثم يأخذ الشاعر فى خطاب تلك الام البائسة مناشدا اياها أن تتجمل بالصبر وأن يكون لها فى الصالحات من المؤمنات قدوة طيبة وأســـوة حسنه ، وهو فى كل هذا انما يصدر عن نفس آلمها جرح هزيمتها وأسرها فى يد أعدائهـــا :

فيا أمتا لاتعدمى الصبر انــه   الى الخير والنجح القريب رسـول

ويا أمتا لاتحبطى الاجر انــه   على قدر الصبر الجميل جزيـــل

ويا أمتا صبرا فكل ملمـــة   تجلى على علاتها وتـــزول

أمالك فى ذات النطاقين أ   سوة بمكة والحرب العوان تجول ؟

أراد ابنها أخذ الامان فلم   تجب وتعلم علما أنه لقتيـــل

تأسى كفاك الله ما تحذرينه   فقد غال هذا الناس قبلك غـــول

وكونى كما كانت بأحد صفيــه   ولم يشف منها بالبكاء غليـــل

ويختتم أبو فراس قصيدته بما بعد امتدادا لغرضه الذى نظمهـــا من أجلـــه :

ومن لم يوق الله فهو ممـــزق ومن لم يعز الله فهو ذليـــل

ومن لم يرده الله فى الامر كلـ ـه فليس لمخلوق اليه سبيـــل

وهكذا تأتى هذه القصيدة كلها من بدايتها الى نهايتها ـ فى غـرض واحد ، فلم يكن أبو فراس فيها مقتفيا أثر الجاهليين فى بناء قصائدهـم اذ لم تتعدد فيها أغراض الشاعر ، ولم يخرج من غرض ليدخل الى غرض ولكنه بدأها وختمها بغرضه الاساسى الذى من أجله نظمها .

ومن قصائد أبى فراس التى كتب بها الى أمه ودارت ـ كذلـك ـ حول غرض واحد واستهلها أبو فراس بغرضه مباشرة دون تمهيد أو افتتـاح قصيدته التى يبدأها بقولـه :

لولا العجـوز بمنـــبج ما خفت أسباب المنيـــة

ولكان لى عما سألـــ ـت من الفدا نفسى أبيـــه

لكن أردت مرادهـــا ولو انجذبت الى الدنيـــه

وأرى محـاماتى عليـــ ـها أن تضام من الحميـــه

ويصف أبو فراس بؤس أمه ، وحزنها الشديد عليه ، ثم يعمد الى تلك الام الجزعة فيوصيها بالصبر ، وعدم اليـأس :

يا أمتا لا تيأســـى لله ألطـاف خفيـــة

كم حادث عنا جـــلا ه وكم كفانا من بليـــه

أوصيك بالصبر الجميـــل فانه خير الوصيـــه [1]

وهكذا أيضا تأتى هذه القصيدة كلها فى غرض واحد هو بيان مابلغته الحال بالشاعر من سوء فى أسره ذاك ، وكذلك بيان ما أصاب أمه من جراء ذلك الاسر ٠

وقصائد أبى فراس التى كتب بها الى سيف الدولة من أسره كقصائده التى كتب بها الى أمه ، تدور كلها حول غرض واحد ، ونجد حزنا لا يصدر الا عن نفس متألمة متحسرة ، لانها ذلت بعد عز ، وانكسرت بعد طول انتصار ٠

واذا كان أبو فراس قد بدأ بعض قصائده لابن عمه بالفخر بنفسه بطلا شجاعا ،كميا ، فما ذلك الا تجسيد لبطولة انتصاراته التى ظل يستشعرها حتى بعد أن وقع أسيرا فى أيدى الروم اذ لم يغض ذلك الاسار من هذه البطولة ، وان ترك أثرا من حزن وأسى فى نفس أبى فراس ، لان الذى يستشعر بطولة النصر يحس أكثر من غيره بما للهزيمة من ألم قاس مرير

أما لجميل عندكن ثـــواب؟ ولا لمسيء عندكن متـــاب ؟

لقد ضل من تحوى هواه خريده وقد ذل من تقضى عليه كعـــاب

ولكننى ـ والحمد لله ـ حازم أعز اذا ذلت لهن رقـــاب

---

(1) أبو فراس الحمدانى تحقيق ابراهيم السمرائى ص ١٨٢ وما بعدها ٠

ولا تملك الحسناء قلبي كلــه   وإن شملتها رقة وشبـــاب

وأجري ولا أعطي الهوى فضل مقودي وأهفو ولا يخفى على صــواب (١)

وأبو فراس ـ كما قلت من قبل ـ في محاولة اثبات ذاته مشغول بهـا عن سواها ،ففي معظم قصائده لا يلجأ الى التمهيد الا نادرا ، واذا .. حدث ولجأ الى هذا التمهيد فلا يكون التمهيد عنده الا مدخـــلا للحديث عن ذاتيته أيضا ، وذاتية أبي فراس ـ كما رأينا ـ يتنازعهـا دائما احساسان متضادان ، احساسه ببطولة النصر ، واحساسه بجـرح الهزيمة ، لذا فهو في جميع قصائده التي نظمها بعد أسره يجسـد هذين الاحساسين لارتباطهما في نفسه ارتباطا وثيقا ، فيستهـل قصائده هذه معبرا عن هذين الاحساسين ، ويدور في كل قصائـده حولهما ، من هذه القصائد التي تؤيد هذا الرأي ، وتؤكده قولـه لسيف الدولة :

دعوتك للجفن القريح المسهد   لدي وللنوم القليل المشـــرد

وماذاك بخلا بالحياة وانهـا   لاول مبذول لاول مجتــدي

وما الاسر مما ضقت ذرعا بحمله   وما الخطب مما أن أقول له قد

وما زال عني أن شخصا معرضا   لنبل العدى ان لم يصب فكأن قد

ولست أبالي ان ظفرت بمطلب   يكون رخيصا أم يوسم مـــزود

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / الدهان جـ٢ ، ص ٢٢ .. وما بعدها .

ولكننى أختار موت بنى أبـــى ... على صهوات الخيل غير موسـد
وتأبى وأبى أن أموت موســدا ... بأيدى النصارى موت أكمد أكبد (1)

فهذه البداية لتلك القصيدة لا يستغلها أبو فراس الا فى التعبير عـن احساساته ومشاعره ، هذه الاحساسات التى تكمن ـ كما قلت ـ فـــى احساسين اثنين هما احساسه ببطولته النصر التى يجسدها بذله لنفســه فى سبيل الشرف والمجد ، وعدم ضيقة بما فيه من أسر واستهانته بالخطوب وايمانه بالقضاء والقدر ، وقناعته بما قسم الله له ، وكذلك احساسه بجــرح الهزيمة الذى يجسده جفنه القريح ، ونومه القليل ، وخوفه من أن يموت فيوسد بأيدى هؤلاء النصارى من أعدائه ، وأعداء الاسلام " .

واذا كان أبو فراس قد ألتزم فى بناء قصائده الذاتية التى نظمها فى أسره ، نهجا خالف فيه ما تعارفه الجاهليون فى بناء قصائدهم ، واقترب فيه من نهج السابقين عليه من شعراء القرن الثانى والثالث الهجـــرى حين نظم قصائده تلك فى غرض واحد ، لم يتعده الى غيره ، فــــان قصائده الذاتية التى نظمها قبل أسره ، قد ألتزم فى بنائها هـــذا النهج أيضا اذ جاءت كلها فى الفخر بنفسه ، وقومه ، وفى التغنى بمآثره ومآثرهم وتجسيد بطولته الذاتية التى يستشعرها فى انتصاراته العديدة والمتلاحقة ، ولعل أطول قصيدة جاءت فى الفخر فى الشعر العربـــى كله كانت قصيدته الرائية " وان استهلها بالغزل فى قوله " .

---

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، جـ ٢ ، ص ٢٢ وما بعدها .

لعل خيال العامرية زائـــر   فيسعد مهجور ويسعد هاجـر (٢) .

فلم يكن ذلك الغزل مقصودا لذاته ، بقدر ما كان توطئه لتجسيد عفـة الشاعر ، وطهارته ونقائه ، وكأنه بداية للفخر وليس غزالا ، يؤكد ذلـك قول أبى فراس بعد الاستفتاحية الغزليـة :

فيا نفس مالاقيت من لاعج الهوى   ويا قلب ما جرت عليك النواظـر (١)

ويا عفتى مالى ؟ ومالك ؟ كلمـا   هممت بأمر هم لى منك زاجـرا

كأن الحجا والصون والعقل والتـ   قى لدى لربات الخدور ضرائـر

مما يؤكد أن غزله فى بداية هذه القصيدة ، كان غزلا موظفا لخدمـة الغرض الذى من أجله أنشأ أبو فراس هذه القصيدة ، وتطول أبيـــات القصيدة اذ يبلغ عدد أبياتها مائتين وخمسة وعشرين بيتا ، ولا يخــرج فيها أبو فراس عن غرضه الذى نظمها من أجله ، وهو الفخر بنفسه وقومـه وتعداد مآثر آبائه ، وأجداده ، وأعمامه ، وذكر أسماء أكثرهم والتغـنى بمفاخرهم وتجسيد فضائلهم ، ومكارمهم ، ثم يصل الى ختامها فـــلا يختمها الا بذلك الغرض نفسه ، بالفخر والتغنى بالامجاد ، والمآثـــر والمكارم والفضائل .

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى   وما أنا مداح ولا أنا شاعـــر

وهـكذا جاءت جميع قصائد أبى فراس الذاتية حول غرض واحـــــد

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ وما بعدهـــا .

لايتعداه الشاعر من خلالها الى غيره ، مما يؤكد أن أبا فراس قد التزم فى بناء قصائده الذاتية نهجا يغاير ما تعارفه عليه الجاهلون فى بناء قصائدهم ، تستوى فى ذلك أشعاره فى أسره وأشعاره قبل ذلك الاسر وما سقته فى هذا الفصل يعد نماذج لأشعاره الذاتية اذ لايتسع المجال للاستشهاد بجميع قصائده الذاتية ، للتدليل على منهجه ذاك الذى نهجه فى بنائها ، والذى تأثر فيه بنماذج التجديد التى جاء بها شعراء القرن الثانى الهجرى الذين سبقوه بقرنين من الزمان ثم من تلاهم من شعراء القرن الثالث ، ومثلما التزم أبو الطيب المتنبى وأبو فراس الحمدانى فى بناء قصائدهما الذاتية نهجا ، خالفا فيه نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم وسارا فيه على خطا المجددين فى بناء القصيدة من شعراء القرن الثانى الهجرى من استلال بدايات قصائدهم فى التعبير عن خوالج صدورهم وما ينزعون اليه فقد التزم كذلك الشريف الرضى ذلك النهج نفسه ، فجاءت معظم أشعاره الذاتية فى غرض واحد لاتتعداه الى غيره ، وان كان فى القليل النادر منها ، يستهلها بالغزل ولكنه أيضا الغزل الذى لايقصد لذاته ، وانما الذى يتخذ توطئة للدخول الى غرضه الذى من أجل نظم القصيدة ، وغالبا ما يكون ذلك الغرض هو الفخر ، والتغنى بنسبه الشريف ، وحسبه المنيف ، وتجسيد مكارمه ، ومآثره ، ومكارم قومه من آل البيت ومآثرهم ، بدافع من احساسه ببطولته الذاتية ، بطولة الانتماء الى آل البيت .

من قصائد الشريف الرضى الذاتية قصيدته " البائية " التى نظمها فى مدح أبيه ، والفخر بنفسه وبذلك الاب ، والتى يستهلها بالفخر

مباشرة دون توطئة أو تمهيد :

لغام المطايا من رضا بك أعذب ... ونبت الغيافى منك أشهى وأطيب

ومالى عند البيض ياقلب حاجة ... وعند القنا والخيل والليل مطلب

أحب خليلى الصفيين صارم ... وأطيب دارى الخباء المطنب[1]

ويظل الشريف الرضى يفخر بنفسه ويتغنى بها وتطول هذه الابيات التى لايخرج فيها عن الفخر حتى يختتمها بقوله :

فما أنا بالوانى اذا كنت صاريا ... ولا الماء يعطينى قوى يوم أشرب

وما الورد بعد الورد بلا لغلتى ... وان بل ظمأ الداعريات مشرب

ثم يدخل بعد هذين البيتين مباشرة الى مدح ابيه ذلك المدح الذى يعد فى الوقت نفسه فخرا ، فالممدوح أبوه ، وتجسيد مفاخر الممدوح ، ومناقبه ، تجسيد لمفاخر الشاعر نفسه ، أو ليس الممدوح أباه الذى يشعر ببطولة الانتماء اليه :

وما لى الى غير الحسين وسيلة ... وفى جوده دون الرغائب أرغب

جرىء على الامر الذى لا يرومه ... من القوم الا حازم الرأى أغلب

ويظل الشريف الرضى مطيلا فى مدحه لابيه ، وفخره بنفسه ، وبذلك الاب حتى تنتهى قصيدته دون أن يخرج فيها عن الغرض الذى أنشأها

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ص ٧٩ ، وما بعدها .

من أجله ، والتى اسغل بدايتها فى التعبير عن احساسه ببطولتـــه الذاتية ، ببطولة الانتماء الى قوم لا تجذبهم متع الحياة بقدر مايتطلعون الى المعالى ، وتكثر مدائح الشريف الرضى لابيه ،وتكثر قصائده فـــى الفخر بنفسه ، وبآله ، ويظل فى كل هذه القصائد الذاتية ملتزما ذلـك النهج الذى يتفق فيه مع شعراء عصره ، ويخالف فيه نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم •

للشريف الرضى " بائيه " أخرى فى مدح أبيه ، والفخر بنفســـه يستهلها هى الاخرى بالدخول مباشرة الى غرضه ، فيأخذ ــ من أول بيت فيها ــ فى الفخر بنفســه :

مثواى اما صهوه أو غـــارب ومناى اما ازعف أو قاضـــب

فى كل يوم تنتضينى عزمــه وتمد أعناق الرجاء مـــآرب

قلب يصادقنى الطلاب جراءة ومن القلوب مصادق ومــوارب

ما مذهبى الا التقحم بالقنا بين الضلوع وللرجال مذاهــب (1)

وتطول هذه الابيات التى يجسد فيها الشريف الرضى بطولته الذاتية ويتغنى من خلالها بهذه البطولة ، وبأمجاده ومفاخره ، ولا يخــــرج الشاعر عن ذلك الغرض حتى يختتم هذه الابيات بقوله :

البيد يا أيدى المطى فاننى للضيم ان أسرى الى مجانـــب

---

(1) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٨٤ وما بعدها •

ومجاهل الفلوات أطيب منزل   عندي وأوفى الواعدين نجائب

ثم يدخل الشريف الرضي بعد ذلك الى مدح أبيه ، الذي يعد امتداد لتغنيه ببطولته الذاتية بطولة الانتماء الى قوم شرفاء منهم ذلك الاب .... الشريف :

وإذا بلغن بي الحسين فانه   حق لهن على المطايا واجب
في بلده فيها العيون حوافل   والروض غضن والرياح لواعب
عجب من الايام رؤية مثله   نجم العلى اذ كل نجم غارب
أورد ته أطراف كل فضيلة   شيم تساندها على ومناقب
وله اذا خبثت أصول عداته   في تربة العلياء غرق ضارب

ويطول مدح الشريف الرضي لابيه ، والتغني بمآثر ذلك الاب وأمجاده التي هي في الوقت نفسه أمجاد للشاعر ، وتطول أبيات هذه القصيدة ولا يخرج الشريف الرضي فيها عن غرضه ذاك الذي نظمها من أجله .

ويمدح الشريف الرضي أباه " ببائية ثالثة " فيستهلها كما استهل سابقتيها - يستهلها - بالفخر بنفسه عفيفا ، نقيا ، قد ودع أيام لهوه وعبثه ، وصحا من سكرة ، وشبابه وهواه :

أرابك من مشيبي ما أرابا   وما هذا البياض على عابا
لئن أبغضت مني شيب رأسي   فاني مبغض منك الشبابا
يذم البيض من جزع مشيبي   ودل البيض أول ما أشابا

وكانت سكرة فصحوت منهـــا   وأنجب من أبى ذاك الشرابـــا
يميل بى الهوى طربا وأبـــاى   ويجذبنى الصبا غزلا فأبـــى
ويمنعنى العفاف كأن بيـــنى   وبين مآربى منه هضابـــا (١)

ويأخذ الشريف الرضى بعد فخره بنفسه بالفخر بقومه ، وآله وذويـه فهم أولئك الذين يحس الشريف الرضى ببطولة الانتماء اليهم .

وغلب كالقواضب من قريـــش   يروون القواضب والكعابـــا
فما ولد الاجارب من تميـــم   نظيرهم ولا الشعر الرقابـــا
وان المجد قد علمت معـــد   ود ار العز والنسب القرابـــا
لاطوليهم اذا ركبوا رماحـــا   وأعلاهم اذا نزلوا ، قبابـــا
وأغزرهم اذا سئلوا عطـــاء   وأوحاهم اذا غضبوا ضرابـــا
بنو عم النبى وأقربـــوه   وألصقهم به عرقا لبابـــا

ثم يأخذ فى مدح أبيه ، ذلك المدح الذى يعد هو الاخر فخرا ، وتغنيا بمفاخر ذلك الاب ، وأمجاده ، وتطول للابيات القصيدة تبلـغ واحدا وستين بيتا لايخرج الشريف الرضى خلالها عن الفخر الى غرض آخر

ويلتزم الشريف الرضى ذلك النهج فى بناء قصائده الذاتية ، فله الى جانب ما سبق قصيدة ، " فائية " نظمها فى الفخر ، والتغنى بمآثـره

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ص ٩٣ ، ومابعدها .

ومكارمه، يستهلها بالدخول مباشرة الى غرضه حين يخاطب نفسه ناصحا اياها بالصبر وحسن التجلد ، وكان قد ضاق صدره بأمر النقابة وما يتكلفه من التشدد في اقامة الهيبة فيها . :

ردى مر الورود ولا تعافـــى   فما ينأى بيومك أن تخافـــى
فطورا تعرضين علـــى زلال   وطورا تعرضين على ذعـــاف
ومن يشرب بصاف غير رنـــق   يرد يوما برنق غير صــــاف (1)

ولا يخرج الشريف عن الفخر الى غرض آخر ، ففي الفخر نظم هـــذه القصيدة ولم يشغله فيها سوى التغني بنفسه ، وتجسيد عزة هذه النفس وابائها ، وشممها :

ويستهل الشريف الرضى قصيدة أخرى في الفخر ببكاء الديار :

لمن دمن بذى سلم وضـــال   بلين ، وكيف بالدمن البوالـى ؟
وقفت بهن لا أصغى لـــداع   ولا أرجو جوابا عن ســــؤالى
أيا دار الالى درجت عليهـــا   حوايا المزن والحجج الخوالـــى
فأى حيا بأرضك للغـــوادى ؟   وأى بلى بربعك لليالـــــى ؟ (2)

ولكن نظرة متأنية لهذه القصيدة تظهر أن الشريف الرضى ــ في هــذه

(1) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثانى ، ج ١٥ ، وما بعدها .
(2) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثانى ، ص ١٧٤ وما بعدها .

الابيات ـ لا يبكى ديارا حقيقية ، وانما يتخذ هذه الديار رمزا لاخلاق قد تبدلت وتغيرت ، ولعهود قد درست وبليت وضاعت ، فهو يبكى تبدل أخلاق قومه ، وتغير أحوالهم معه ، حين لقى منهم مالقى من عقوق ونكران يؤكد ذلك قوله بعد هذه الاستفتاحية :

وانى لا أوامق ثم انسى   اذا وامقت يوما لا أقالى

ثم يأخذ بعد هذا البيت مباشرة فى الفخر بنفسه والتغنى بقومه :

أنا ابن الفرع من أعلى " نزار "   ومن يزن الاسافل بالاعالى
نمانى كل متعض أبى   جرى طلق الجموح الى المعالى
من القوم الالى ملكو رقاب الـ   أواخر واختلفوا قمم الاوالى

ويظل الشريف الرضى متغنيا بنفسه ، ثم يدخل الى عتاب أبناء عمومته على عقوقهم اياه وكيدهم له ولكنه لم يخلص من فخره بنفسه فقد جاء عتابه هذا مختلطا بذلك الفخر ، أو جاء موظفا لخدمة ذلك الغرض الذى يجسد الشريف من خلاله بطولته الذاتية :

بنى عمى وعز على يمينى   من الضراء ما لقيت شمالى
أعود على عقوقكم بحلمى   اذا خطر العقوق لكم ببال
أرونى من يقوم لكم مقامى   أرونى من يقول لكم مقالى
ومن يحمى الحريم من الاعادى   ومن يشفى من الداء العضال

وهكذا يخلط الشريف الرضى عتابه لابناء عمومته بفخره بنفسه وتغنيه بها

وبذلك تأتى هذه القصيدة كلها فى الفخر ، والتغنى بالمكارم والمفاخر وان بدت للوهلة الاولى أنها متعددة الاغراض اذا استهلت ببكاء الديار ثم بالفخر ، ثم بالعتاب ، ثم بالعوده الى الفخر من جديد ، ولكن فى حقيقة الامر — لم تكن القصيدة الا فى الفخر الذى يظهر فى كل بيت من أبياتها اذا ما دقق النظر فيها ، وأحسن التأمل لها .

وهكذا دارت قصائد الشريف الرضى الذاتية حول غرض واحد لم يتعداه الشاعر الى غيره ، والتزم فيها الشاعر نهج شعراء القرن الرابع من أمثال أبى الطيب المتنبى ، وأبى فراس الحمدانى ، وغيرهم وما سقته من أشعاره فى هذا الفصل جاء على سبيل المثال لا على سبيل الحصر فمن العسير أن نستشهد بكل أشعاره الذاتية فى هذا المقام .

واذا كان أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ، قد سجلوا أشعارهم الذاتية التى تغنى من خلالها — كل منهم ببطولته أيا كان منحى هذه البطوله عند كل منهم — اذا كانوا قد سجلوا هذه الاشعار الذاتية فى قصائده نهجوا فيها نهجا خالفوا فيه نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم ، واسترشدوا فيه بما سنه المجددون من شعراء القرن الثانى الهجرى فلم تتعدد الاغراض عندهم ، بل جاءت قصائدهم الذاتية هذه فى غرض واحد لم يخرج كل منهم فى أشعاره عن هذا الغرض الى غيره ، فان شعراء المجون والانحلال الخلقى فى القرن الرابع قد التزموا هذا النهج نفسه فى بناء قصائدهم الذاتية التى تغنوا من خلالها بملذاتهم ، ولهوهم ، مجسدين قذرهم ، ومجونهم وعبثهم ، وسكرهم ، فقصائد ابن الحجاج ، وابن سكره الهاشمى دارت

كلها حول ما يصدم النفس الانسانية لما تحويه هذه الاشعار من قـــذر ومجون ، اذ دارت قصائد هذين الشاعرين حول هذا الغرض وحـــده استهلت به ، وختمت به ، وكذلك جاءت قصائد الواسانى والواواء حـــول غرض واحد جسد عبثهما ولهوهما ، وكذلك كان الخالديان فى بنـــاء قصائدهما يلتزمان هذا النهج نفسه اذ دارت كل قصائدهما حول المتعة بأشكالها المختلفة وألوانها المتباينة من خمر ، وسكر ، وغشيان للاديرة واستمتاع بملذات الحياة لا يأبهان بحلالها أو حرامها ، وكل أشعـــار الخالديين دارت حول غرض واحد هو تجسيد فتنتهما بالمتعة ــ كما قلت ــ فلم يخرجا فى قصائدهما عن هذا الغرض الى غيره .

من النماذج الشعرية لابن الحجاج ، التى جسد تصدمة التقـــزز فى أشعاره والتى التزم فيها نهج معاصريه فى بناء القصيدة ، حـــين جعلوها فى غرض واحد لاتتعداه الى غيره ، وحين عمدوا فيها ومن أولهـــا الى التعبير عن احساساتهم ومشاعرهم ونوازع نفوسهم ، قصيدته التى عمل من خلالها دعوة كبيرة فى أيام عز الدولة ، ودعا اليها أقواما شــــتى من رجال الدولة ، واستهلها بالدخول مباشرة الى غرضه ،حيث يقول :

قل للامـــير المرتجـــى	من جائنى فقد نجـــــا
ومن أبى قذفتـــــــه	فى عصعصى قد لججـــا
يسبح فى بحر خـــــرا	اذا جـرى تموجـــــــا (١)

(١) القصيدة فى يتيمة الدهر للثعالبى ، جـ ٣ ، ص ٤٩ : ٥٠ .

وهكذا ومن أول القصيدة يصدم القارئ وتتقزز نفسه بتلك الالفاظ المؤذية ، التى تجسد قذارة ابن الحجاج ، وسخفه ، والتى يستمر فى استخدامها حتى نهاية القصيدة مما يؤكد أن القصيدة عند شعراء القرن الرابع لم تكن فى بنائها تقليدا أعمى لنظام وضعت أسسه منذ مئات السنين ، بقدر ما كانت قصيدة التعبير عن الذات فى القرن الرابع - فى بنائها - تعبيرا عما يحس الشعراء ، وتجسيدا لنوازع نفوسهم المختلفة والمتباينة .

ومن القصائد التى يستهلها ابن الحجاج بالدخول المباشر الى غرضه ويدور من خلالها حول هذا الغرض لايتعداه الى غيره ، قصيدته التى يصور فيها لقاء كان له مع امرأة ، ويصرح من خلالها بتلك الافعال المخلة بالاداب ، ومن بداية القصيدة :

جميع مالى صدقة	لاكسون فستقه
قبس كم تهذيبها	سندية مطلقه
لابد للسندان أن	يصبر تحت المطرقه
وفيشتى لابد أن	أسبكها فى البوتقه (١)

والنماذج كثيرة وعديدة ، فى شعر ابن الحجاج كلها تؤكد التزامه نهج المعاصرين له فى بناء قصائدهم .

وما يقال عن ابن الحجاج يمكن أن يقال كذلك عن جميع شعراء

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ، ج ٣ ، ص ٥٨ .

المجون ، والانحلال الخلقى ، أيا كانت مناحى الانحلال الخلقى فى أشعارهم ، وان كانوا جميعا يؤثرون المقطعات على القصائد الطويلة لملاءمتها لاغراضهم أكثر من القصائد الطويلة ، وسوف نتكلم عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا لنظام المقطعات فى شعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع .

فقصيدة الواسانى فى " ابن أبى أسامه " وعلى الرغم من طولها اذ بلغت ثلاثين بيتا يلتزم فيها الشاعر ذلك النهج نفسه فى بنائها - اذ أنه يدور فيها حول غرض واحد هو تناول عرض واحد من الناس بالهجاء المقذع الذى يعد جانبا من جوانب العبث فى شعر الواسانى والقصيدة شأنها شأن كل شعر ذاتى فى القرن الرابع تجسد نوازع النفس عند الواسانى الذى اتسمت شخصيته بالعبث واللهو .(١)

ذلك وكذلك التزم الخالديان بأن ذلك النهج نفسه فى بناء قصائدهما الذاتية التى جسدت اقتناعهما بالمتعة فى أى شكل من أشكالها وقصائدهما فى الاديرة تؤكد ذلك اذ أن كلا منهما يستهل هذه القصائد بذكره الايدرة من أول بيت فيها ويظل طوال القصيدة لا يدور الا حول هذا الغرض نفسه ، يقول الخالدى الاكبر أبو بكر مستهلا أحدى قصائدن تلك :

محاسن الدير تسبيحى ومسباحى وخمرة فى الدجى صبحى ومصباحى

أقمت فيه الى أن صار هيكله بيتى ومفتاحه للانس مفتاحى(٢)

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ، ج ١ ، من ص ٤٠٨ : ٤١٠ .
(٢) ديوان الخالدين ، من ص ٣٧ : ٤٠ .

يقول الخالدى الاصغر أبو عثمان مستهلا قصيدة له فى " دير سعيد ":

ياحسن دير سعيد اذ خلت به والارض والروض فى وشى وديباج
فما ترى غصنا الا وزهرته تجلوه فى جبه منها ودواج (١)

ومهيار الديلمى كذلك قد ألتزم ذلك النهج نفسه فى بناء معظم قصائده الذاتية ، التى تجسدت من خلالها شعوبيته ، وتشيعه ، فقد دارت قصائده فى الشعوبية حول التغنى بعز " فارس " وقديم مجدها وحرص من خلال هذه القصائد على تعداد مفاخر قومه من الفرس ومناقبهم فجاءت هذه القصائد حول هذا الغرض وحده .

وجاءت كذلك معظم قصائده فى التشيع ، اذ سار فيها على نمط قصائده فى الشعوبية من حيث بناؤها فدارت كلها حول غرض واحد هو التشيع لال البيت ، والدفاع عنهم ، وتجسيد ظلم الخلفاء ، وبنى أمية لهم ، بصرف النظر عن صدق مهيار أو عدم صدقه فى هذا التشيع فمهيار فى قصيدته " الميمية " التى تجسد شعوبيته ـ الى حد بعيد ـ يستهلها بالفخر بنفسه على أنه فارسى الاصل ، ابن للاعاجم ، من أيكة غرستها " فارس " ثم يأخذ بعد ذلك فى التغنى ببنى ساسان وغيرهم من ملوك فارس وأكاسرتها ، يستهل مهيار قصيدته بقوله :

أتعلمين يا بنه الاعاجم كم لاخيك فى الهوى من لائم ؟
يهب بلحاه بوجه طلق ينطق عن قلب جسود راغم

(١) ديوان الخالدين ، ص ١١٥ : ١١٦ .

وهو مع المجد على سبيلـــه ماض مضاء المشرفي الأصــارم

ممتثلا ما سنه آبـــاؤه ان الشبول شبه الضراغـــم (1)

ثم يأخذ مهيار بعد ذلك في التغني "بفارس" وملوكها ، مجسدا مجدها ، وعزها ، وسوددها ، وشرفها :

من أيكة غرستها "فـارس" الا ن غمزا فرعها لعاجـــم

لمن على الارض وكانت غيضة أبنية لا تبتغى لهـــادم ؟

من فرس الباطل بالحق ومن أرغم للمظلوم أنف الظالـــم ؟

الا "بنو ساسان" أوجد دهـم طر بخوا فيهم وبالقـــوادم

ثم يخلط مهيار في هذه القصيدة بين شعوبيته ، وتشيعه ، فيأخذ في ذم العرب أولئك الذين نقضوا عهود نبيهم فظلموا أهل بيته بعـد وفاته .

وان نظرة متأنية الى هذه القصيدة تظهر أن شعوبية مهيار وتشيعه لم يكونا سوى وجهيين لعملة واحده هي عقدته النفسية التي تكلمنا عنهـا فيما مضى ، وأن ذلك الذي أقحمه مهيار خلال تغنيه بالفرس وأمجادهم لم يكن الا امتدادا لذلك التغنى بأمجاد الفرس ، ومفاخرهم ، اذ أن مهيار يريد بذلك أن يقارن بين العنصر العربى ، والعنصر الفارسـي في المحافظة على العهود ، والوفاء بها ، ليظهر مدى خداع العـرب

---

(1) ديوان مهيار الديلمى ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

وخيانتهم في الوقت الذي يظهر فيه قومه محافظين على عهود هم أوفياء بها ، لا يخدعون ، ولا يخونون ، ويتجلى ذلك في قول مهيار بعد تعرضه بالعرب " .

" والفرس " لما علقوا بدينــه لم تنل العزوة كف فاصـــم
فمن اذا أجدر أن يملكهـا موقوفة على النعيم الدائـــم

وهكذا يظهر أن هذه القصيدة لم تكن الا في غرض واحد هو تمجيد الفرس والفخر بهم ، والتغني بأمجادهم ، وتجسيد مناقبهم ومفاخرهم حتى وان بدا للنظرة العجلى أنها جاءت في أكثر من غرض .

كذلك جاءت قصيدة مهيار " البائية " التي يفخر فيها بنفسه ، فارسي الاصل مسلم الديانة ، والتي يقول في مستهلها :

أعجبت بي بين نادي قومهـا أم سعد فمضت تسأل بـي
سرها ما علمت من خلقـي فأرادت علمها ما حسبـي
لا تخالي نسبا يخفضنـي أنا من يرضيك عند النسب

ثم يأخذ مهيار في التغني بقومه وما حازوا ، وبأبيه " كسرى " وما ملك ، ويختتمها بالفخر نفسه ، مدفوعا بعقدته النفسية التي جسدتها معظم أشعار مهيار :

قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبي

وضعمت الفخر من أطرافـــــه سوَّد الفرس وبين العـــرب [1]

وهكذا يلتزم مهيار فى هذه القصيدة ذلك النهج الذى سار عليه مـــن جددوا فى نظام بناء القصيدة ، منذ القرن الثانى الهجرى ، وثاروا علـــى نظامها القديم وتعدد الاغراض فيها ، وكذلك تأتى قصيدة مهيار الذاتيـــة " الفوتية " التى نظمها فى ذم الزمان وشكا فيها فقد قومه ، وبكى مـــن خلا لها ملك فارس الضائع ، وتغنى فيها بمجد الفرس القديم ـ تأتى هذه القصيدة كذلك ـ فى غرض واحد ، لا يتعداه مهيار الى غيره ، يستهلها مهيار بهذا الغرض ، ويختتمها به كذلك ، يقول مهيار فى مستهل هـــذه القصيدة :

ان تسأليني بعد قـــو مى كيف أوجدنى الزمـــــان

وبقيت من بعد الجمـــا ح ومقودى سلس ليـــــــان

فردا يزعزعنى الاســـى ويشل جانبى الهـــــوان [2]

ثم يأخذ مهيار فى ذم الزمن وشكوى الدهر ، وتجسيد مفاخر قومـــه ومناقبهم ، وتطول هذه القصيدة ولا يخرج مهيار فيها عن الغرض الـــذى بدأها به والذى نظمها من أجله حتى يصل الى ختامها فيختتمها بالغرض نفســـه :

---

(١) ديوان مهيار الديلمى ، ج ١ ، ص ٦٤ ٠

(٢) ديوان مهيار الديلمى ، ج ٤ ، ص ٤١ وما بعدها ٠

أن تذكرى قومى فعنـــــــد ك من بقيتهم بيـــــان
وسلى النجابة كيف كنـــــت لتعلمى بى كيف كانـوا

وجملة " كيف كانوا " التى يختتم بها مهيار قصيدته توضح أنه لم يكن فى مجال فخر بقدر ما كان فى مجال أسى ، ومقام حسرة على عز ضاع ،ومجد درس ، مما يؤكد أن القصيدة كلها قد جاءت فى الشكوى ، وذم الزمان وأن مهيارا لم يخرج عن ذلك الغرض حتى وإن بدا فيها بعض الفخر ، فلم يكن ذلك الفخر الا تأكيدا للحسرة ، والالم على فقد من كانوا أصحاب عز ، وأرباب مجد وسلطان ، مما يؤكد عقدة نفسه التى سببها له ضياع هيبة الفرس بعد ضياع ملكهم •

وبذلك يظهر أن مهيارا قد التزم نهج معاصرية ، وغيرهم من شعراء القرن الرابع فى بناء قصائدهم الذاتية حين جاءت فى غرض واحد ، لم يتعداه هؤلاء الشعراء الى غيره •

الا أن هناك أشعارا ذاتية لمهيار تضمنتها مدائحه بوجه خاص تلك المدائح التى نظمها فى بنى جنسه من الفرس ، ولم ينهج مهيار فى مدائحه خاصة ذلك النهج الذى سار عليه المجددون من شعراء القرن الثانى ، وكذلك معاصروه وغيرهم من شعراء القرن الرابع ، بل راح فى مدائحه ينهج نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم ــ الى حد ما ــ على الرغم من أن ذلك مخالف لرأى المجددين الذين كانوا فى معظمهم من المولدين الفرس كأبى نواس وغيره ممن ثاروا على النهج القديم فى بناء القصيدة ــ كما أوضحت فى بداية هذا الفصل ــ مما جعلنا نتوقف أمام هذه

النماذج من مدائح مهيار للفرس التى يستهل معظمها ذلك الاستهلال القديم ، وهو الفارسى الذى لا تربطه بمعالم الحياة العربية عاطفة مما يثير شكوكنا فى التزام مهيار لذلك النهج فى قصائده فى المديح ، اذ يتضح من بعض بكائياته للديار فى بدايات قصائده أنه يسخر ممن سنوا هذه السنة ، اذ يحس القارئ فى هذه الافتتاحيات روحا ساخرة يتكشف معها أن مهيار لم يكن صادقا فى افتتاحيات بعض قصائده فى المديح .

فهو يستهل معظم هذه المدائح بالوقوف على الديار ، أو بالغزل أو بوصف الاظعان ، ثم يخلص من هذه المقدمات الى الفخر بنفسه وقومه والتغنى بأمجاده ، وأمجاد قومه ، ثم يأخذ بعد ذلك فى مديح ممدوحيه أو أن يسبق — أحيانا مديحه لممدوحيه — فخره بنفسه ، وبقومه .

وفى رأيى — كما قلت — أن التزام مهيار لذلك النهج فى مدائحه ، لم يكن الا سخرية من ذلك كان عليه الاقدمون من شعراء العرب ، حين كانوا يمدحون فيستهلون مدائحهم بالوقوف على الاطلال ، ومناجاتها ثم ينتقلون من ذلك الى وصف الناقة ، وصلابتها ، والرحلة ومشقاتها والطريق وأهوالها ، الى أن يصلوا الى المديح وقد أقنعوا الممدوح بما لاقوا فى سبيل الوصول اليه ، فيكون ذلك حقا له على العطاء ، وسخرية مهيار هذه تؤكد عقدة نفسه ، تلك التى عاش حياته ، يعانى منها ، والتى تحدثت عنها فى الباب السابق من هذا البحث ، لان القدماء اذا كانوا يقفون بالديار ، ويصفون الناقة ، والرحلة والطريق ، فهم يسجلون حقائق عاشوها ، وفرضتها عليهم ظروف حياتهم ، أما مهيار فأين هو من الاطلال والاظعان ، والرحلة والصحراء وأهوالها .

وبالرجوع الى قصائد مهيار فى المديح التى تضمنت أبياتا ذاتيـــة يتضح التزامه ــ الى حد ما ــ لنهج القدماء فى بناء قصائدهم ، ذلـك الالتزام الذى لم يكن من مهيار سوى سخرية من الجاهليين الذين هـم أجداد للعنصر العربى الذى يبغضه مهيار مما يؤكد هذه السخرية الـتى تظهر جلية فى هذا المطلع من قصيدة يمدح بها أبا سعد بن محمد بـن الصاحب بن عبد الرحـيم :

سلمت وما الديار بسالمـات   على عنت البلى يا دار "هـد" (١)

ويستطرد مهيار ــ على عادة القدماء ــ فى مناجاة ديار هذه المعجميـة ثم يخلص الى مديح ممدوحـه :

فتى عقدت تمائمه فطيمــا   على أكرومه ووفاء عقـد

ويستمر فى مديح ذلك الممدوح ، وآله الذين يجمعهم والشاعر نسب واحد ، ثم يختتم قصيدته بالفخر بآل الممدوح ، وبنفسه :

فضلتم سؤددا وفضلت قـولا   فكل فى مداه بغير نـد

بكم ختم الندى وبى القوافى   بقيتم وحدكم وبقيت وحـدى

هكذا ، فالقصيدة فى حقيقة الامر فى غرض واحد وان استهلها مهيار ذلك الاستهلال الذى لم يكن سوى سخرية واستهزاء ، ولمهيار قصيدة "لاميـة"

---

(١) ديوان مهيار الديلمى جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، وما بعدها .

يمدح بها أبا الوفاء كامل بن مهدى يستهلها بالتشبيب ، وذكر أحبائه الراحلين ، ولكن فى روح ساخره أيضا :

قم غير معتذر ولا متثاقـــل فاقصص معى أثر الخليط الزائـل (١)

ثم يخلص مهيار الى الفخر بنفسه ، والتغنى بنسبه وقومــه :

قومى الطول وخيم نفسى خيمتها أفلح بمثل أواخرى وأوائلـى

ما ضر عيصى فى أرومة " فارس" ألا يكون بخندقة " أو " وائل"

وهكذا يؤكد البيت الثانى الذى يعرض فيه مهيار " بخندق " ووائل " سخرية مهيار التى تمكن فى استهلاله هذه القصيدة بالتشبيب على عادة العرب القدماء فى أشعارهم وله مدحه " رائيه " فى أبى الوفاء هذا أيضا يستهلها مهيار بالحديث عن الظعن - على عادة القدماء - ولكن فــى سخرية من أولئك الذين قهرهم الحب مثلما صرحوا بذلك فى الوقت الذى تغنوا فيه بالشجاعة العربية والاباء والشمم ، وسخرية مهيار تؤكـــد - ولا شك - عقدته النفسية وحقده على العنصر العربى فكأنه بذلك قـــد التزم نهج المجددين حين استغلوا مطالع قصائدهم فى التعبير عـــن احساساتهم ونوازعهم :

لمن الظعن تهتدى وتجــور؟ سائق منجد وشوق يغـــور

تتبع الخطو قاهرا بين أيديهـ ـا ومن خلفها هوى مقهـــور (٢)

(١) ديوان مهيار الديلمى ج ٣ ، ص ١٨٢ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٦ وما بعدها .

ويخلص مهيار من الحديث عن الاظعان الى الحديث عن المحبوبة مؤكدا بذلك سخريته هذه :

حكمت في دمى فتاة من الحى مباح لها الدم المحظور

ويستمر مهيار في غزله – على عادة القدماء – أيضا ، ثم يخلص من ذلك الى المديح ، فيأخذ في مدح أبى الوفاء ، ويطول مديحه له ، ليخلص منه الى الفخر بقومه في أبيات ذاتية تتجسد من خلالها شعوبية مهيار حين يتغنى بملك فارس القديم ، وبمجدها ، وعزها ، وسوددها :

دوحة من ثمارها أنت والمغ … رس منها "بهرام" أو "أردشير"

خير ماتربه على الارض لم يشـ … ـعب على اللوم طينها المفطور

طاب صلصال عيصها وريا … ها ثرى ماجد وماء طهور

قومك الغالبون عزا وهم قو … مى على الارض وهى ماء يمور

وكأن مهيارا بسخريته من العرب في مطلع قصيدته ثم بفخره بقومه بعد ذلك يؤكد أنه انما يلتزم في قصيدته غرضا واحدا لم يتعداه الى غيره فهو يحط من قدر العرب ، ويعلى من قدر قومه من الفرس والغرض في الحالين واحد .

وقصائد مهيار في التشيع تتفق مع قصائده في المديح من حيث بناؤها وذلك أمر طبيعي ، فقصائده في التشيع هي في واقع الامر مديح لأمير المؤمنين "على – كرم الله وجهه – ولآل بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وان كان مهيار قد اتخذ منها مجالا ينتقم من خلاله من

العنصر العربى بحجة أن العرب قد هضموا آل البيت حقهم – فى رأيه بوصفه متشيعا – والحقيقة أنه كان عداء قائما بين مهيار الفارسى وبين ذلك العنصر ، ولقد أوضحت ذلك فى الباب الثالث من هذا البحث ، فمهيار فى قصائده فى التشيع يوهم أنه ينهج نهج الاقدمين فى بناء قصائدهم فيستهلها اما بالوقوف على الديار ، أو بالغزل والنسيب ، أو بالحديث عن رحلة المحبوبة ، ولكنه استهلال موظف لخدمة الغرض الذى يرمى اليه ، مثلما فعل تماما فى مدائحه لبنى جنسه من الفرس والتى مرينا نماذج لها .

يستهل مهيار قصيدته " الفائية " فى مديح " على " وولده " الحسين – رضى الله عنهما – بالغزل ، ولكنه غزل موظف لخدمة غرضه :

يزور عن حسناء زوره خائف ... تعرض طيف آخر الليل طائف

فأشبهها لم تغد مشكا لناشق ... كما عودت ولا زحيقا لراشف

قصية دار قرب النوم شخصها ... وما نعده أهدت سلام مساعف

ألين وتقرى بالاباء كأنما ... تبر بهجرانى أليه حالف

و " بالغور " للناسين عهدى منزل ... حنانيك ومن شات لذيه وصائف

أغالط فيه سائلا لا جهالة ... فأسأل عنه وهو بادى المعارف

ويعزلنى فى الدار صحبى كأننى ... على عرصات الحب أول واقف (1)

(1) ديوان مهيار الديلمى ج ٢ ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

فالابيات تجسد الاباء والهجران وغير ذلك من معان يحاول بها مهيار أن يخدم غرضه الذى يسعى الى تجسيده ، خادما من خلال رأية فـــى التشيع ذلك الرأى الذى يجسد به اخلاف الصحابه فى رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ــ وإباءهم البر بهذا العهد وهجرانهم آله ممثلين فى " على " ــ كرم الله وجهه ــ وكذلك يستهل مهيار قصيدته " العينية " التى يصف فيها مناقب أمير المؤمنين " على " ــ كرم الله وجهه ــ ، ــ يستهلهـــا ــ بالحديث عن الاظعان ، ورحيل المحبوبة مجسدا شتات الشمل بوصفه معنى من المعانى التى يقصدها من وراء قصائده فى التشيع ، مما يؤكـــد أن مطلع قصيدته الذى جعله فى وصف الاظعان لم يكن الا موظفا لخدمـــــة الغرض الذى يرمى اليه :

هل بعد مفترق الاظعان مجتمع ؟ أم هل زمان بهم قد فات يرتجـــع ؟

تحملوا تسع البيداء ركبهــــم و يحمل القلب فيهم فوق ما يســـع[1]

وتأتى أيضا قصيدته " اليائية " فى رثاء أهل البيت ومدحهم مستهلـــة بالغزل ، والنسيب ولكنه غزل موظف لخدمة الغرض أيضا لما فيه من لج فـى الخصام والبعاد والغدر ، وكلها معان تخدم ما يرمى اليه مهيار :

لو كنت دانيت المودة قاصيـــا رد الجبائب يوم بن نوءاد يـــا

علمتنى غدر الهوى وتركتـــنى أتخيل العنقاء خلا وافيــــــا[2]

---

(١) ديوان مهيار الديلمى ج ٢ ، ص ١٨١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٩٨ ، وما بعدها .

ويستهل ـ أيضا مهيار قصيدته " اللامية " فى مدح أهل البيت ـ على عادة القدماء بالغزل ، ولكنه أيضا الغزل الموظف لخدمة الغرض الذى يرمى اليه مهيار :

سلا من سلا : من بنا استبدلا ؟ وكيف محا الاخر الاولا ؟ !
وأى هوى حادث العهد أمس أنساه ذاك الهوى المحولا ؟
وأين المواثيق والعذلات يضيق عليهن أن تعذلا ؟
أكانت أضاليل وعد الزمان أم حلم الليل ثم انجلى ؟
وما جرى الدمع فيه سؤال من تاه بالحسن أن يسألا
أقول "برامة" : ياصاحبى معاجا ـ وان فعلا ـ أجملا
قفا لعليل فان الوقوف وان هو لم يشفه علّلا
بخربى " وجرة " ينشدنه وان زاد تا صلة منزلا
وحسناء لو أنصفت حسنها لكان من القبح أن تبخلا (1)

فالابيات تحمل معانى السلو ، والعذل والاضاليل ، وكلها معان يرمى مهيار من ورائها لما يقصده من كشف لاعداء " على ـ كرم الله وجهه ـ واذا كنت فى الفصل الذى عقدته لمهيار قد تحدثت عن قدراته وعدم صدقه فى تشيعه ، وفى مديحه لآل البيت ، خاصة فى قصائده التى نظمها فيهم وهو لا يزال على مجوسيته .

---

(1) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨ وما بعدها .

كذلك فان التزامه لمنهج الاقدمين في بناء قصائده في المديح على نهجهم الذي سلكوه ، والذي فرضته عليهم ظروف حياتهم ، يثبت هو أيضا بعد مهيار عن الصدق الفني في بناء قصائده في المديح مقلدا الجاهليين في ذلك ، اذ أنه لا يشاركهم زمانهم ، ومكانهم ، وظروف حياتهم المختلفة .

والى جانب كل من تقدم من شعراء القرن الرابع ، فقد كان الاحنف العكبري شاعر المكديين في هذا القرن ، الذي تضخمت في نفسه عقدة الفقر ، وأطلقت لسانه ، وعواطفه فصدر عنها في أشعاره مجسدا لها مترجما من خلالها احساساته ، ومشاعره — قد كان — هو الاخر ملتزما في بناء قصائده الذاتية نهج معاصريه ، والمجددين في نظام القصيدة من شعراء القرن الثاني الهجري ، الذين استغلوا بدايات قصائدهم في التعبير عن احساساتهم ، ومشاعرهم ، والتزموا خلال القصيدة غرضا واحدا لم يتعدوه الى غيره ، كما كان سائدا أيام الجاهلية وعصر بني أمية

فالاحنف العكبري في قصيدته " الدالية " التي نظمها في اخوانه من بني ساسان " ، يستهلها بالدخول مباشرة الى غرضه الذي نظمها من أجله ، والذي لم يخرج في قصيدته عنه ، والذي يستغله كذلك في التعبير عن احساساته ، ومشاعره ، مدفوعا في ذلك بعقدته النفسية عقدة الفقر التي تضخمت في نفسه ، وتملكت ذاته ، فأطلقت لسانه وعواطفه فلم يصدر في كل أشعاره الا عنها — مثلما رأينا — يستهل الاحنف هذه " الدالية " بالدخول مباشرة — كما قلت — الى غرضه :

على أني بحمد الله في بيـــــت من المجـــــــــد

باخواني بني ساســـــا ن أهل الجد والحـــــد

لهم أرض خراســـــا ن فقاشان الى الهنــــد

الى الروم الى الزنـــج الى البلغار والسنـــد [1]

ثم يستمر في قصيدته على هذا المنوال لا يتعدى ذلك الغرض الذي نظم القصيدة من أجله ، مؤكدا بذلك التزامه بذلك النهج الذي سنه المجددون من شعراء القرن الثاني الهجري ، والذي التزمه معاصروه وغيرهم من شعراء القرن الرابع .

وإذا كان شعراء القرن الرابع قد نظموا أشعارهم الذاتية في قصائد مطولات ، فقد جاءت بعض أشعارهم الذاتية — الى جانب ذلك — في مقطعات صغيرة .

والمقطعات بطبيعة الحال — تختلف عن القصائد المطولة في طبيعتها فالمقطعات تعد تعبيرا ذاتيا سريعا ، ومباشرا بحيث نستطيع أن نطلق على كل منها خاطرة ، يسجلها الشاعر لحظة مرورها بفكره ، ازاء تعرضه لموقف نفسي عارض ، وسريع .

وان كان شعراء القرن الرابع في معظم مقطعاتهم انما يصدرون فيها بدافع من ذلك الجانب الذاتي الذي يتميز به كل شاعر .

---

(1) يتيمة الدهر للثعالبي ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

فأبو الطيب المتنبى فى مقطعاته انما يصدر فيها بدافع من احساسه ببطولة النضال التى عاش حياته — يجسدها من خلال أشعاره فبطولته الذاتية هى التى دفعت به أن يسجل هذه القطعة :

أى محل أرتقى ؟ أى عظيم أتقى ؟
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى (١)

وبطولة النضال التى يستشعرها أبو الطيب هى التى دفعت به — أيضا — الى أن يسجل ، مقطعته التى يخاطب فيها معاذ بن اسماعيل اللاذقى وقد عذله فى اقدامه فى الحروب :

أبا عبد الاله معاذ انى خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى وأنا نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان الى شخصا لخضب شعر مفرقة حسامى
وما بلغت مشيتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى
اذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والمنام (٢)

فالابيات — على قلتها — تجسد بطولة المتنبى الذاتية ، بطولة النضال

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٢ ، ص ٣٤١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤ : ٤٥ .

ذلك الذى كتب على أبى الطيب ، النضال ضد الزمن ، الذى يجسده قوله " ولو برز الزمان الى شخصا " ، ذلك الزمن الذى يطالبه أبو الطيب بكل أمر عظيم " ذكرت جسيم ما طلبى " ، ويظهر أن احساس أبى الطيب ببطولته ، واستشعاره اياها ، كان احساسا جارفا ، لا يهدأ ولا يتلاشى ، ويجسد أبو الطيب ذلك بتكرار ذكره وتجسيده لنضاله للزمن فى هذه الابيات القليلة :

وما بلغت مشيتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى

وهكذا لم يمهد أبو الطيب لرده على هذا العازل ، بل أخذ فى عتابه الذى يوظفه لخدمة غرضه فيخلطه بالتغنى بنفسه مدفوعا فى ذلك التغنى باحساسه ببطولته ، فالمقام مقام غضب ، ورد على عازل ، ولا سبيل الى ذلك الا بالرد المباشر دون توطئه ، أو تمهيد ، أو لجوء الى التطويل .

وكذلك جاءت أبيات أبى الطيب الذاتية التى يتغنى فيها بقدرته على النظم بديها ، وسبقه فى ذلك المضمار ، وذلك حين عمل أبياتا بديهيا فتعجب أبو العشائر من سرعته فقال :

أتنكر ما نطقت به بديها وليس بمنكر سبق الجواد

أراكض معوصات الشعر قسرا فأقتلها وغيرى فى الطراد (1)

فهو فى هذين البيتين يجسد كذلك احساسه لبطولة النضال التى تجسدها ألفاظ مثل : " أراكض ـ أقتل ـ الطراد " على الرغم من أنه

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ، ج ٢ ، ص ١٨ .

فى ميدان نضال شعرى ، والى جانب هذه القطع الشعرية الذاتية لابى الطيب المتنبى فان لابى فراس الحمدانى مقطعات شعرية ذاتية كثيرة نذكر منها — على سبيل المثال — بعض ما قاله فى أسره مدفوعا فيه باحساسه بمرارة الهزيمة ٠

ان فى الاسر لصبا — دمعة فى الخد صب
هو فى الروم مقيم — فى الشام قلب
مستجد لم يصادق — عوضا عمن يحب (١)

والى جانب هذه المقطعة فان أبا فراس من خلال مقطعة أخرى يجسد هذين الاحساسين اللذين ظلا يتجاذبان ذاتيته ، احساسه ببطولة النصر ، واحساسه بجرح الهزيمة اللذين يجسدهما فى لفظتى " حلو " الزمان و " مره " :

ولا تصفن الحرب عندى فانها — طعامى مذ بعت الصبا وشرابى
وقد عرفت وقع المسامير مهجتى — وشقق عن زرق النصول اهابى
ولججت فى حلو الزمان ومره — وأنفقت من عمرى بغير حساب (٢)

وكذلك قوله وقد وافاه العيد وهو فى أسره :

ياعيد ! ماعدت بمحبوب — على معنى القلب مكروب
يا عيد ! قد عدت على ناظر — عن كل حسن فيك محجوب

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق /سامى الدهان ، ج ٢ ص ٢٥
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩

يا وحشة الدار التى ربهـــا أصبح فى أثواب مربـــوب
قد طلع العيد على أهلـــه بوجه لاحسن ولا طيـــب
مالى وللدهر وأحداثـــه لقد رمانى بالاعاجيـــب [1]

وكذلك قطعته التى كتب بها الى علامة من الاســر :

قناتى على ما تعلمان شديـدة وعودى على ما تعلمـان صليب
صبور على طى الزمان ونشـره وان ظهرت للدهر فى نـدوب
وان فتى لم يكسر الاسر قلبـه وخوض المنايا جدة لنجيـب [2]

والمقطعة تجسد احساس أبى فراس ببطولته والتى تجسدها قناتـه الشديدة وصبره كما تجسد احساسه بجرح الهزيمة التى تظهر فى نـدوب الدهر ، وكذلك المقطعة التى تغنى بها حين سمع بالقرب منه حمامـة تنوح على فرع شجرة — وقد سبقت الاشارة اليها فى الفصل الذى عقدتـه لدراسة شعره الذاتى — تلك المقطعة التى تجسد احساس أبى فراس بجرح هزيمته والتى يقول فى مستهلها :

أقول وقد ناحت بقربى حمامـة أيا جارتا هل تشعرين بحالـى ؟ [3]

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٢٩ : ٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .
(٣) أبو فراس الحمدانى ، تحقيق / ابراهيم السامرائى ، ص ١٢٧ .

وكذلك كتب بقطعة شعرية ذاتية ناجى بها ابنته وقد أحس بدنو أجله — وقد سبقت الاشارة اليها أيضا — تلك التى يقول فى مستهلها :

أبنتى لاتحزنـــــــى   كل الانـــام الى ذهـــــاب [1]

كذلك جاءت معظم الاشعار الذاتية لشعراء العجون والانحلال الخلقى فى القرن الرابع فى قطع صغيرة الى جانب قصائدهم المطولات .

ويتضح لنا من ذلك كله أن شعراء القرن الرابع الهجرى حين نظمـــوا قصائدهم الذاتية ، لم يسلكوا فى بنائها طريقة المجددين من شعراء القرن الثانى ونهجهم فى بناء قصائدهم ، فجاءت القصائد الذاتية لهؤلاء الشعراء فى غرض واحد لم يتعداه الشعراء خلال قصائدهم هذه الى غيره وكذلـك جاءت بعض أشعارهم الذاتية فى مقطعات صغيرة ، مثلما ظهر عند كثيــر منهـــم .

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، جـ ٢ ، ص ٤٧

ثانيا ـ لغة الشعر الذاتي في القرن الرابع :

الشعر الذاتى ـ كما نعلم ـ شعر غنائى ، يكتبه الشاعر ـ أولا وقبل كل شئ ـ لنفسه ، ليتغنى من خلاله باحساساته ، ومشاعره ، أيا كانت هذه المشاعر وتلك الاحساسات .

واللغة بوصفها عنصرا هاما من عناصر الشكل فى القصيدة ، وخاصة الذاتية منها ، يظهر من خلالها ـ بشكل واضح ـ طريقة الشعراء الذاتيين فى توظيف هذه اللغة لتحقيق ذاتيتهم ، وفكرهم .

ومن دراستنا للغة الشعر الذاتى فى القرن الرابع يتضح أن هذه اللغة قد أرتبطت ، ارتباطا وثيقا بالحالة النفسية للشاعر ، وترجمت عن طريق دلالاتها اللفظية ما يعتمل فى نفس الشاعر من احساسات ومشاعر كما ترجمت نوازع هذه الانفس التى اختلفت فيما بينها اختلافا واضحا وبينا ، لاختلاف الاتجاه الذاتى عند كل شاعر عنه عند الاخرين .

فاذا ما تناولنا شعر المتنبى الذاتى محاولين تعرف خصائص لغته نجد أن هذه اللغة قد سايرت الحالة النفسية لابى الطيب ، وقت نظمه لهذه الاشعار .

فلغة شعره الذاتى مفعمة بالثورة والغضب ، والاحساس بالقوة ، التى يستشعرها كل من كان النضال سبيلا له فى الحياة ، وأبو الطيب ـ مثلما مر بنا ـ عاش حياته ، يستشعر بطولة النضال ويحسها فى نفسه فكان نضاله ضد حكام البلاد الاعاجم ، وضد الزمن ، والحياة ، والناس

اذ فرضت عليه ظروف حياته أن يختار طريق النضال هذا طريقا له في الحياة ، فقد عاش وسط مجتمع ضاعت فيه هيبة العرب ، وزال فيه سلطانهم ، وخضعوا لمن كانوا عبيدا لهم في يوم من الايام ، مما أشعل نار الثورة ، ولهيب النضال في قلب أبي الطيب منذ صباه ، واتسمت لغة شعره ــ تبعا لذلك ــ بسمة الثورة والغضب بوصفهما أداتين من أدوات النضال المعنوية ، وكثر استعمال أبي الطيب لضمائر المتكلم حتى أصبح ذلك لازمة من لوازم لغة شعره الذاتي ، عبر مراحل حياته المختلفة اذ عاش حياته ــ كما قلت ــ ملازما للنضال ، وان اختلفت مناحي النضال عنده من نضال للاعاجم ، الى نضال للزمن والحساد من الناس :

محبي قيامي ما لذلكم النصل ... بريا من الجرحى سليما من القتل ؟
أرى من فرندي قطعة في فرنده ... وجودة ضرب الهام في جودة الصقل
أمط عنك تشبيهي بما وكأنه ... فما أحد فوقي ولا أحد مثلي
وذرني وإياه وطرفي وذابلي ... نكن واحدا نلق الورى وانظرن فعلي (1)

ففي هذه الابيات لم يخل بيت من ضمير يعود على الشاعر يتمثل في ياء المتكلم التي ترددت في هذه الابيات أكثر من تسع مرات ، هذا الى جانب ما في الابيات من ألفاظ تجسد غضب ذلك الصبي الثائر ، وذلك من مثل : " النصل ، والجرح ، والقتل ، والفرند ، وضرب الهام وجودة الصقل ، والطرف ، والذابل " ، فاذا ما رأينا في الابيات الى جانب ذلك كله تكرارا يؤكد معنى ويجسد اصرار ذلك الصبي على

(1) ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج٣ ص ١٦٠ وما بعدها .

الثورة ، يظهر ذلك فى قوله : " فما أحد فوقى ، ولا أحد مثلـــى " وقوله : " وذرنى واياه وطرفى وذابلى " ، اذا رأينا ذلك أدركنـــا مدى ما كان يعانيه أبو الطيب فى هذه الفترة من حياته ، ومـــدى ما سيطر عليه من مشاعر الغضب ، والثورة حين رأى ضياع العنصر العربى فى مواجهة غيره من العناصر آنذاك ، وحين أدرك مدى خطورة ذلـــك الضياع ، مما دفع به الى اتخاذ النضال طريقا ومنهجا له فى الحياة .

كذلك تظهر هذه السمات ـ أو هذه اللوازم ـ ان جاز لنا هـــذا التعبير فى قول أبى الطيب مخاطبا نفسه :

الى أى حين أنت فى زى محرم؟ وحتى متى فى شقوة والى كـــم ؟
وان لا تمت تحت السيوف تمـــت وتقاسى الذل غير مكـــرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد يـرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى

والمتنبى فى هذه الابيات لا يخاطب الا نفسه ، وان جاء بضمير المخاطب بدلا من ضمير المتكلم ، فذلك ما يسميه ابن الاثير "بالتجريد " ويعرفه قائلا عنه انه :

" اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد نفسك ، لا المخاطب نفسه " (٢)
ويستشهد ابن الاثير على ذلك بقول أبى الطيب :

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٣٣ : ٣٤ .
(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر / ضياء الدين بن الاثـــير تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد مكتبة مصطفى البابى الحلبى ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩م ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحال
واجز الامير الذى نعماه فاجئة بغير قول ونعمى الناس أقوال (١)

والذى دفع أبا الطيب لان يعدل عن استعمال ضمير المتكلم مستعملا بدلا منه ضمير المخاطب أنه فى مجال وصف الشقاء ، ومقاساة الذل وهكذا كان يفعل دائما ، وهذه لغته من لغاته ، ومزية من مزاياه وخاصية من خصائص لغة شعره ، ولازمه من لوازمه .

وأبو البقاء العبكرى شارح ديوانه ينبه الى هذه الخاصية فى شعر أبى الطيب وهو بصدد التعليق على بيته الذى يقول فيه :

لا أستزيدك فيما فيك من كرم أنا الذى نام وان نبهت يقظانا (٢)

فيقول العكبرى : " وقوله " نام " ولم يقل نمت ، هرب من هذا لما كان فى الضمير ذم ، لم يرده الى نفسه ، ولم يوثر الاخبار به عن نفسه وهذا من أدقها فى شعره ، وأدله على حكمه ، واستيلائه على قصب السبق فى شعره ، ولو تأملت شعره وجدت فيه كثيرا من هذا ، واذا كان فى الضمير مدح أعاده الى نفسه .. ألا ترى قوله :

" وانى لمن قوم كأن نفوسنا "

فأعاد الضمير اليه ، ولم يقل نفوسهم ، وهذا عادته فى شعره

---

(١) البيتان فى ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ : ٢٧٧ .
(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

وهو من البلاغة والحذق " (1)

فاذا ما عدنا الى الابيات من جديد وجدنا [illegible] فيها بيت من ضمير للمخاطب ، الذي هو في حقيقة الامر ضمير للمتكلم الى جانب ذلك الاستفهام الذى يستهل به أبو الطيب [illegible] والذى يحمل فى ثناياه غضبا وثورة [illegible] من شقاء وذل يعيش الناس راضين به [illegible] أن يرضى بذلك ، وكأنه من القتال لعله دينه ، هذا الى جانب ما فى [illegible] النفس [illegible] من مثل " شقوة [illegible] :

[illegible] الذى يصوغه المتنبى فى أسلوب شرط فيه الحرص على [illegible] :

[illegible] وتقاسى الذل غير مكـــرم (1)

وصور أبو الطيب ذلك التعبير " تحت السيوف " الذى يحمل من القسوة [illegible] فلم يقل مثلا : [illegible] شقوة [illegible] الذل غير مكرم " [illegible] أبو الطيب [illegible] تقاسى الذل " [illegible] أن الموت [illegible] الموت لا بد [illegible] بالانسان أن يموت [illegible]

---

(1) المصدر السابق ، ج ٤ ، حاشية ، ص ٣٢٠ .

وتأتى الابيات فى تسلسل فكرى ومنطقى ، حيث مهد أبو الطيب للبيت الثالث بسابقيه ، ذلك البيت الذى حشد فيه المتنبى من الالفاظ مايجسد معانى تهفو اليها النفوس العزيزة الكريمة ، مما يتناقض مع ما جاء فى الدبيتين السابقين عليه ، ويستهل أبو الطيب هذا البيت بفعل أمر يجسد مدى تشوق المتنبى للخلاص من واقعه المر الاليم ، ويقرن ذلك بفاء تعطى معنى السرعة والاندفاع .

وجميع أشعار أبى الطيب فى صباه وبداية شبابه تحمل هذه السمات ذاتها ، يظهر ذلك أيضا جليا فى قوله عن نفسه التى لا يمل التغنى بها :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى

وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجانى وغوث الطريد

ان أكن معجبا فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسمام العدا وغيظ الحسود (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الابيات من ضمير يعود على الشاعر مجسدا من خلاله مفاخره ، الى جانب ما فى الابيات من دقة تراكيب لغتها من مثل النفى والعطف ، فى الشطرة الثانية من البيت نفسه فيقابل أبو الطيب بذلك بين " النفى " والاثبات " وبين " بل " و "لا " كأداتى عطف لكل منهما عملها ، وان كان يجمعهما أنهما أداتا عطف ، والبيت بهذه الصياغة تأكيد على المعنى الذى يريد المتنبى أن يتغنى به وليس

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ١ ص٣٢٢ : ٣٢٣ .

هناك ما يضمن ذلك التأكيد أحسن من هذه الصياغة .

ثم ما في البيت الثالث من تكرارا للفظة " العجب " ومشتقاتها مما يدل على عشق المتنبي لنفسه ، وتعلقه بعجبه بهذه النفس التي لم يجد فوقها من مزيد ، وكأنه بهذه الشطرة يعلل ويفسر سر عجبه بنفسه .

ثم يأتي البيت الرابع تتمة لذلك ، فيستهله أبو الطيب بضمير المتكلم المنفصل " أنا " ويتبعه بسيل من مكارمه ، ومفاخره ، ومناقبه فهو " ترب الندى " ، ورب القوافي وسمام العدا ، وغيظ الحسود " ولا خفى مابين " الندى " و" العدا " وما بين " ترب " و" رب " من تجنيس وشجع تظهر جميعها أن أبا الطيب يتغنى حقا ولا ينظم شعرا فحسب .

ومن أشعار أبي الطيب في صباه والتي يتجلى فيها العنف ، والقوة والحرص على استعمال ضمائر المتكلم بكثرة ، قوله : في معرض التغني ببطولته النضالية كذلك . "

قفا تريا ودقى فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفا لما أنا قائل
رماني خساس الناس من صائب استه وآخر قطن من يديه الجنادل
ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ويجهل علمي أنه بي جاهل
ويجهل أني مالك الارض معسر وأني على ظهر السماكين راجل
تحقر عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول
ومازلت طودا لاتزول مناكبي الى أن بدت للضيم في زلازل

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحـ شا قلاقل عيس كلهن قلاقـل (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الابيات من ضمير للمتكلم ، بل من ضمائر توضح كلها عشق المتنبى لذاته فى هذه الفترة من حياته ، وكأنه لا يـرى الا نفسه ، وان كان البيت الثانى من هذه الابيات يعجب واحـــد ا كالثعالبى الذى عده من الركاكة ، والسفسفة بألفاظ العامة ، والسوقـــة ومعانيهـــم " (٢)

لكن من الانصاف أيضا أن نضع فى الحسبان أن البيت قد جاء فـى معرض الهجاء ، وأن أبا الطيب قد أتى بألفاظ هذا البيت عامدا ليكـون أكثر ايلاما ، وايجاعا ، لمهجويه الذين يحاول أبو الطيب أن يجســـد ضعفهم ، وحقارتهم ، الى جانب جهل بعضهم ، ذلك الجهل الذى يعمد أبو الطيب الى الصاقه بمهجوه ما استطاع الى ذلك من سبيل فيلجـأ الى تكرار لفظه الجهل ومشتقاتها لا حبا فى التكرار ، وانما ليعمق معـنى جهل ذلك المهجوه ، وليوضح أن جهله جهل مركب ، فمهجوه يجهلــه ولا يعرفه ، ويجهل جهله هذا ، ليس هذا فحسب ، بل من جهــات ثلاث ، وفى ذلك مغالاة ، ومبالغة فى الحط من قدر مهجوه ، والغـض من شأنه ، والى جانب ذلك كله فالابيات تأتى متسلسلة تسلسلا فكريـــا ومنطقيا ، اذ يبدأها المتنبى بالحديث عن نفسه ، ثم يتبع ذلك حديثـا عن مهجويه ، ثم يعود ثانية للحديث عن نفسه ، وكأنه بذلك يعقـــد مقارنة بينه وبين أولئك المهجوين .

---

(١) ديوان أبى المتنبى بشرح العكبرى جـ٣ صـ ١٧٤ : ٢٧٥
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ١ صـ ١٩٩ .

وفى الابيات الاربعة الاخيرة يحشد أبو الطيب من الالفاظ ما من شأنه أن يظهر خطوط شخصيته الفذه فهو " معسر " ولو ملك الدنيا و " راجل " ولو أعتلى ظهر السماكين ، ويأتى ابو الطيب بهذين الطباقين بين " مالك الارض " و " معسر " وبين " على ظهر السماكين " و " راجل " ليوضح مدى أهمته ، وبعد آماله ، تلك التى يصرح بها فى البيت الخامس والذى جاء تعليلا ، وتفسيرا لسابقه ، والذى يؤثر فيه أبو الطيب ألفاظا بعينها مثل : " تحقر — والمتطاول " لدلالتهما أكثر من غيرهما على مايرمى اليه أبو الطيب .

ثم يأتى البيت السادس ليؤكد بعد همه أبى الطيب ، وإباءه الظلم ، وهذا شأن المناضلين ، فهو لم يزل ثابتا ، ذا وقار ، طودا لا يحركه شىء حتى ظلم ، فلم يصبر على الظلم فتحرك لدفع ذلك الظلم عنه ، وفى ذلك تعظيم لشأنه ، وتبدو دقة أبى الطيب فى اختيار ألفاظه حين يأتى بـ " لاتزول " و " زلازل " لتتناسب مع " الطود " الذى شبه نفسه به ، ثم يأتى البيت السابع نتيجة حتمية للبيت الذى سبقه فهو لما أحس بالضيم ، الذى حرك هما فى أحشائه ، دفعة احساسه ببطولته النضالية فحرك نوقا خفاقا فى السير ، حتى يترك ذلك المكان الذى لحقه فيه الضيم ، وتتابع القافات فى هذا البيت يجعلنا نحس وقع أقدام هذه النوق التى حركها أبو الطيب لتنأى به عن هذا المكان الذى ضيم فيه ، وان كان البيت لم يعجب الصاحب بن عباد الذى نعلم مدى ماكان يكن لابى الطيب من حقد ، وكراهية ، فهو قد عاب أبا الطيب بهذا البيت قائلا : " ما له قلقل الله أحشاءه " وهذه القافات البارده "

إلا أن العكبرى شارح ديوان أبى الطيب يرد على الصاحب هذا قائلا " ولا يلزمه من هذا عيب " يقصد أبا الطيب " ، فقد جرت العادة بذلك ثم يورد لابى " نصر بن المرزبان " قوله : " " ثلاثة من الشعراء رؤساء (شلشل أحدهم ، وسلسل الثانى ، وقلقل الثالث) ، فالذى شلشل الاعشى ، وهو من رؤساء شعراء الجاهلية ، وهو الذى يقول :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

* والذى سلسل مسلم بن الوليد وهو من رؤساء المحدثين :

سلت وسلت ثم سل سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

* والذى قلقل فالمتنبى :

ثم يقول العكبرى : " وفى هذا الذى ذكرناه مايرد قول بن عباد ، ويبطله ما جاء مثله عن سائر الشعراء " . (١)

ومن أشعار أبى الطيب فى شبابه التى تجسد بطولته النضالية فى هذه الحياة ، والتى تتسم لغتها بالعنف ، والقوة ، والحرص على استخدام ضمائر المتكلم بكثرة ملحوظة قوله :

وترى الفتوة والمروة والابوة فى كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتى لذتى فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأننى لم آتها

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٣ ص ١٧٦ "حاشية الصفحة"

ومقانب بمقانب غادرتهـــا أقوات وحش كن من أقواتهـــا (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الابيات ــ على عادة أبى الطيب في هذه الحقبة من عمره ــ من ضمير على الشاعر الى جانب هذا الحشد من الالفاظ التى تحمل جرس العنف ، والقوة من مثل : " الفتوة ــ والمروة ــ والابوة ــ والمطالب ــ والمقانب " ثم مابين "لذتى ــ خلوتى" من توافق نغمى لم يأت للزخرفة فحسب بل أتى ليؤكد المعنى الـــذى يتغنى به أبو الطيب من عفة ، ونقاء ، وبعد ، عن كل ما يزرى بالمروءة حتى وان كان فى خلوته بعيدا عن الناس ، وجميل أن يجعل أبو الطيب من الفتوة ، والمروءة ، والابوة ضرات للجميلات الحسان ، فعشقـــه لهذه المعانى ، لا يقل عن عشق غيره للنساء الجميلات ، فقد شغـــل نفسه بشىء فى الوقت الذى شغل فيه الناس بشىء آخر تماما ، وما أبعد الفرق بين هذا وذاك !

ويأتى البيتان الاخيران من الابيات السابقة نتيجة لسابقيهمـــا فرجل يملك الفتوة ، والمروة ، والابوة لابد من أن يكون ذا بأس شديد وجنان ثابت وشجاعة فريدة ، هى التى حققت له احساسه ببطولته الذاتية ببطولة النضال التى ظل يستشعرها طوال حياته ، وظل أبو الطيب سائرا على هذا النهج فى لغة شعره التى تتسم بالقوة ، والعنف ، والغضـــب وتجسيد ذاته ، مدفوعا الى ذلك بالمناخ الذى كان يعيشه ، والظـــروف

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ٣ ، ص ٢٢٦ : ٢٢٨

التى كانت تحيط به ، حتى التقى بسيف الدولة بن حمدان فرأى فيه نموذج الفارس العربى الذى كان يتراءى لابى الطيب دائما ، وتزخر به مخيلته ، ورآه يستعيد بحروبه المستمرة مع الروم ، للعرب أمجادهم فهدأت نفس أبو الطيب ، وخلت أشعاره ـ كما قلت ـ الى حد ما ـ من هذه الثورة ، وذلك الغضب ، وان كان قد ظل على نضاله للزمن ، وتبوأ عند سيف الدولة مكانه لم يتبوأها شاعر قبله ، مما دفع كثيرا من شعراء سيف الدولة ، وعلماء بلاطه ، الى الكيد له عند سيف الدولة ، ونجحوا فى أن يوغروا عليه صدر الامير ، وربما كان من عوامل نجاحهم أبو الطيب نفسه الذى وهب نفسا أبية عزيزة ، لا تحس بوجودها الا من خلال النضال الذى استشعر أبو الطيب أن بطولته انما تكمن فيه ، وعانى أبو الطيب كثيرا من كيد حساده ، وقاسى مرارة وشاياتهم ،وكابد وعانى طويلا بسببهم مما كان له أثر كبير فى أشعاره فى مرحلة ما بعد الكيد له والحقد عليه ، اذ خيمت على أشعاره فى هذه الفترة ظلال قاتمة وتجسدت من خلالها أحزان عميقة ، وكثر استخدام أبى الطيب الاستفهامات الدالة على الحسرة ، والالم ، الى جانب استخدامه كثيرا للفظة " الحسد " ومشتقاته ذلك " الحسد " الذى أقض عليه مضجعه ، وبسببه ترك سيف الدولة ، وتوجه الى مصر حيث كافور الاخشيدى ، وان كان العقاد يرى أن ذلك " الحسد " الذى منى به أبو الطيب فى بلاط سيف الدولة كان نعمة من حيث لم يدر أبو الطيب فقد أفشى ما فى فريحته من طيب ، بما أشعل فيها من نار ، يقول الاستاذ العقاد : " هو الحسد الذى جنى على الرجل وأجناه ، نعم هو الحسد ناشر كل فضيلة مطوية ، هو ناشر فضيلة المتنبى ، ومفشى ما فى

قريحته من طيب بما أشعل فيها من نار ، هو المحنة التى عرفها المتنبى فشكاها ، والنعمة التى لم يعرفها ، ففاته أن يشكرها ويشيد بفضلها وحسبك أن تتصفح ديوانه فتعرف من تكرار ذكر الحسد فيه ، أى عارك عرك نفسه من حسد الحساد ، فلا تكاد تخلو قصيدة للمتنبى من ذكر الحسد بلفظه ، أو بمعناه ، ومن الايماء تارة الى حساد ممدوحيه ، وتارة أخرى الى حساده هو ... ويستطرد الاستاذ / العقاد فى ذلك الى أن يقول : " وهذا لا يكون الا من اشتغال الذهن بهذا المعنى وسرعة وروده على الخاطر ، وقرب ما أتاه من الخيال ، ثم تجتزئ من تاريخ حياته بشئ واحد هو تسميته ابنه " محسدا " وما هو من الاسماء المطروقة ، ولا المحبوبة ، فيدلنا ذلك على ما لقيه الرجل من محنة الحسد ، ونكاية المنافسين ، وأنه قد أصابه من هذا الاذى ما لم يصب أحدا من الشعراء " .(1)

أخذ أبو الطيب يعبر عن أساه ، وحزنه لما رأى من تغير سيف الدولة نتيجة لوشاية الواشين ، وحسد الحاسدين ، مستخدما الاستفهام الذى يكشف عن هذا الحزن ، وينم عن ذلك الاسى ، ويظهر ذلك جليا فى قصيدته الميمية التى أنشأها بعد أن نجح الحساد فيما تصبوا اليه نفوسهم تلك القصيدة التى يقول فيها ؟

مالى أكتم حبا قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الامم (2)

(1) مطالعات فى الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب اللبنانى -بيروت- الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص ١٩٦ .
(2) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٣ ،ص ٣٦٢ وما بعدها .

والى جانب هذا الاستفهام فهناك ايثار أبى الطيب للفعل " أكتم " بالتشديد للدلالة على مدى المعاناة التى يقاسيها فى محاولة اخفاء ذلك الحب الصادق ، وهذا فى حد ذاته نضال أيضا ، وكذلك الفعل " يرى " وما فيه من دلالة على صدق حب لسيف الدولة ، ثم يأتى فى المقابل بالفعل " تدعى " بما يحمل من كذب ونفاق ، وفى مقابل نفسه يأتى أبو الطيب بلفظه " الامم " مبالغة فى كثرة عدد الكاذبين والمنافقين فى بلاط ذلك الامير المخدوع ، أو الذين آلى أبو الطيب على نفسه الا أن يكون مناضلا لهم ، كما ناضل من هم أقوى منهم ، ويدفع أبا الطيب غضبه من سيف الدولة وتصديقه الوشاة ، الى العود من جديد الى تجسيد ذاته من خلال أشعاره ، فيعلن فى هذه القصيدة ، وعلى مسامع الامير نفسه ٠

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

ويسلك أبو الطيب كل سبيل لتأكيد المعنى الذى يرومه ، فيقابل بين " نظر " وبين " الاعمى " وبين " أسمعت " وبين " من به صمم " وبين " أنام ملء جفونى " وبين " يسهر الخلق " ٠

ويستطرد أبو الطيب فى التغنى بما يملك ، يدفعه فى ذلك غضبه وحزنه ، حتى يلقى على مسامع الامير ذلك البيت ، الذى يعود من خلاله الى تجسيد نضاله القديم واستعداده لمعاودة ذلك النضال

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والضرب والطعن والقرطاس والقلم

فالبيت بما يحوى من واوات عطف عديدة ، ومن تناسب نغمى وموسيقى بين " الخيل " و " الليل " وبين " الضرب " و " الطعن " كل ذلك لا يملك معه سامعه الا أن يتمايل طربا مع أبى الطيب الذى يتغنى وهو فى قمة غضبه ، وثورته ، وما أظن الا أن سيف الدولة قد تمايل طربا عند سماعه لهذا البيت لما فيه صياغة فنية وان أغضبه معناه .

ويكشف أبو الطيب بعد ذلك ــ النقاب عن حساده على مسمع منهم ومن سيف الدولة فى قوله :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وتبدو دقة أبى الطيب فى استعماله " نا " المتكلمين ، طالما قد استخدم لخطاب سيف الدولة ضمير المخاطبين ، وذلك من اعتزازه وحرصه على أن يكون فى منزلة تساوى منزلة ممدوحه أيا كان ذلك الممدوح

ويظل أبو الطيب بعد هذه الواقعة حريصا على تجسيد ذاته والتغنى بنفسه ، والتعريض بحساده فى كل أشعاره ، معاودا بذلك تجسيد احساسه ببطولته الذاتية بطولة النضال الذى كتب عليه أن يتخذه طريقا له فى هذه الحياة :

أنا السابق الهادى الى ما أقوله اذ القول قبل القائلين مقول
وما لاكلام الناس فيما يريبنى أصول ولا للقائلية أصول
أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فى تجول
سوى وجع الحساد داو فانه اذا حل فى قلب فليس يحول

ولا تطمعن من حاسد في مودة   وان كنت تبديها له وتنيـــل (١)

ويأتي أبو الطيب بلفظتي " السابق " ، " والهادي " معرفة وليس نكرة ليؤكد تفرده في هذا السبق ، وتلك الهداية ، ويلاحظ أنه بعد هذه الجفوة لا يضرب المتنبي الا على وتر سبقه للآخرين بأشعاره من مثل : " أنا نظر الأعمى الى أدبي " ، " أسمعت كلماتي من به صمم " ، " أنام ملء جفوني عن شواردها " ، " يسهر الخلق جراها ويختصم " ، " أنا السابق الهادي الى ما أقوله " ، وذلك أمر طبيعي لمن يحس ببطولة النضال ، حتى ولو كان نضاله لحساد يكيدون له بآلسنتهم ، وكما نعلم فجميع حساده ، والكائدين له ، والحاقدين عليه من شعراء سيف الدولة وأدباء بلاطه ، وتتردد لفظة " الحسد " ومشتقاتها كثيرا — كما قلت من قبل — في أشعار أبي الطيب عامة ، وأشعاره بعد ما حدث له في بلاط سيف الدولة خاصة من ذلك قوله :

وللحساد عذر أن يشحـــوا   على نظرى اليه وأن يذوبـــوا

فاني قد وصلت الى مكـــان   اليه تحسد الحدق القلـــوب (٢)

وكذلك قوله مخاطبا سيف الدولـــة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم   فأنت الذي صيرتهم لي حسـدا (٣)

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ٢٠٨ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ج ١ ، ص ٧٥ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٨٩ .

ومع هذا " الحسد " وذلك الكيد ، لا يملك أبو الطيب الا أن يفارق سيف الدولة ، ويتوجه الى " مصر " حيث كافور الاخشيدى ، الذى كثرت محاولاته لاستقدام أبى الطيب اليه ، ولكن أشعاره فى " مصر " ظلت مجسدة لاحزانه ، وآلامه ، بل زادتها آلام الغربة ، وخيبة الامل فى كافور تجسيدا لذلك الحزن ، وتلك الحسرة ، ولا أدل على ذلك من أولى قصائده أبى الطيب فى كافور ، تلك التى يستهلها استهلالا لا يتمشى والمدح ، وان كان يتمشى مع الحالة النفسية التى كان أبو الطيب يعيشها وقتذاك :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى   صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا (1)

والمتنبى لا يخاطب فى هذه الاستفتاحية الا نفسه – وعلى عادته مثلما رأينا من قبل – لا يأتى بضمير المتكلم ، وانما يستخدم ضمير المخاطب لان المقام مقام حسرة ، وألم ، وان ظل على استشعاره لبطولته الذاتية بطولة النضال ، والنضال هنا ضد الزمن وأحداث الحياة ، وضد مشاعره وعواطفه ، ونوازع نفسه :

حببتك قلبى قبل حبك من نأى   وقد كان غدارا فكن لى وافيا

وأعلم أن البين يشكيك بعده   فلست فؤادى ان رأيتك شاكيا

فان دموع العين غدر بربها   اذا كن اثر الغادرين جواريا

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ، ص ٢٨١ ومابعدها .

وهكذا تزخر هذه الابيات بألفاظ " النأى " والغدر ، والبــــين والشكوى ، والدموع " ، مما يؤكد أنه لا يزال يستشعر بطولة النضــــال في نفســـه .

وتبدو دقة أبى الطيب فى اختيار ألفاظه فهو يرى أن سيف الدوله هو الذى " نأى " وليس الشاعر نفسه ،ثم عند ألصاق الغدر بسيف الدولــــه يستخدم أبو الطيب صيغة مبالغة " غدارا " ولا يكتفى باستخدام اســــم الفاعل الذى استخدمه عند التماسه الوفاء من قلبه " وافيا " فهو يلتمس من قلبه أقل شيئ من الوفاء ، وان كانت هذه القسوة من أبى الطيب قســوة ظاهرية ،اذ لايزال يكن له فى أعماقه حبا صادقا يرى جسده كما قال عنــه من قبـــل .

ويظل أبو الطيب وهو فى بلاط كافور مجسدا بطولته الذاتية ، بطولــة النضال ضد الزمن :

أود من الايام ما لا توده ۔۔۔ وأشكو اليها بيننا وهى جنــــده
يباعدن حبا يجتمعن ووصلـــه ۔۔۔ فكيف بحب يجتمعن وصـــــده ؟
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمـه ۔۔۔ فما طلبى منها حبيبا تـــــرده (1)

وهذا تكثر فى هذه الابيات ، الاستفهامات الدالة على نضال أبــى الطيب ، الى جانب ما فيها من ألفاظ " الشكوى " والبين ، والبعاد والصد " تلك التى تجسد ما يعانيه أبو الطيب وهو يناضل الايام والزمن .

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج2 ،ص 19 وما بعدها .

وتتردد نغمة الشكوى هذه فى شعر أبى الطيب فى هذه المرحلة كثيرا ، وان كانت الشكوى فى أشعاره هذه موظفة لخدمة غرضه الذى يرومه ، حين أراد أن يتغنى ببطولته الذاتية ، بطولة النضال ضد الزمن وخاصة فى هذه الفترة من حياته :

أما تغلط الايام فى بأن أرى   بغيضا تنائى أو حبيبا تقرب؟ [1]

وهو استفهام أيضا يتجسد معه نضال أبى الطيب للايام وهو يحس الغربه ، والبعد عن الاهل ، وخاصة اذا وافى العيد وهو غريب :

يضاحك فى ذا العيد كل حبيبه   حذائى وأبكى من أحب وأندب
أحن الى أهلى وأهوى لقاءهم   وأين من المشتاق عنقاء مغرب ؟

وهكذا تتآزر ألفاظ مثل (يضاحك كل حبيبه حذائى / أبكى / أندب /أحن الى أهلى : أهوى لقاءهم) فى تجسيد ما يعانيه أبو الطيب ثم يأتى الاستفهام الذى تتضمنه الشطرة الاخيرة فتكتمل به خطوط مأساة الرجل ، الذى لا يكف عن نضال الزمن وأحداث الحياة ، وتتوالى أشعار أبى الطيب الذاتية فى " مصر " تلك الاشعار التى تغلف لغتها غلالة من الحزن ، والكآبة اللذين تجسدهما ألفاظ أبى الطيب ، وتراكيبه ومعانيه ، فهو لا يمل ذكر أحبائه النائين ، وذكر غربته ، ووحدته ووحشته ، ونضاله المستمر مع الزمن :

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ١ ، ص١٧٧ ومابعدها .

بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن (١)

وهكذا يأتى الاستفهام فى أول البيت مجسدا أحزانى أبى الطيب ويأسه ، ثم تأتى بعد ذلك واوات العطف العديدة ، ولا النافية ، التى تكررت خمس مرات فى هذا البيت ، والتى تنفى وجود من بهم يتعلل المرء ويتصبر فى مواجهة النوازل والخطوب من أهل ، أو وطن ، أو نديم أو كأس ، أو سكن ، وان من الصعب على الانسان أن يحرم من أهله ، ولو كان فى وطنه ، فما بالنا بمن حرم من أهله ، ووطنه ، ثم لم يجد فى غربته نديما ، ولا صاحبا ، تسكن اليه نفسه ، فذلك هو الضياع بعينه ، وذلك ما تجسده لغة بيت أبى الطيب .

على أن اظهار أبى الطيب لاحزانه لا يقلل من شأن بطولته النضالية شيئا بل على العكس ، هو تجسيد لها ، وتأكيد عليها فان من يواجه مصائب الزمن هذه ونكباته تلك لحرى بأن يكون من المناضلين الذين يستشعرون بطولتهم فى هذا النضال المستمر مع الزمن وأحداث الحياة وتصيب أبا الطيب وهو بمصر حمى تلزمه الفراش ، وان المرض لشديد قاس ولكن ما أشده ! وما أقساه اذا كان المريض غريبا ، وحيدا ، فى بلاد ليست هى بلاده ، وبين أناس ليسوا هم أهله وذويه ، ويسجل أبو الطيب فى ذلك أروع قصائده الذاتية ، اذ تجسد لغتها أنات مريض ، وتأوهات غريب وحيد ، وفى نفس الوقت تجسد قوة مناضل وجد ذاته واستشعرها من خلال ذلك النضال :

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج٤ ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي المطي ولا أمامي
وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام
قليل عائدي ، سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي
عليل الجسم ، ممتنع القيام شديد السكر ، من غير المدام [1]

والابيات تحوى من التركيبات اللغوية ما تجسد آلام المتنبي النفسية قبل الجسمية ، من ذلك : " ملني الفراش — قليل عائدي — سقم فؤادي عليل — الجسم — ممتنع القيام) فان هناك ما قد آذى نفسه ، وآلم قلبه الى جانب علة جسده وضعف قوته ، وان كان أبو الطيب لا يزال يردد أن حساده كثر ، وأن مرامه صعب ، فما ذلك منه الا تأكيدا وتجسيد لبطولته النضالية ، والى جانب ما سبق فان في الابيات من الحرص على الصنعه اللفظية الطباق بين " قليل " و " كثير " والتوافق النغمي بين " عائدي " و " حاسدي " الى غير ذلك من الدقائق اللغوية التي تجعل لشعر أبي الطيب مذاقا خاصا ، وطعما متميزا .

ولغة هذه القصيدة كلها يلفها هذا الحزن ، وتغشاها تلك الظلال القاتمة وهي بهذه الخصائص تساير الجو النفسي الذي يعيشه أبو الطيب غريبا ، وحيدا ، مناضلا في بطولة ، وصبر لمصائب الزمن ، ونكبات الحياة التي أضعفت جسمه ، وأنهكت قواه ، ولكنها لم تستطع أن توهن من قوة نفسه ، أو أن تفت في عضد هذه النفس القوية التي خلقت للنضال والصبر

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي جـ ٤ ، ص ١٤٥ : ١٤٦ .

فيه ، الا أن أبا الطيب قد عوضه الله عن كافور وهو مصر بفاتك الرومى الذى اتصل به المتنبى بعد جهد ، ومشقة ، وبعد أن أخذ عليه كافور الطريق من كل وجه ، فهدأت نفسه الى جوار ذلك الامير ، الذى لم يمهله القدر طويلا بعد صحبة أبى الطيب به فمات ولما تسكن نفس أبى الطيب ، ولما يسترح فؤاده ورثاه المتنبى رثاء حارا ، صادقا ، يعد من أعذب شعره الذاتى لانه لم يكن يرثى فاتكا هذا بقدر ما كان يبكى نفسه ، ويندب حظه ويواصل من خلال ذلك الرثاء تجسيده لبطولته النضالية فى مواجهة خطوب الزمن ومصائب الحياة :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصى طيع (1)

وهكذا يبدأ المتنبى شطرتى البيت بكلمتى " الحزن " و " الدمع " ويدلل على تدفق الحزن وقسوته بلفظه " يردع " التى تجسد معنى النضال الذى يحسه أبو الطيب ببطولته من خلاله " ثم يأتى فى الاخبار عن الدمع بصيغتين من صيغ المبالغة " عصى " " طيع " ثم قدم لفظه " عصى " وعلى " طيع " ليفيد أن دمعه أنت آخر أحواله الطاعة البالغة لاحزانه ، فقد كان طيعا أكثر من عصيا ، أو أن دمعه أمسك فى مآقيه تجملا لكنه لم يستطع الاستمرار فى جموده فانهمر طيعا لاحزانه المتدفقة الاتية :

ويستطرد أبو الطيب فى بكائه فاتكا ، وفجأة ينتقل من الرثاء الى الهجاء فيأخذ فى هجاء كافور وهو فى معرض رثاء فاتك ، وكأنه كانت

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج2 ص 268 ومابعدها .

تترا ءى لعينيه صورتا الرجلين فكان يرى الفرق بينهما شاسعا ، وطائلا (من وجهة نظره) ، فلم يستطع الا أن يقارن بينهما وهو يرثى الراحل منهما ، فلم تكن نتيجة هذه المقارنة الا هجاء لمن بقاء منهما على قيد الحياة ، والشاعر فى كلتا الحالتين يبكى نفسه ، ويندب حظه اما بموت فاتك ، أو ببقاء كافور على قيد الحياة ، فهو لا يرثى ولا يهجو وانما جاء الرثاء والهجاء عنده موظفين لخدمة غرضه الحقيقى وهو تجسيد بطولته النضالية ضد الزمن ومصائبه هذه المصائب التى منها رحيل " فاتك " وبقاء " كافور " وهو فى الحالتين مناضل اما بصبره على رحيل ذاك الصديق واما بمواجته لعدو بقى على قيد الحياه :

قبحا لوجهك يا زمان فانــــه　　وجه له من كل لؤم برقـــع

أيموت مثل أبى شجاع فاتــك　　ويعيش حاسده الخصى الاوكع ؟

ولان أبا الطيب قد منى من حاده بخطب عظيم ، ولان " الحسد " كان عنده من أقسى أنواع العداوة وأشدها ــ كما مر بنا ــ فانه لا يرى كافور الا حاسدا لفاتك ، هذا الى جانب ما فى البيت الثانى من استفهام يحمل معنى التحسر والالم ، وما فيه من طباق بين " يموت " و " يعيش " وبين " أبى شجاع فاتك " و " الخصى الاوكع " وان كان الطباق الاخير طباقا عند المتنبى وفى رأية هو ، فقد جاء به على سبيل المقابلة بين شخصيتين يرى أن بينهما بونا شاسعا ، وفرقا كبيرا .

وتدفعه هذه المقابلة ، الى تقرير حقيقة يراها هو ، وان لم يرها غيره :

أبقيت أكذب كاذب أبقيتــه　　وأخذت أصدق من يقول ويسمــع

وتركت أنتن ريحة مذمومـــة . وسلبت أطيب ريحـة تتضــــوع

والتركيبات اللغوية فى البيتين د قيقة الى مد ى بعيد ، ود الة علـــى صنعه فنية تميز بها أبو الطيب المتنبى على الرغم من الحالة النفسية الـتى يعانيها عند نظمه لهذ ه القصيد ة ففى التكرار فى (أبقيت ــ أبقيتـــــه) تجسيد ا لمد ى الحسرة والالم والحزن الشد يد ، وفى عطف (يسمع) علـــى (يقول) د لالة على أن " فاتكا " كا ن ذ ا شخصية متميزة ، لا يقـــول الا الصد ق ، ولا يسمع الا الصد ق كذلك ، فلا يجرؤ أحد على مرا ءاته ومنافقيه ثم تأتى المقابلة بين كل شطرة فى البيتين والشطرة التى تليها ، هـــذا كله الى جانب ما فى قوله (سلبت) من تجسيد لقسوة الموت ، وسطوتـــه وجبروتـــه •

وتتوالى هجائيات أبى الطيب لكافور ،ولم تكن معظمها ــ هجائيـــات بقد ر ما كانت تجسيد ا لبطولته ، ونضاله للزمن ، ومصائبه :

أما فى هذ ه الد نيا كريــــم . تزول به عن القلب الهمـــوم ؟

أما فى هذ ه الد نيا مكـــان . يسر بأهله الجار المقـــيم ؟ (١)

وهكذا يأتى الاستفهام فى البيتين مجسد ا نضال أبى الطيب ، فـــى مواجهة الحياة ، وقد أظلمت الد نيا فى عينيه فلم يعد يرى فيها كريمـــا يخفف عن البوءسا ء بوءسهم ، ولم يعد يرى فيها مكانا يركن فيه الغريـــب الى أ هله ، والبيتا ن يجسد ا ن كذ لك رحلة حياة أبى الطيب الـــتى عاشها متنقلا من مكا ن الى مكا ن ، ومن بلاط الى بلاط ، فلم ير فيهـــا

(١) د يوا ن الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ ،صـ ١٥١ •

مايسره ، وكأنه من خلال رحلة حياته هذه قد عرف الناس ، كل النـــاس وأحاط خبرا بكل مكان فى هذا الوجود ، وناضل الزمان والمكان بما فيهما ومن فيهمـا .

ويوافى أبا الطيب عيد الاضحى لسنة خمسين وثلاثمائة ، وهـــــو " بمصر " يستعد للخروج منها ، وينتهز غفلة " كافور " ورجاله وينظـــم أبو الطيب " دالية " التى يهجو فيها كافورا فى يوم عرفه قبل مسيرة مـــن " مصر " بيوم واحد ، ويستهلها استهلالا يجسد نضال ذلك الغريـــب للزمن اذ لم يجد فى غربته من ينسبه أحباءه وأهله :

عيد بأية حال عدت ياعيـــــد   بما مضى ؟ أم بأمر فيك تجديـد ؟
أما الاحبة فالبيداء دونهـــم   فليت دونك بيدا دونها بيـــد (١)

وهكذا تتصدر البيتين لفظة " عيد " التى يأتى بها أبو الطيب نكرة يقف عندها لحظة متحسرا على قدوم عيد يراه الناس حبيبا الى نفوسهـــم ويراه هو بغيضا كأشد ما يكون البغض ، ثم يتبع هذه اللفظة باستفهامـات متتابعة تتجسد معها حسرته وحزنه " بأية حال عدت ياعيد ؟ ، بما مضى ؟ أم بأمر فيك تجديد ؟ " وهكذا تتوالى الاستفهامات سريعة ، متتابعـــة مشحونة بعواطف الحزن ، والالم ، والحسرة التى تجسد معاناة مناضـــل عاش حياته يناضل الزمن ويستشعر بطولته فى ذلك النضال ثم تأتى الشطرة الاولى من البيت الثانى اجابة عن كل هذه التساؤلات ، أما الاحبـــــة

---

(١) ديوان الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٢ ، ص ٣٩ ومابعدها .

فالبيداء دونهم ، وهى اجابة ـ على اختصارها ـ تحمل من المعاناة ومقاساة الحزن ماتحمل ، ثم تتبعها الشطرة الثانية من البيت نفسه مترجمة بغض أبى الطيب لذلك العيد ، الذى يوافيه وهو بعيد عن أهله ويسوغها أبو الطيب فى التمنى ليس فى تمنى قرب أحبائه ـ وانما فى تمنى بعد العيد عنه ، فهو ـ على ما يظهر ـ قد فقد الامل فى قرب هؤلاء الاحبة " فليت دونك بيدا دونها بيد " ويأتى أبو الطيب بلفظه "البيداء" مفردة عند حديثه عن بعاد أهله ، ولكنه عند تمنية بعاد العيد يأتى بها " جمعا " (بيدا) ليس هذا فحسب بل " دونها بيد " مما يجسد مدى ما يعانيه الرجل من أحزان ، والام ، سببتها له غربته ، ووحدته وبعاده عن أهله وذويه ، ومدى مايجسد من اصرار على النضال ، وتكرر الاستفهامات ـ كثيرا ـ فى هذه القصيدة ـ تلك الاستفهامات التى تتآزر جميعها فى تجسيد حالة أبى الطيب النفسية ، وذلك من مثل :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها أنى بما أنا باك منه محسود ؟

والى جانب هذا الاستفهام المجسد لاحزان أبى الطيب ، تأتى لفظة " محسود " التى هى من مشتقات " الحسد " الذى عانى منه المتنبى كثيرا ، والذى تردد فى هذه الفترة من حياته فى أشعاره بشكل ملحوظ ، وكان سر مناضلته للزمن والناس .

وهكذا كانت لغة الشعر الذاتى عند أبى الطيب مسايرة للجو النفسى المسيطر عليه ، فاختلفت فى أشعاره باختلاف حالاته النفسيه ، من قسوة وعنف ، وثورة ، وغضب فى صباه وشبابه ، الى هدوء وسكون بعد لقائه

سيف الدولة أول الامر ، ثم الى عود للغضب والثورة بعد أن خاب أملـــه ورجاؤه وهو فى بلاط سيف الدولة ، ثم بعد أن أحس الغربة ، والوحدة والوحشة ، فى " مصر " وهو لذى كافور الاخشيدى ، وان كانت فـــى معظمها قد وظفت لتحقيق ذاتية أبى الطيب التى ظهرت فى احساســـه ببطولة النضال ضد الاعاجم وضد الزمن والناس ومصائب الحياة واذا ماتركنا أبا الطيب المتنبى محاولين تتبع لغة الشعر الذاتى عن معاصرة أبى فـراس الحمدانى ، لمعرفة خصائصها الفنية وجدناه ـ أيضا ـ أن لغة الشعـــر الذاتى عند أبى فراس قد أرتبطت ، كذلك الى حد بعيد ـ بحالتـــه النفسية مثلما كان الحال عند أبى الطيب المتنبى .

فلغة الشعر الذاتى عند أبى فراس فى بداية حياته أيام بطولاتـــه الحربية ، وأمجاده العسكرية ، وقيادته جيوش ابن عمه فى مواجهـــة أعدائهم من الروم ، تختلف اختلافا بينا مع لغة شعره الذاتى بعد أن أصبح أسيرا لدى الروم ، ذلك أن لغة شعره الذاتى بعد أسره قـــد اكتنفتها الاحزان ، وسيطرت عليها الالام ، فى الوقت الذى فاضت فيه لغة شعره الذاتى قبل أسره بالقوة ، والعنف ، وزخرت بألفاظ الحرب والقتال والسيف والرمح ، الى غير ذلك من تصوير للامجاد العسكرية ، والبطولات الحربية ، فقد وظف أبو فراس اللغة لتحقيق ذاته من خلال شعره ولتجسيد احساسه ببطولة النصر أو احساسه بجرح الهزيمة مثال ذلك ما جاء فـــى احدى قصائد أبى فراس التى يجسد فيها أمجاده ، وأمجاد قومه ، قبل أسره ، والتى تفيض بالعنف والقوة ، مجسدة احساسه ببطولة النصـر :

هذا وكم من غمة كشفتهـــا | بشبا الظبا وتوقد الخرصــــان

متجردا فردا بغير مساعـــد غير الجواد ومرهف وسنـــان

فاذا بطشت بطشت ليثا باسلا واذا نطقت نطقت عن تبيـــان

واذا قصدت لحاجة لم يثنني خوف الردى وتصرف الازمـــان (١)

وهكذا تحفل الابيات بما يساير الجو النفسى لامير فارس ، يتغنـــى ببطولته ، ويفخر بأمجاده ، وتزخر بالالفاظ التى تجسد هذه البطولة وتلك الامجاد ، من مثل : (كم من غمة ، كشفتها ، شبا الظبا ، متجـــردا فردا ، بغير مساعد ، جواد ، مرهف ، سنان ، بطشت ، ليثا ، باسلا ، لم يثننى ، خوف الردى) .

هذا الى جانب اسم الاشارة " هذا " الذى استهل به أبو فـــراس هذه الابيات والذى يدل على كثرة ما عدد أبو فراس من مفاخر ، ومناقـــب وكذلك " كم " التى تفيد الكثرة ، ثم حرصه على تشديد " كشفتها " وما فى هذا التشديد من دلالة على العنف والقوة ، وملاءمتها " للغمة " وما فـــى تكرار (بطشت) و (نطقت) ، واستخدام " اذا " فى البيت الثالـــث كأداة شرط تفيد التحقيق والتوكيد ، وتكرارها فى الشطرة الثانية مـــن البيت نفسه ، ثم اعادة تكرارها فى البيت الذى يليه ، وكذلك ايثار أبـــى فراس لاستخدام الافعال الماضية على المضارعة وذلك فى قوله : (بطشـــت ونطقت ـ وقصدت) ليفيد أن ذلك حدث بالفعل ، هذا كله الى جانب استخدام أبى فراس لضمائر المتكلم التى كثرت ، وتعددت فى هـــذه الابيـــات .

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / سامى الدهان ج ٢ ص

كل ذلك يدل على مدى ملائمة لغة هذا الشعر الذاتي للحالة النفسية للشاعر ، كما يدل على حرص أبي فراس على اختيار الالفاظ التي تجسد ما يستشعره في أعماقه •

واذا كانت هذه الابيات مما اختص أبو فراس نفسه بها ، فانه يتبعها بأبيات تحمل ذات الخصائص الفنية من الناحية اللغوية ، يتغنى فيها بأمجاد قومه من بني حمدان ، وكلها تجسيد لذلك الاحساس الذي غمر نفس أبي فراس قبل أسره احساس الفرحة بالانتصارات المتلاحقة واستشعاره البطولة في ذلك •

واذا فخرت بالشم الالى	شادوا المكارم من بني حمدان
نحن الملوك بنو الملوك أولي	العلا ومعادن السادات من عدنان
والمجد يعلم أننا أركانه	والبيت معتمد على الاركان

وكذلك تأتي هذه الابيات زاخرة يتآزر مع ما قبلها في تجسيد أمجاد أبي فراس، اذ يعطفها على ما سبقها باستهلالها بأداة الشرط " اذا " مسبوقة بواو العطف ثم يكرر " فخرت " كما كرر من قبل " بطشت ونطقت " وفي ذلك التكرار ما فيه من " نغم " يؤكد أن أبا فراس في مقام " تغن " حقيقي ، ثم حرصه أيضا على استخدام ضمائر " المتكلمين " الذي يتمشى مع من يفخر بهم ، وتكراره لفظة " الملوك " وصفاتها ، ثم ايثاره لفظة " يعلم " في قوله : " والمجد يعلم " لاذلالتها أكثر من غيرها على تأكيد ما ينسب الى نفسه ، وقومه •

كذلك جاءت لغة أبى فراس فى قصيدته الذاتية " البائية " الـــتى يفخر فيها بابن عمه " سيف الدولة ،" وجيوشه ، وكذلك بنفسه بوصفه واحد من كماة هذه الجيوش ــ أقول ــ جاءت لغته فى هذه القصيدة أيضا ملائمة للجو النفسى الذى يسيطر على الشاعر وهو فى مقام الفخر ، وتجســـد احساسه ببطولة انتصاراته العديدة والمبهرة :

ولما ثار سيف الدين ثرنـــا ۞ كما هيجت آسادا غضابـــا

أسنته اذا لاقى طعانـــا ۞ صوارمه اذا لاقى ضرابـــا

دعانا والاسنة مشرعـــات ۞ فكنا عند دعوته الجوابـــا

صنائع فاق صانعها فقامـــت ۞ وغرس طاب غارسه فطابـــا

وكنا كالسهام اذا أصابـــت ۞ مراميها فراميها أصابـــا(1)

وهكذا تزخر الابيات بألفاظ يتجلى معها مدى قوة سيف الدولـــة وجيوشه ، فى كل معركة يخوضونها فيها : (أسنة ــ صوارم ــ وسهام) وفيها ــ تبعا لذلك ــ (طعان ــ وضراب ــ ورمى) ، وما تلك الاسنـــة والصوارم والسهام الا جنوده ، وأبو فراس واحد منهم ، أولئك الجنـــود الذين هم فى حقيقتهم الى جانب مضائهم ، وشدة عزمهم ، أسود ليســوا أسودا فحسب بل أسودا غضابا .

وهكذا كانت لغة الشعر الذاتى لابى فراس قبل أسره ، عنيفة قويـــة

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / سامى الدهان ، جـ٢ ، ص ١٣ ومابعدها .

كعنفه ، وقوته ، بوصفه فارسا كميا ، وبطلا شجاعا .

الا أن لغة شعره فى أسره — وكما قلت فى موضع سابق — قد خيمت عليها ظلال قاتمة من حزن ، وأسى ، وتلك نتيجة طبيعية لفارس عاش حياته محاربا يرى سعادته فى خوض المعارك ، ويجد لذته فى نصر يتلوه نصر ثم فجأة يجد نفسه جريحا ، أسيرا ، سجينا ، وحيدا ، غريبا ، ينتابه بين الحين والحين حنين جارف الى أهله النائين ، خاصة أمه تلك العجوز التى ماتعنها زوجها ولما يبلغ ابنهما الوحيد سنته الثالثة من عمره — ثم ها هو ذا وحيدها يقع أسيرا فى أيدى أعدائه ، وأعداء الدين من الروم البزنطيين .

والى جانب هذا الحنين الى أهله فقد كان ينتابه — أيضا — حنين الى أيام عزه ، ومجده ، ونصره . ذلك الحنين الذى يجسده أبو فراس من خلال لغته الشعرية لاحدى قصائده الذاتية التى كتب بها من الاسر الى ابن عمه " سيف الدولة " مدفوعا فيها باحساسه بجرح الهزيمة التى لحقته ووقع بسببها فى أسر الروم :

الى الله أشكو أننا بمنازل   تحكم فى آسادهن كلاب
تمر الليالى ليس للنفع موضع   لدى ولا للمعتفين جناب
ولا شد لى سرج على ظهر سابح   ولا ضربت لى بالعراء قباب
ولا برقت لى فى اللقاء قواطع   ولا لمعت لى فى الحروب حراب [1]

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

واذا كان أبو فراس يردد من خلال هذه الابيات ذكر جياده وسيوفه وحرابه ، وقبابه ، الا أن حزنه كامن فى أنها سيوف قد أغمدت ، وحراب لم تعد لامعة وجياد لم تسرج ، وقباب لم تضرب لذلك الفارس بالعراء وأين هو من ذلك كله ، وقد أصبح جريحا ، أسيرا ، سجينا ، لدى من أذاقهم من قبل كؤوس الموت ، ومرارة الذل ، والانكسار والانهزام ؟

أولئك الذين يراهم الشاعر " كلابا " قد واتاها الحظ فتحكمت فى أسدها وذلك مما يضاعف أحزانه ، فلا يجد بدا من أن يشكو ، ولكنه لا يشكو الا الى الله .

وتتردد هذه النغمات نفسها ، وتلك الالفاظ ذاتها فى معظم قصائد أبى فراس فى أسره – ان لم تكن كلها – يقول أبو فراس مرددا ذلك نفسه فى قصيدة أخرى يكتب بها أيضا الى سيف الدولة يتجسد من خلالها كذلك احساسه بجرح الهزيمة ، ذلك الاحساس الذى تؤكده لغة هذه القصيدة بدلالاتها اللفظية ، وما تحمل من شحنات عاطفية (١) :

هل تعطفان على العليل ... لا بالاسير ولا القتيل ؟
باتت تقلبه الاكف ... سحابة الليل الطويل
يرعى النجوم السائرات ... من الطلوع الى الافول
فقد الضيوف مكانه ... وبكاه أبناء السبيل
واستوحشت لفراقه ... يوم الوغى سرب الخيول
وتطلعت سمر الرماح ... وأغمدت بيض النصول

(١) أبو فراس الحمدانى ، تحقيق / ابراهيم السامرائى ، ص ١٤٤

فهي نفسها ذات المعاني التي ترددت في قصيدة أبي فـــراس " البائية " السابقة وهي مصدر حزنه ، وسر شقائه ، وبعث أساه فرماحه قد تعطلت ، وسيوفه قد أغمدت ، واستوحشت لفراقه خيوله اذ لم تره يوم الوغى مثلما عودها دائما ، ليس هذا فحسب بل افتقده الضيـــوف وكاء ابناء السبيل ، هذا وما يتبعه من آلام نفسية الى جانب ما مني به من آلام جسدية تمثلت في جراحه التي أصبح معها لا بالاسير الصحيح الجسم ولا القتيل الذي استراح من آلام جراحه والى جانب هذه القصائد الـــتي كتب بها أبو فراس من أسره الى ابن عمه والتي جاءت اللغة فيها مجســـدة لآلامه وأحزانه ، فان هناك قصائد كتب بها الى أمه ، تلك القصائد التي جاءت اللغة فيها مجسدة لاحزانه وآلامه أكثر بكثير مما جسدته لغة قصائده لابن عمه ، التي كان يبدو في معظمها غاضبا ، عاتبا ، قاسيا ، ولكنه مع أمه لم يكن فيه شيء من ذلك الذي بدر منه مع ابن عمه ، في معظـــم الاحيان ، وان كان يتخلى عن ذلك سريعا لما يربطه بابن عمه من حـــب وود صادق ، وقرابة ، ونسب أكيد .

من قصائده التي كتب بها الى أمه ، والتي زخرت بالالفاظ الجريحـــة الدامية ، التي يظهر من خلالها مدى حزن أبي فراس وأساه ، والـــتي تجسد احساسه بجرح هزيمته ، وأسره ، قصيدته التي يستهلها بقوله :

مصابي جليل والعزاء جميـــل وظني بأن الله سوف يـــديـــل
جراح وأسر واشتياق وغربـــة أحمل اني بعدها لحمـــــول
واني في هذا الصباح لصالح ولكن خطبي في الظلام جليـــل

وما نال منى الاسر ما تريانــه ولكننى دامى الجراح عليــل

جراح تحاماها الاساة مخوفه وسقمان باد منهما ودخيــل

وأسرا قاسية وليل نجومـــه أرى كل شىء غيرهن يــزول [1]

وهكذا يستهل أبو فراس أبياته بهذا التركيب المفرغ " صابى جليل " والذى يتبعه بما حاول من خلاله التخفيف عن نفسه ، بل عن أمه تلــك العجوز البائسة فيحاول جاهدا أن يتصبر ، ويتعزى ، ويتوقع الخــير ولكنه لا يستطيع الاستمرار فى هذا التصبر ، وذلك التعزى ، فيأخذ فى البيت الثانى وما يليه فى حشد هذا الكم الهائل من الالفاظ ، والتراكيب التى تجسد أحزانه وآلامه ، هذه الآلام ، وتلك الاحزان التى تقتــل فيه كل تصبر وتعز وذلك من مثل : (جراح ــ أسر ــ اشتياق ، غربــة ــ خطب ــ سقمان ــ ليل طويل) ثم تكراره للجراح أكثر من مره وإيثاره ذكر " الدامية " منها وكذلك تكراره " للاسر " الذى لم يعان من شىء أكثر مما عانى منه حتى وان حاول أن يخفى ذلك ، كما يفعل فى البيــت الرابع من هذه الابيات ، حين يذكر أن ذلك الاسر لم ينل منه ، ولكــن جراحه دامية ، وان كان ذلك منه محاولة يائسة لاخفاء ضعفه ، وحزنــه أمام ذلك الاسر ، يؤيد ذلك ذكره له أكثر من مرة فى قوله : " جراح وأسر" وفى قوله : " وأسر أقاسيه " وما ذلك التصبر منه ، ومحاولة اخفاء ضعفــه أمام ذلك الاسر ، الا شبيه بما كان من أبى الطيب المتنبى حين داهمتــه الحمى ، فأخذ فى سرد أحزانه ، وآلامه ، ثم حاول أن يبدو أكثـــر

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى /تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣١٣، ٣١٤ .

تجلدا ، فقال : " كثير حاسدى " " صعب مرامى " ، بعد قوله " قليل عائدى ، سقم فؤادى " وكأنه عز عليه أن يضعف حتى وهو فى مواجهة مع المرض ، وكذلك فعل أبو فراس ، فكلاهما قد استشعر البطولة فى نفسه ، ويعز على من كان مثلهما أن تضعف هذه البطولة أمام أى شىء حتى لو كان ذلك الشىء مرضا أو أسرا ٠

والى جانب ذلك كله فان مما يدل على دقة أبى فراس فى اختيار ألفاظه ما جاء فى البيت الثالث من هذه الابيات حين ذكر الصباح " ثم طابق بينه وبين " الظلام " مؤثرا " الظلام " على " المساء " لما فى هذه اللفظة من ايحاء بالرعب ، والفزع ، وملاءمة للفظة " الخطب " التى قرنها أبو فراس بذلك " الظلام " ، وكذلك ملاءمتها للحالة النفسية التى كانت تسيطر على أبى فراس وهو يكتب بهذه الابيات الى أمه ٠

وكذلك جاءت كل قصائد أبى فراس التى كتب بها من أسره الى أمه جاءت مجسدة لاحزانه ، وآلامه ، وان كان أروعها جميعا ، وأدلها على حزن الشاعر ، وآلامه ، تلك التى رثى بها أمه حين ماتت وهو لا يزال عند الروم أسيرا ، فأضاف موتها الى أحزانه حزنا هو أشدها وأقساها ، والى الآلامه ألما هو ألمها وأوجعها ، والى جانب هذه الاحزان ، وتلك الالام فقد زادت بموت تلك الام خطوب ذلك الابن الاسير الجريح ، وفواجعه ولقد كان ذلك الحزن الجديد ، وهذا الخطب الوارد ، وتلك الفاجعة النازلة ، أعظم أحزان أبى فراس ، وألم خطوبه وفواجعه لاعتقاده أن أسره كان أحد أسباب موت هذه الام البائسة الحزينة ، بل كان أعظم أسبابه لذلك كله جاءت لغة هذه القصيدة حاملة بين ثناياها كل أحزان أبى

أبى فراس ، ومجسدة لآلامه جميعا ، ولـ تنظر اليه فى أول قصيدته وقد بدا كمن أصابه ما أفقده وعيه ، فأخذ ينادى هذه الراحلة ، وبينه وبينهـا آلاف الاميال ، بل الاكثر من ذلك أنها أصبحت فى عالم غير ذلك العالم الذى لا يزال الشاعر يعيش فيه ، ولكنه الحزن ،والالم ، والضياع :

أيا أم الاسير سقاك غيـث — بكره منك مالقى الاسـير
أيا أم الاسير سقاك غيـث — تحير لا يقيم ولا يسـير
أيا أم الاسير سقاك غيـث — الى من بالفدا يأتى البشـير؟
أيا أم الاسير لمـن تربـى — وقد مت الذوائب والشعـور؟[1]

وهكذا يتكرر فى هذه الابيات ذلك النداء " أيا أم الاسير " فيتصدر أشطر الابيات الاولى جميعها ، وكأنه صرخه نادب ، فقد من كان آخر أماله فى هذه الحياه ، ثم يتكرر أيضا ذلك الدعاء : " سقاك غيـث " وهو كل مايملكه أى انسان يواجه موت أحبائه ، فما بالنا بأسير جريـح يستشعر مرارة الهزيمة ولم يعد يملك حتى أمره ، فيأتى ذلك الدعاء مجسدا ضعف الشاعر ، وقلة حيلته ، هذا الى جانب ما فى الابيات من دقائق لغويه أخرى من مثل استخدام أبى فراس للفظة : " الاسير " معرفه وكأنـه وحده الذى أسر امعانا فى الاحساس بالحزن والالم وكذلك مافى البيتـين الاخريين من استفهام كثر استخدام أبى فراس له للدلاله على أحزانـه وآلامه ، تماما مثلما فعل أبو الطيب المتنبى .

---

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى /تحقيق ــ الدهان جـ٢ ، ص٢١٦ : ٢١٧

ذلك الاستفهام الذى يتكرر كثيرا فى أبيات ختام هذه القصيدة حين يقول أبو فراس :

الى من أشتكى ؟ ولمن أناجى   اذا ضاقت بما فيها الصدور ؟
بأى دعاء داعية أوقى   بأى ضياء وجه أستنير ؟
بمن يستدفع القدر الموقى ؟   بمن يستفتح الامر العسير ؟

وهكذا تجسد كثرة الاستفهامات فى هذه الابيات أحزان أبى فراس وآلامه ، هذا الى جانب ما يدل على صنعه أبى فراس الفنية فى تراكيبه اللغوية ، والتى يظهرها حرصه على الملاءمة ، والتوافق النغمى بين ألفاظه كتكراره أداة واحدة للاستفهام فى كل بيت ، واتباعها بلفظتين متناغمتين ، متوافقتين من حيث نوعهما اسما كان أم فعلا ، ومن حيث بناؤهما للمعلوم أو للمجهول ، من مثل قوله : " الى من أشتكى ؟ ولمن أناجى ؟ " ، وقوله : " بأى دعاء داعية ؟ بأى ضياء وجه ؟ " ، وقوله " بمن يستدفع القدر ؟ بمن يستفتح الامر ؟ " وذلك كله مما يجعل الابيات فى معرض الغناء وان كان غناء فى مقام الحزن ، والالم ، والاحساس بالفقد ، لا غناء فى مقام الفرح ، والبهجة السرور ، وهكذا يظهر مدى الفرق ، والاختلاف بين لغة شعر أبى فراس الذاتى قبل أسرة ، ولغة ذلك الشعر بعد أن أصبح أبو فراس أسيرا ، جريحا لدى أعدائه ، ويمكن أن نقيس كل أشعاره على ما أوردنا له من نماذج يتضح معها ذلك الاختلاف .

واذا ما تركنا أبا الطيب المتنبى ، وأبا فراس الحمدانى ، وتناولنا

شعر ثالثهما فى التغنى ببطولته ، الشريف الرضى ، الذى عاش حياته متغنيا ببطولته ، تلك التى استشعرها فى نسبة الشريف الى آل البيت وجدنا أيضا أن ضمائر المتكلم تكثر فى أشعار الشريف بشكل ملحوظ كذلك يكثر فى أشعاره ترديد لفظ " الحسد " ومشتقاته ، وهو يشترك مع أبى الطيب المتنبى فى هاتين الخاصيتين ، وان كانت له — الى جانب ذلك — خصائص أخرى تميز لغة شعره الذاتى عن لغة الشعر الذاتى لشعراء القرن الرابع الهجرى ، فهو يتمسك بطريقة الاقدمين ، ويحافظ على أساليبهم ، ومعانيهم ، وذلك راجع الى انتمائه لاسرة نبيلة شريفة وأبناء مثل هذه الاسر يرون أن من واجبهم المحافظة على قديمهم والتمسك به ، لانه — فى نظرهم — تراث آبائهم ، وأجدادهم ، وشعر الشريف الرضى — الى جانب تمسكه بأساليب القدماء — قوى النسج ، فيه متانة وسهولة ، ورصانة ، وفى غزله الذاتى رقة ، وتضبيب بالحجازيات ونساء " نجد " ، " ومكة " ، " ومنى " ، وما ذلك منه الا تمسك بتراث الاقدمين ، ومحاولة الحفاظ عليه .

ومن أمثلة كثرة ورود ضمائر المتكلم فى أشعار الشريف الرضى فى قوله معرض الفخر :

أنا ابن السابقين الى المعالى ... اذا الامد البعيد ثنى البطاء
اذا ركبوا تضايقت الفيافى ... وعطل بعض جمعهم الفضاء
نمانى من أباة الضيم نسام ... أفاض على تلك الكبرياء

شأونا الناس أخلاقا لدانـــا وأيمانا وطابلواعتــــلاء [1]

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الابيات من ضمائر المتكلم مفردة كانت أو جمعا، الى جانب مافيها من ألفاظ، وتراكيب، تساير جو الفخر من مثل، (السابقين الى المعالى، اذا ركبوا تضايقت الفيافى، عطل بعض جمعهم الفضاء) واكتفاوه "ببعض جمعهم" عن كل ذلك الجمع تأكيد على عظمتهم، وهيبتهم فى قلوب أعدائهم، وكذلك من مثل: (نماتى ـ أباه الضيم ـ الكبرياء ـ أخلاقا لدانا ـ اعتلاء).

ثم يستطرد الشريف الرضى فيكثر من استخدام ضمير المتكلم (نحن) موثرا اياه على جميع ضمائر المتكلم:

ونحن النازلون بكل ثغر نريق على جوانبه الدماء

ونحن الخائضون بكل هول اذا دب الجبان به الضراء

ونحن اللابسون لكل مجد اذا شئنا ادراعا وارتداء

وهكذا يتصدر الابيات جميعها ضمير المتكلمين "نحن" مسبوقا بواو العطف التى توضح امتلاك قوم الشاعر لامجاد كثيرة، وعديدة، ثم يلى هذا الضمير خبر معرف بأل على وزن (الفاعلون) ويحرص الشريف على أن يأتى به معرفا امعانا فى التأكيد على تفردهم بهذه الامجاد والمفاخر ثم مجيئه على هذا الوزن بالذات دليل على امتلاكهم لهذه الامجاد امتلاكا قائما، ومستمرا، ثم يلى هذه المشتقات لفظة "كل" التى تفيد

---

(1) ديوان الشريف الرضى ـ المجلد الاول، ص ١٩ : ٢٠ .

الشمول مسبوقة بحرف جر اما " الباء " أو " اللام " يليها مضاف اليه يتناسب مع ذلك المشتق الذى يسبقه " الجار والمجرور " فتأتى لفظة " ثغر " ملائمة "للنازلين " ولفظة " هول " ملائمة " للخائضين " ولفظة " مجد " ملائمة " للابسين " مع حرص الشريف الرضى على أن يكون ذلك الاسم الذى جاء مضافا اليه والذى اختتمت به أشطر الابيات الاولى ، على وزن واحد هو " فعل " فالابيات الى جانب مافيها من ضمائر المتكلمين وما فيها من ألفاظ تجسد الامجاد ، والمفاخر فيها أيضا صنعة فنية حرص عليها الشريف الرضى حتى تلائم جو التغنى الذى يشدو الشاعر من خلاله بأمجاد قومه ، ومفاخرهم ويجسد من خلاله بطولة انتمائه الى هولاء القوم ، ومن أشعار الشريف الرضى التى تتردد فيها كذلك ضمائر المتكلم بكثرة ملحوظة أيضا قوله فى معرض الفخر :

مثواى اما صهوة أو غارب ومناى اما راغب أو قاضب

فى كل يوم تنتضينى عزمة وتمد أعناق الوجاء مسارب

قلب يصادق فنى الطلاب جراءة ومن القلوب صادق ومسارب

ما مذهبى الا التقحم بالقنا بين الضلوع وللرجال مذاهب (١)

وهكذا لا يخلو - أيضا - بيت من هذه الابيات من ضمير يعود على الشاعر مجسدا ذاته ، ومضفيا على تغنيه نغمة الاعتزاز بالنفس ، هذا الى جانب مافى الابيات من ألفاظ تؤكد بطولة الشريف الرضى الحربية التى

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٨٤ .

جانب بطولته النفسية بوصفه سليلا لآل البيت ـ رضى الله عنهم ـ ، وذلك من مثل : (صهوة ـ غارب ـ زاعف ـ قاضب ـ عزمة ـ مآرب ـ جزاء ـ التقحم ـ القنا) .

والى جانب ذلك كله ـ وكما قلت من قبل ـ فان لفظة الحسد ومشتقاتها تتردد فى أشعار الشريف الرضى بكثرة ملحوظة ، وهكذا كل ناجح فى هذه الحياة ، لابد وأن يكثر حاسدوه ، وشانئوه ، فى كل زمان ومكان ، فما بالنا برجل ينتمى الى بيت عفيف ، ونسب شريف لابد بالطبع أن يكون محسودا على ذلك الانتماء الذى يستشعر الشريف من خلاله بطولته الذاتية ومن أشعار الشريف الرضى التى ترددت فيها لفظة " الحسد " ومشتقاتها ، قوله :

وأبى الذى حسد الرجال قديمة ... ان المناقب آية المحسود [1]

وقوله :

يقر بعينى أن أروح محسدا ... فما حسد الحساد غير نبيل [2]

وان كانت نظرته الى الحسد " فى هذا البيت تختلف مع نظرة كل الناس له ، فهو يراه شيئا نبيلا يثلج صدر المحسود حين يرى حساده يتميزون غيظا منه ، وحسدا له ، وحقدا عليه .

وكذلك ترد لفظة الحسد أيضا فى قول الشريف الرضى :

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٢٨٧ .
(٢) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ١٥٢ .

ما رقع الواشون فى ولفقـــوا ... قل لى فاما حاسد أو مشفـــق (١)

وقولـــه :

قد قلت للحساد حين تقارضوا ... حرق القلوب جوى وحـرق الارم

لاتحسدوا المتراد فين على ال ... على والغالبين على السنام الاكوم (٢)

وهكذا يكثر ورود هذه اللفظة فى أشعار الشريف الرضى الذاتيـــة وما هذه الابيات التى سقتها مستشهدا بها الا نماذج لهذه الاشعـــار حيث يضيق المقام عن الاستشهاد بجميعها .

ومن خصائص لغة الشعر الذاتى عند الشريف الرضى — وكما قلت مـــن قبل — تمسكه بأساليب القدماء حفاظا عليها ، على أنها تراث قديم يجب الاحتفاظ به ، والحفاظ عليه ، ولا سبيل الى ذلك الا باستعماله من حين الى حين ، ومن ذلك قوله من قصيدة يرثى بها أباه ، ويتخير لها ألفاظـــا يمليها عليه احساسه ببطولته الذاتية بطولة الانتماء الى آل البيت :

من معشر تخذوا المكارم طعمة ... ورووا من الشرف الاعز الاقـــدم

من جائل أو ذائد أو عاقـــر ... أو ماطر أو منعم أو مرغـــــم

وفروا على المجد المشيد همومـ ... ـهم وتهانوا بالنائل المتهـــدم

عيص ألف تقابلت شعباتــــه ... فى المجد شجر مقوم لمقـــــوم

---

(١) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ٨٢ .

(٢) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثانى ، ص ٢٩٤ .

يتعاورون المكرمات ولادة من بين جد فى المكارم وابنـــم (١)

وكذلك يأتى فى شعر الشريف الرضى ، ما يوضح اقتفاءه أثر القدماء وتمسكه بأساليبهم فى قوله فى معرض رثاء الحسن ــ رضى الله عنه ــ :

يا قتيلا قوض الدهــر بــه عمد الدين وأعــلام الهــدى (٢)

فهو يتأثر فيه برثاء "جليلة بنت مرة" لزوجها "كليب بن وائل" الذى قتله أخوها "جساس بن مرة" ذلك الرثاء الذى تقول فيه جليلـــة مخاطبة زوجها القتيل ، :

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعا ومن عـــل

وأين منزلة كليب بن وائل من منزلة الحسين بن على ــ رضى الله عنه ــ الذى جمع الى عروبته نسبه الشريف الذى يربطه برسول الله ــ صلى اللـــه عليه وسلم ــ ومن أشعار الشريف الرضى التى يظهر فيها تمسكه بأساليـب القدماء ، قوله مستهلا احدى مراثيه لجده "الحسين بن على ــ رضـى الله عنهمـــا ــ" :

هذى المنازل بالغميم فنادهـــا واسكب سخى العين بعد جمادها

ان كان دين للمعالم فاقضـــه أو مهجة عند الطلول ففادهـــا

ياهل تبل من الغليل اليهـــم اشرافة للركب فوق نجادهـــا

---

(١) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ٢٩٤

(٢) المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٤٥ .

نوًى كمنعطف الجنية دونـــه سحم الخدود لهن ارث رماد هـــا

ومناط أطناب ومقعد فتيــــه تخبو زناد الحي غير زناد هـــــا

ومجر أرسان الجياد لغلمــــه سحفوا البيوت بشقرها ووراد هـــا (١)

وصحيح أن الشريف الرضى لم يبك الديار التى بكاها الاقدمون ولكنـه يبكى ديار الشهيد ــ رضى الله عنه ــ وآل البيت ، الا أنه بدا متمسكا بأسلوب القدماء ، موردا كثيرا من ألفاظهم وتراكيبهم .

ومثلما تمسك الشريف الرضى بأساليب القدماء ، وحافظ عليها علـــى أنها تراث يجب الحفاظ عليه ، فقد جاء كذلك غزله الذاتى ــ وكما قلـت من قبل ــ مقصورا على الحجازيات ، وأهل " نجد " ، " ومكة " ، " ومنى " ولقد جاء غزله متميزا برقة أسلوبه وسهولة لغته ، تبدوا هذه السهـولـــة وتلك الرقة فى قوله :

ولقد أقول لصاحب نبهتـــــه فوق الرحالة والمطى رواقــــى

أوما شممت بذى الاباطح نفحه خلصت الى كبد الفتى المشتاق ؟

فجنى نسيم الشيح من نجد لـه حرق الحشى وتحلب الاتــــاق

آها على نفحات نجد انهـــا رسل الهوى وأدلة الاشــــواق (٢)

والى جانب هذه الرقة فى الاسلوب ، والسهولة فى التراكيب ، ففـى

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٣٦٠ ، : ٣٦١

(٢) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ٧٨.

هذه الابيات حنين الى نجد وأهلها ، وشيحها ، وحنين الشريف الرضى الى ذلك كله وهو ببغداد عاصمة الخلافة آن ذاك ، وحاضرتها لدليل على حنينه ، وارتباطه بتلك الارض التى شهدت حياة آبائه وأجداده ذلك الحنين الذى يدفعه اليه احساسه ببطولة الانتماء الى آل البيت وكذلك يأتى غزله رقيق الاسلوب ، سهل العبارة فى قصيدته " الكافية " التى يقول فيها :

يا ظبية البان ترعى فى خمائله — ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه — وليس يرويك الا مدمعى الباكى (١)

وتستمر أبيات هذه القصيدة كلها محافظة على هذه الرقة ، وتلك السهولة ، وفى قصيدة أخرى للشريف الرضى فى الغزل بنساء " مكة ـ منى " يلتزم الشريف فيها أيضا هذه الرقة فى الاسلوب ، وتلك السهولة فى التراكيب ، يقول فيها :

عاد الهوى بظباء مـ — كة للقلوب كما بداها
وجبت عليك منى — تباريح الغرام وبازهاها
طربا على طرب بهـا — يادين قلبك من جواها
انى علقت ظبى منى — لمياء يقتلنى لماها
راحت مع الغزلان قد — لعبت بقلبى ما كفاها (٢)

---

(١) ديوان الشريف الرضى ـ المجلد الثانى ،ج ، ص ١٠٧
(٢) المصدر السابق ـ المجلد الثانى ، ص ٥٦٦: ٥٦٧ .

وتستمر كذلك هذه الرقة ، وتلك السهولة ، حتى ينتهى الشريف الرضى من قصيدته تلك ، التى يبدو من خلالها مرتبطا " بمكة ــ ومنى " ــ الى حد بعيد ــ لا لما فيهما من نساء حسان قد سلبن لبه كما يتوهم من غوله ، ولكن لان على أرضهما الطيبة الطاهرة عاش أسلافه ، وآباؤه وأجداده ، وآله من آل البيت ــ رضى الله عنهم جميعا ــ ، أولئك الذين حس الشريف الرضى ببطولة الانتماء اليهم ، واذا ما تركنا الشريف الرضى الى تلميذه مهيار الديلمى ، وجدناه ينهج نهج الشريف الرضى بوصفه أستاذه ، فيتقفى أثره .

مما يتضح معه أنه متأثر كذلك بعقدته النفسية حتى وهو يختار لغة شعره ، محاولا أن يتغلب على احساسه بالشعوبية الذى كان من أسس عقدته .

يقول د / شوقى ضيف ، فى ذلك : " ان الشريف الرضى هو الذى رعى مهيارا أدبيا ، ومضى معه يثقفه ، ويدربه ، حتى خرجه شاعرا بارعا والشريف بذلك يعد أستاذه الفنى فلا غرابة اذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال استاذه ، وهو نسيج يلاحظ من جهتين :

* جهة معارضه لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن ، والقافية وينظم على غراره .
* ومن جهة ثانية لعلها أهم هى تمثل اتجاهاته الشعرية " . (1)

والى جانب ذلك ففى شعره الذاتى قد ترسم مهيار خطا أستاذه

---

(1) عصر الدول والامارات ، د / شوقى ضيف ، ص ٣٧٥ : ٣٧٦ .

فحذا حذوه ، فى تمسكه بأساليب القدماء ، وفى استعماله لالفاظ كثر استعمال الشريف لها ، مثل لفظه " الحسد " ومشتقاتها تلك التى استخدمها — أيضا — أبو الطيب المتنبى بكثرة ملحوظه ، وكذلك أكثر مهيار من الفخر الذى أكثر منه أستاذه ، واذا كان الشريف الرضى قد فخر بعروبته ، ونسبه ، ومحتده الشريف ، فكذلك فخر مهيار بفارسيه ، ونسبه الذى يعده — هو الاخر — نسبا شريفا ، مثلما رأينا فى الباب الثالث من هذا البحث .

تتردد لفظة " الحسد " ومشتقاتها عند مهيار كثيرا ، مثلما ترددت عند الشريف الرضى (أستاذه) — كما قلت — ومن مثل ذلك قوله :

أتعلمين يابنة الاعاجم كم لاخيك فى الهوى من لائم
يهب يلحاه بوجه طلق ينطق عن قلب حسود راغم (1)

وقوله :

خذ ياحسودى بين جنبيك جوى يرمى الى قلبك بالضرائم (2)

وقوله فى مرثيته " لعلى " — كرم الله وجهه — :

وكم حاسد لى ود لولم يعيبرولم أنا بله فى تأبينكم وأسايف (3)

---

(1) ديوان مهيار الديلمى ، ج ٣ ، ص ٣٣٤
(2) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٥
(3) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

وكذلك قوله فى حساد " على " ـ كرم الله وجهه ـ :

ان يحسدوك فلفرط عجزهم فى المشكلات ولما فيك كمل (١)

ومن فخر مهيار الذى يترسم فيه خطا أستاذه الشريف الرضى فى بأساليب القدماء وفى حرصه على احكام صياغته ، وجزالة الفاظه ، وان كان فخرا بفارس لا بالعرب ، قوله :

أعلى الوفاء بكل فيك تلومنى ؟ يابعد صوتك قائلا من قائل !

ومن التجشم أن تروم بحطة تقصى وقد قتل الحفاظ حبائلى

ولهذه الخضراء تنقل شهبها أدنى عليك من انتقاص فضائلى

أنا من علمت قديمه وحديثه علم اليقين وان جهلت فسائل (٢)

وكذلك قوله من القصيدة نفسها :

قومى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلح بمثل أواخرى وأوائلى

ماضر عيسى فى أرومة " فارس " ألا يكون بخندق أو " وائل "

نحن الولاة العادلون ولم تزل آثارنا حلى الزمان العاطل

زدنا فعذ عم الانام رعائنا عدت الذئاب على السوام الهائل

ويمعن مهيار فى استخدام أساليب القدماء تشبها بأستاذه الشريف

---

(١) ديوان مهيار الديلمى ، ج ٣ ، ص ١١٥

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

الرضى ، والتزاما بنهجه فى ذلك ، فيقول فى القصيدة ذاتها :

من عد نفسا فخره وقبيلـــــه   فلنا أثاره فخره المتقابـــــل
وعلى يقيننا طلاوة ســـودد   تهدى لعينك فائتا من حاصـــل

وكذلك يظهر مدى تمسك مهيار بأساليب القدماء ، ومدى التزامه نهج أستاذه الشريف الرضى فى ذلك ، قوله عن " فارس " وقد نزلت بها نوازل الدهر ، وحلت بها مصائبه ونكباته :

حلت بفارس " بركهـــا   وعلى " الجبال " لها جـــران
وهفا " ببيضاء " المـــدا   ئن " يوم بؤس أرونـــان
و" ببلح " لم تبد الذيــو   ل من الهضاب ولا القنـــان
درج الملوك بها كمـــا   درجت مع الشمس السنـــان (١)

ويظل مهيار فى فخره مترسما خطا أستاذه الشريف الرضى فى تمسكه بألفاظ القدماء ، وأساليبهم ، وحرصه على جزالة ألفاظه ، يظهر ذلك - أيضا - فى قول مهيار مادحا " للفرس " :

بنو السنوات ان هزلت قراهـــا   جدوا سمنوا كرما قراهـــا
لهم نار على شرف المقـــارى   أقر الله عينى من رآهـــا
اذا قصر الوقود الجزل عنهـا   قبيل الصبح مندل موقداهـــا

---

(١) ديوان مهيار الديلمى ، ج٤ ، ص ٤١ : ٤٢ .

تضيء كأنها والليل داج تزيد من جباهم جذاهـا (١)

وكذلك قوله في مديح أحد بني جنسه من الفرس أيضا :

نقل الرياسة كابرا عن كابر قوم اذا غبر المعجول تمهلا

واذا الملوك تدارست أنساب ها ألفيته فيها المعم المخولا

في ذروة الشرف التي لو حلها سعد الكواكب لم يرد متحولا

بيتا عتيقا في السماء بناؤه قدما ومجدا كسرويا أولا

جارى مساعيهم وجاء مبرزا فرع أبر على الاصول وأفضلا (٢)

واذا ما تركنا هؤلاء الشعراء واتجهنا الى شعراء الانحلال الخلقي والمجون في القرن الرابع ، وجدنا أن لغة شعرهم الذاتي زاخرة بالفحش المفرط ، بعيدة عن الحياء ، والوقار ، لا تصور الا حياة اللهو ، والعبث والمجون ، والفجور ، ولا تجسد الا ذلك ، كما جاء في أشعار ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي والواساني ، وان كان الخالديان ممن عاش هذه الحياة وشغل بتلك الملذات ، الا أن لغة أشعارهما الذاتية تنأى — الى حد ما — عن التصريح بالفحش ، والمجون ، والفجور ، وان كانت تدل على لهو وعبث ، وحرص على التمتع بملذات الحياة ، وكذلك كانت لغة الشعر عند الاحنف العكبري مجسدة لعقدة الفقر التي تضخمت في نفسه وتملكت ذاته فاختار من الالفاظ ما يجسدها ونحس في لغة هذه المجموعة من شعراء

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٨ : ١٣٩ .

العبث والمجون وعقد الفقر ميلا شديدا للترخص في اللغة واستخداما لالفاظ الحياة اليومية وروحا شعبيه ترضى أذواق جمهور العامة وهى تدل على نفسها بنفسها ، ولست في حاجة لاعادة ذكر نماذج لاشعار هؤلاء للتدليل على ما أشير اليه فحسبي ما قدمت من أشعارهم في فصول سابقة .

وبعد فهذه بعض سمات لغة الشعر الذاتى في القرن الرابع الهجرى وبعض خصائصها ، كما ظهرت عند أهم شعراء ذلك القرن من أمثال أبى الطيب المتنبى ، وأبى فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ومهيار الديلمى ، وبعض شعراء المجون والانحلال الخلقى ، وشاعر المكدين في القرن الرابع الاحنف العكبرى .

الفصل الثاني

الموسيقى
والصورة الفنية

أولا : الموسيقى

عند البحث عن أوزان شعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع الهجرى يتضح أن شعراء ذلك القرن قد التزموا فى اشعارهم الذاتية موسيقى الشعر العربى والعروض الذى استخرج أسسه الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وقد جاء الشعر الذاتى فى ذلك القرن فى عشرة بحور هى الطويل — والبسيط — والكامل — والوافر — والسريع — والخفيف — والمنسرح والرمل — والرجز — والمتقارب .

جاء الشعر الذاتى لأبى الطيب فى سبعة بحور منها اذا لم يأت له شعر ذاتى فى السريع والرمل .

نظم المتنبى فى بحر الطويل ثلاث عشرة قصيدة ذاتية ، وتلا بحر الطويل كل من البسيط والوافر ، اذ نظم أبو الطيب فى كل منهما ثمانى قصائد ، ثم نظم فى كل من الكامل ، والخفيف أربعا ، ونظم واحدة فى الرجز ، وواحدة فى المنسرح .

ومن القصائد الذاتية الثلاث عشرة التى نظمها أبو الطيب فى بحر الطويل جاءت منها أربع قصائد نظمها أيام صباه ، وشبابه قصيدته التى يستهلها بقوله :

" محبى قيامى ما لذلكم النصل " (1)

---

(1) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ ص ١٦٠ .

وكذلك التى يناجى فيها نفسه :

" الى اى حين انت فى زى محرم " (١)

والتى يستهلها بخطاب صاحبيه :

" قفا تريا ودقى فهاتا المخايل " (٢)

وقصيدته التى يمدح بها عليا بن أحمد بن عامر الانطاكى ويستهلها بالحديث عن نفسه :

" أطاعن خيلا من فوارسها الدهر " (٣)

وجاءت من هذه القصائد التى نظمها ابو الطيب فى بحر الطويل خمس قصائد نظمها فى الفترة التى صاحب فيها سيف الدولة ، واقام خلالها بحلب .

قصيدته التى نظمها مادحا سيف الدولة حين أزمع غزو (خرشنة) تلك القصيدة التى يستهلها أبو الطيب بالتغنى بنفسه ، مجسدا بطولته النضالية :

" عواذل ذات الخال فى حواسد " (٤)

وكذلك قصيدته التى يستهلها بقوله :

" لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى " (٥)

وقصيدته (اللامية) التى يستهلها بقوله :

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ٣٣
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٤
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٨
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨
(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٤

" ليالـــي بعـــد الظاعنيـــن شكـــول " (١)

وقصيدته التى يمدح بها سيف الدولة منتهزا فرصة قدوم عيد الاضحى والتى يختتمها بالحديث عن نفسه متغنيا فى ابيات ذاتية يستهلها بقوله :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم ... فانت الذى صيرتهم لى حســـدا (٢)

وكذلك قصيدته (اللامية) التى نظمها عند دخول رسول الروم على سيف الدولة ، والتى يضمنها ابياتا ذاتية يتغنى فيها بنفسه ، ويـــذم حاسديه ، ويستهل هذه الابيات الذاتية بقوله :

آذا الجود أعط الناس ماانت مالــــك
ولا تعطين الناس ما أنا قائـــــل (٣)

كذلك جاءت من القصائد الذاتية الثلاث عشرة التى نظمها ابو الطيب المتنبى فى بحر الطويل ، اربع قصائد نظمها وهو فى بلاط كافـــــور الاخشيدى : أولاها هى اولى قصائده جميعا فى كافور، تلك الـــتى يستهلها ذلك الاستهلال الغريب ، والتى تتجسد من خلالها بطولتـــه النضالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكون امانيـــا (٤)

وكذلك (ميميته) فى مدح كافور ، والتى يستهلها بالحديث عـــن نفسه ، وماجرى عليه فى هذه الحياة ، ويتغنى فيها بنضاله ضد الزمـــن

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص١٠٨
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص٢٨٩
(٣) ديوان ابى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٣ ص١١٧
(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص٢٨١ .

والحياة ، والناس .

فراق ومن فارقت غير مذمم ـ ـ وأم ومن يممت خير ميمم (1)

وكذلك قصيدة ابى الطيب (البائية) التى نظمها فى مدح كافور حين ارسل اليه كافور ستمائة دينار هدية ، والتى يستهلها بقوله :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ـ ـ واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب (2)

وكذلك آخر مدحه لابى الطيب فى كافور، والتى لم يلقه بعدها تلك التى اسرف ابو الطيب من خلالها فى التغنى بنفسه ، والتى يستهلها ابو الطيب بقوله :

منى كن لى ان البياض خضاب ـ ـ فيخفى بتبييض القرون شباب (3)

ومما سبق يتضح ان بحر الطويل لم يرتبط عند المتنبى بحالة نفسية واحدة ، فقد نظم فيه ابو الطيب وهو ثائر غاضب متغنيا بعزة نفسه وابائه ونظم فيه بعد ان هدأت ثورته بعد لقائه لسيف الدولة ، ومصاحبته اياه ونظم فيه ايضا وهو فى بلاط كافور متغنيا بنفسه ــ على عادته ــ والى جانب بحر الطويل فقد نظم ابو الطيب ــ كما ذكرت من قبل ــ فى بحر البسيط .

نظم ابو الطيب فى هذا البحر ثمانى قصائد ذاتية ــ جاءت منها اثنتان فى مرحلتى صباه وشبابه اولاهما التى يستهلها ابو الطيب بالحديث عن شبيه الذى وخطه غير محتشم ، وهو لا يزال شابا ، والتى يقول فى مستهلها مجسدا نضاله للزمن :

(1) ديوان ابى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ١٣٤
(2) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٦
(3) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٨

ضيف الم برأسي غير محتشم — والسيف احسن فعلا منه باللمم (١)

وثانيتهما التي يمدح بها ابا عبد الله محمد بن عبد الله القاضي الانطاكي ، والتي يستهلها بأبيات ذاتية ، يذم فيها دهره ، ويتغنى من خلالها بنفسه ، مناضلا لذلك الدهر المغشوم :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن — يخلو من الهم اخلاهم من الفطن (٢)

ومن هذه القصائد الذاتية التي نظمها أبو الطيب في بحر البسيط جاءت واحدة نظمها وهو في كنف سيف الدولة بن حمدان ، تلك التي نظمها حين أحس بأن سيف الدولة قد أرهف سمعه لحساد المتنبي وشانئيه فأكثر فيها من التغني ببطولته النضالية في هذه الحياة ويستهلها بقوله :

واحر قلباه ممن قلبه شبم — ومن بجسمي وحالي عنده سقم (٣)

وتأتي من هذه القصائد الذاتية التي نظمها أبو الطيب في بحر البسيط خمس قصائد نظمها بعد فراقه لسيف الدولة ، ولحاقه بكافور الاخشيدي أولاها نونيته التي يستهلها بقوله :

بم التعلل لا أهل ولا وطن — ولا نديم ولا كأس ولا سكن (٤)

وثانيتها (ميميته) في رثاء فاتك الرومي ، ذلك الرثاء الذي يوظفه أبو الطيب لخدمة غرضه .

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٠
(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٢ ص ٣٩ .

ختام نحن نسارى النجم فى الظلم ــ⁻ــ وما سراه على خف ولا قــــدم (١)

وثالثة هذه القصائد الخمس (ميميته) فى هجاء كافور ، والتغــــنى ببطولة النضال :

من أية الطرق يأتى نحوك الكــرم ــ⁻ــ أين المحاجم ياكافــور والجلــم (٢)

ورابعها (داليته) فى هجاء كافور أيضا والتى يستهلها بقولـــــه

عيد بأية حال عدت ياعيـــــد ــ⁻ــ بما مضى أم بأمر فيك تجديـــد (٣)

وخامسة هذه القصائد هى (يائيته) فى رثاء (خولة) اخت سيــف الدولة ، تلك القصيدة التى تضمنت أبياتا ذاتية كثيرة ، والتى يستهلهـــا أبو الطيب بقوله :

يا أخت خير أخ يابنت خيـــر اب ــ⁻ــ كناية بهما عن أشرف النســـب (٤)

ومن تتبعنا لبحر البسيط عند أبى الطيب يتضح أنه قد ارتبط ــ الى حد بعيد ــ بحالة نفسية عاشها أبو الطيب وهو ينظم فى هذا البحر ، فلم ينظم فيه الا وهو يكابد ألما نفسيا أيا كان سبب ذلك الالم ، وأيا كانت بواعثـــه فكل قصائده التى نظمها فى هذا البحر يتجسد من خلالها حزن الشاعـــر وأساه ، اما قبل اتصاله بسيف الدولة ، أو بعد أن استقر به المقام فى بلاط ذلك الأمير ، وبعد أن كيد له وهو فى هذا البلاط ، كذلك بعد فراقـــه لحلب ، ولحاقه بمصر حيث كافور الاخشيدى ، الذى اخذ على ابى الطيـــب طريقه ، ولم يمكنه من مغادرة مصر الى اى مكان اخر ، مما اضطر اباالطيب الى هجاء كافور هجاء لاذعا ، فيه مرارة وأسى ، أكثر مما فيه من شدة وقسوة

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٥
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٠
(٣) ديوان ابى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٢ ص ٣٩ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٩٤ .

كذلك جاء فى هذا البحر رثاؤه (لفاتك) الرومى ، وخولة اخت سيف الدولة ، بعد رحيلهما اذ ذكره رحيل كل منهما بحالته هو ، والتى تستحق الرثاء اكثر من هذين الفقيدين ، وان كانت كل هذه القاصد الذاتية مما يجسد بطولة أبى الطيب النضالية ، وهذه البحور الطويلة التى نظم فيها المتنى وغيره من شعراء القرن الرابع الهجرى اشعارهم الذاتية وقد وجدت من الدارسين اهتماما كبيرا فعن بحر الطويل يقول د / عبد الله الطيب المجذوب : (فى نغمة صلاحية للجد الصريح ، الذى لاتفسده فعقعة ، ولا جلبة » (١)

وعن البحر نفسه يقول د / ابراهيم أنيس : (فى هذا البحر يصب الشاعر أشجانه ، ويجترفه ذكريات ماضية الحزين فى رزانة ، وترسل وجلال وتؤده ، تلائم مقام الحسرة والاسف الهادى » (٢)

وعنه يحدثنا د / على الجندى فيقول : (يسبح فيه كل ذى صدر قوى ونفس مديد ، وحنجرة ضخمة » (٣)

وعن البحر نفسه يتحدث د / محمد النويهى فيقول : (فبحر الطويل بايقاعه البطىء الهادى نسبيا يلائم العاطفة المعتدلة ، الممتزجة بقدر

---

(١) المرشد الى فهم اشعار العرب ، وصناعتها د / عبد الله الطيب المجذوب ـ دار الفكر ، بيروت سنة ١٩٧٠م جـ ١ ص ٣٩١ .

(٢) موسيقى الشعر د / ابراهيم أنيس ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢ ص ١٧٥ .

(٣) الشعراء وانشاء الشعر ـ د / على الجندى ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م ص ١٠٠

بقدر من التفكير والتملى سواء كانت حزنا هادئا لاصراخ فيه ، ام كانت سرورا هادئا لاصخب فيه " (١)

وهذا الراى الاخير للدكتور / النيوهى اقرب الى الواقع ، لان الشعراء ينظمون فى هذا البحر مراثيهم ، وغزلياتهم ، وجل أغراضهم بل من الجائز جميعها ، فهو بنغمه الهادئ يجسد مشاعرهم ، وعواطفهم ، أيا كانت هذه المشاعر ، وتلك العواطف ، تستوى فى ذلك آحزان الشعراء وافراحهم غضبهم ، ورضاهم ، جدهم وهزلهم .

ومما يؤيد ذلك مايقول به أستاذنا الدكتور / محمد مصطفى هدارة (والحقيقة ان محاولة تثبيت لون واحد لوزن من الأوزان جهد ضائع لأن الوزن وحده لايمكن أن يضفى على الشعر لونا معينا ، ولكن جميع عناصر الشكل تتحد فى اعطاء القصيدة لونها) (٢)

وعن البحر البسيط يقول د / ابراهيم أنيس انه يصلح اذا كان انفصال الشاعر من النوع الرزين ، لا الثائر العنيف " (٣)

وهذا مما يتنافى مع ما رأيناه عند المتنبى اذ نظم فيه الرجل وهو غاضب ثائر كأعظم مايكون الغضب ، وأشد ماتكون القسوة ، والثورة .

ويقول عنه د / عبد الله الطيب المجذوب : " ان فى رنة البسيط مسن

---

(١) الشعر الجاهلى منهج فى دراسة وتقويمه د /محمد النويهى جـ١ص٦١

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د /محمد مصطفى هداره ص ٥٣٩

القوة ما يجعله صالحا لمواقف العنف والانفعال الظاهر " (١)

وفى ذلك الرأى - أيضا - تقييد لما يصلح له بحر البسيط فقد رأيناه عند المتنبى لا يصلح للعنف والانفعال فحسب ، بل وجدناه ، أيضا يصلح لمواقف الهدوء والحزن الساكن الرزين .

والى جانب كل من بحرى الطويل والبسيط فقد نظم المتنبى - أيضا - فى بحر الوافر - نظم فيه أشعارا ذاتية تضمنتها ثمانى قصائد ، جاءت خمس منها نظمها أبو الطيب فى فترتى صباه ، وشبابه ، أولاها كانت فى عتاب أبى عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى ، وكان قد عزل ابا الطيب فى اقدامه فى الحرب ، تلك القصيدة التى يستهلها ابو الطيب بقوله :

أبا عبد الاله معاذ انى -"- خفى عنك فى الهيجا مقامى (٢)

وثانية هذه القصائد جاءت فى العتاب أيضا ، وكانت فى عتاب الحسين بن اسحاق التنوخى ، لتصديقه وشاية نسجها قوم مدعين أن أبا الطيب قد هجاه ، تلك القصيدة التى يستهلها أبو الطيب مخاطبا ابن اسحاق هذا بقوله :

أتنكر يابن اسحاق اخائى -"- وتحسب ماء غيرى من انائى (٣)

وثالثتها : (لاميته) فى مدح المغيث بن على العجلى ، والتى يستهلها أبو الطيب بذم الناس ، والحديث عن نفسه ، متغنيا ببطولته

---

(١) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها د / عبد الله الطيب المجذوب الطبعة الاولى سنة ١٩٥٥م جـ ١ ص ٤٧١ .
(٢) ديوان ابى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ ص ٤٤ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٩ .

النضالية مع الزمن والحياة والناس :

فؤاد ماتسليــــه المــــدام ــ"ــ وعمر مثل مايهب اللئـــام (١)

ورابعة هذه القصائد جاءت في مدح بدر بن عمار ، والتي يستهلهـــا أبو الطيب بالحديث عن نفسه ، كما تعود ، وكما عود ممدوحيه .

بقائى شاء ليس هم ارتحـــالا ــ"ــ وحسن الصبر زموا لا الجمالا (٢)

وخامسة هذه القصائد هى (رائيته) التى نظمها أبو الطيب واصفـــا مسيره فى البوادى ، والتى يقول فى مستهلها :

عذيرى من عذارى من امـــور ــ"ــ سكن جوانحـى بدل الخدور (٣)

وينظم ابو الطيب وهو فى بلاط سيف الدولة فى بحر الوافر قصيدة جـاءت فى رثاء والدة سيف الدولة ، وتضمنت هذه القصيدة أبياتا ذاتية تغـــنى ابو الطيب من خلالها بما ناله من دهره ، وبما إصابه من مصائب ذلك الدهـر ونكباته ، وباصراره على نضال ذلك الزمن : تلك القصيدة التى يستهلهـــا أبو الطيب بقوله :

نعد المشرفية والعوالـــى ــ"ــ وتقتلنا المنون بلا قتـــال (٤)

وفى مصر ينظم أبو الطيب فى الوافر قصيدتين ذاتيتين احداهما فى وصف الحمى التى آلمت به وهى ايضا تجسيد لنضال أبى الطيب للمرض الذى هـو احدى مصائب الزمن :

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٩ .
(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٣ ص ٢٢١
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤١
(٤) المصدر السبق جـ ٣ ص ٨ .

ملومكما يجل عن السـلام — ووقع فعاله فوق الكـلام (١)

والاخرى فى هجاء كافور ، والتى يستهلها ابو الطيب بما يجد د بطولته النضالية ضد الزمن والحياة :

أما فى هذه الدنيا كريـم — تزول به عن القلب الهموم (٢)

ومن الملاحظ أن ابا الطيب كما يختار بحر الوافر لينظم فيه أشعـاره الذاتية اذا ما سيطرت عليه أحزانه والامه ، واذا ما أحاطت به النـواز ل والمصائب ، واستبد به اليأس ، تماما مثلما اختار بحر البسيط .

فكل أشعار ابى الطيب الذاتية التى مرت بنا ، والتى نظمها فى الوافـر تتجسد من خلالها احزانه والامه ، حتى وهو يناضل فى سبيل الحياة الحـرة الكريمة التى يتطلع اليها ، فالبحر الوافر ــ على حد تعبير د / عبد اللـه الطيب المجذوب (سريع النغمات ، فيه رنة قوية) (٣)

ويقول عنه د / على الجندى : (من صفات هذا البحر الرشاقة ، والخفة وانه يصلح للاداء العاطفى ، فيه عذوبة ، وسهولة ، سريع النغمات متتابـع النبرات " (٤)

وينظم ابو الطيب الى جانب البحور السابقة فى بحر الكامل ، وتاتى لـه اشعار ذاتية فى هذا البحر تتضمنها اربع قصائد ، جاءت اثنتان منها فـى

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥١
(٣) المرشد الى فهم اشعار العرب جـ ١ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٤) الشعراء وانشاد الشعر ص ١٠٦ .

مرحلتى صباه ، وشبابه ، وواحدة وهو فى بلاط سيف الدولة ، والرابعة نظمها وهو فى مصر ٠

نظم ابو الطيب فى هذا البحر فى مرحلتى صباه وشبابه (همزيته) فى مديح ابى هارون الاوراجي والتى ضمنها ابياتا ذاتية يتحدث فيها عن نفسه ويتغنى من خلالها بامجاده التى تكمن فى نضاله المستمر ويستهلها بقوله :

انا صخرة الوادى اذا مازوحمت — واذا نطقت فاننى الجوزاء (١)

وكذلك قصيدته (التائية) التى يمدح بها آبا آيوب آحمد بن عمران وتتضمن ابياتا ذاتية يتغنى فيها بفتوته ، ومروئته ، وآبوته ، وغير ذلك من عدد النضال المعنوية :

وترى الفتوة والمروة والابـ — ـوة فى كل مليحة ضراتها (٢)

ويمدح أبو الطيب سيف الدولة بن حمدان بقصيدة فى الكامل تتضمن هذه القصيدة تغنيا بالعفة والطهارة على آنهما من عدد النضال ايضا :

وقد استقدت من الهوى وآذقته — من عفتى ماذقت من بلباله (٣)

وتأتى رابعة هذه القصائد التى نظمها أبو الطيب فى الكامل فى رثاء فاتك الرومى ، وهجاء كافور الاخشيدى ، هذا الرثاء ، وذلك الهجاء اللذان يجسدان نضال آبى الطيب ضد الزمن ونكباته :

---

(١) ديوان آبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ١ ص ١٥ ٠
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٧
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٦ ٠

الحزن يقلق والتجمل يـــــردع ـــ ـــ والدمع بينهما عصى طيـــع (1)

وبحر الكامل عند أبى الطيب كبحر الطويل ، ينظم فيه وهو ثائر غاضـــب وينظم فيه وهو هادئ ساكن ، وينظم فيه كذلك وهو حزين أسيف .

ولأبى الطيب فى بحر (الخفيف) أشعار ذاتية تضمنتها أربع قصائـــد منها اثنتان نظمهما أبو الطيب فى مرحلتى صباه ، وشبابه ، وواحدة نظمها وهو فى مصر وواحدة بعد أن ترك مصر ورحل الى الكوفة :

أولى قصيدته اللتين نظمهما أبو الطيب أيام صباه وشبابه (والنيشة) التى جرت عليه تهمة ادعائه النبوة ، والتى يتغنى من خلالها كثيرا بنفســه (2)

وثانيتهما فى مديح على بن أحمد المرى الخراسانى ، والتى يستهلهـا أبو الطيب بالحديث عن نفسه ، مناضلا ، ويستشعر بطولته فى ذلك النضال

لا افتخار الا لمن لا يضـــام ـــ ـــ مدرك أو محارب لا ينـــام (3)

وقصيدته التى نظمها فى بحر الخفيف (وهو بمصر) نونيته) التى يشكو فيها الزمن ، ويندد بأبنائه ويجسد نضاله له ، ويستلهلها بقوله :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانـــا ـــ ـــ وعناهم فى شأنه ما عنانـــا (4)

وقصيدته التى نظمها فى الخفيف وهو فى الكوفة بعد رحيله من مصـــر

---

(1) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٨

(2) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٣

(3) المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٢

(4) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٣٩ .

لاهيته — فى مديح سيف الدولة ، وقد بعث اليه بهدية ، وهى ايضا تجسد نضال ابى الطيب وصبره فى مواجهة تقلبات الدهر ، فالغزل فيها موظف لخدمة الغرض :

مالنا كلنا جو يا رسول — انا اهوى وقلبك المتبول (1)

وابو الطيب كان ينظم فى الخفيف مهما اختلفت عواطفه ، واحساساته تماما مثلما نظم فى الطويل ، والكامل ، وعلى خلاف ما نظم فى البسيط والوافر اذ سادت أشعاره الذاتية التى نظمها فى هذين البحرين عاطفة الأسى واحساسات الألم ، والحزن ، وان ظل على الرغم من هذا الأسى ، وذلك الحزن مناضلا شرسا لا يسلم قيادة للزمن مهما سيطرت عليه أحزانه .

ولأبى الطيب فى الرجز مقطوعة ذاتية واحدة مما قاله فى صباه ، هى التى يقول فيها :

أى محل أرتقى ؟ — أى عظيم أتقى ؟ (2)

وله فى المنسرح قصيدة يمدح بها عليا بن ابراهيم التنوخى ، ويستهلها بالحديث عن نفسه ، مجسدا بطولته النضالية ، وصبره ، وهمته فى مواجهة خطوب الزمان :

أحق عاف بدمعك الهمم — أحدث شىء عهدا بها القدم (3)

---

(1) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤٨ .
(2) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٢ ص ٣٤١ .
(3) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٨ .

هذا عن أبى الطيب المتنبى ، أما أبو فراس الحمدانى فقد نظم أشعاره الذاتية قبل أسره فى أربعة بحور هى الوافر والكامل والطويل والبسيط حسب استخدامه لكل منها .

وبعد ان وقع فى اسر الروم نظم اشعاره الذاتية فى هذه البحور نفسها مع استبدال المتقارب بالبسيط وعلى اختلاف فى ترتيبها ، فقد نظم فى الطويل اكثر من غيره ثم تلاه الكامل ، فالوافر ، فالمتقارب .

نظم ابو فراس قبل أسره فى بحر الوافر عشر قصائد ذاتية يتجلى من خلالها جميعا فخره بنفسه ، وأهله ، وعشيرته ، وتعداده لمآثره ومآثر اله ، وذويه .

أولى هذه القصائد العشر (بائيته) فى الفخر ، التى يستهلها بالغزل الذى يخلص منه الى التغنى بأمجاد قومه ، مجسدا احساسه ببطولة النصر :

ألم ترنا أعز الناس جارا ... وأمنعهم وأمرعهم جنابا (1)

ومن هذه القصائد (لاميته) فى الفخر أيضا ، وتجسيد احساسه ببطولة انتصاراته :

سلى عنا سراة بنى كلاب ... بيالس عند مشتجر العوالى (2)

---

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق د / سامى الدهان جـ٢ ص١٢

(2) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠٦ .

ومن هذه القصائد التى نظمها أبو فراس فى الوافر قبل أسره ميميتـه فى التغنى كذلك بانتصاراته ، وتجسيد احساسه ببطولة هذه الانتصارات :

وزارك يانمير فلا أمـــام ـــ فقد حرم الجزيرة والشـام (١)

وكذلك (رائيته) التى يستهلها بالتحسر على سيب قد ألم به، وتجسد من خلالها كذلك احساسه ببطولة النصر :

عذيرى من طوالع فى عذارى ـــ ومن رد الشباب المستعار (٢)

وكذلك (رائيته) أيضا التى يستهلها بالوقوف على الديار، وانكـاره ذلك موظفا ذلك المطلع لخدمة الغرض الذى ينشده وهو تجسيد احساسـه ببطولته .

وقوفك فى الديار عليك عـار ـــ وقد رد الشباب المستعـار (٣)

وكذلك من القصائد الذاتية لابى فراس والتى نظمها فى الوافر قبل أسره (تونيته) فى الفخر والتغنى بالبطولة التى حققت له الانتصارات العديدة :

سلى فتيات هذا الحى عـنى ـــ يقلن بما رأين وماسمعتـه (٤)

وكذلك قصيدته (الحائية) فى الفخر أيضا :

طلونا جوشنا بأشد منـه ـــ وأثبت عند مشتجر الرمـاح (٥)

---

(١) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٦٠ .
(٢) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٢٥
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٦
(٤) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٦٦ .
(٥) ديوان أبو فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٦٥ .

وكذلك حيميته في الفخر بنفسه ، والتغني بمآثره ، ومناقبه ، ومفاخره وتجسيد بطولته واحساسه بتلك البطولة :

ألا من مبلغ سروات قومي — وسيف الدولة الملك الهماما (١)

وجاءت في الوافر كذلك (لاميته) في الفخر والتغني بشجاعته وشجاعة قومه في موقعة كانت لهم مع الروم يجسد من خلالها أبو فراس احساسه ببطولة النصر كذلك :

أسيف الدولة المأمول اني — عن الدنيا اذا ماعشت سالي (٢)

وكذلك مقطوعته اللامية ، والتي جاءت في التغني بما أحدثه بني قشير مجسدا كذلك احساسه بهذه البطولة :

أيا عجبا لأمر بني قشير — أراعونا وقالوا القوم قل (٣)

ويبدوا أن نغمات الوافر السريعة المتلاحقة ورنائه القوية ، ونبراته المتتابعة ، قد وجد فيها أبو فراس متسعا ، ومجالا رحبا ، فنظم فيه معظم قصائده في الفخر قبل أن يقع في أسر الروم ، ويذوق طعم الاسار ويحس ذل القيد ، اذ أنه بعد أسره لم ينظم في هذا البحر سوى ثلاث مرات .

والى جانب الوافر ، فقد نظم أبو فراس — كما قلت — قبل أسره في الكامل نظم فيه خمس قصائد ، أولى هذه القصائد (نونيته) التي استهلها بالغزل وسؤال الربع ، والوقوف بالديار ، وبكاء أهلها الراحلين ثم يخلص من ذلك الى الفخر بنفسه ، وقومه مجسدا بطولته ، وانتصاراته واحساسه بهذه البطولة وتلك الانتصارات :

---

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ٢٦٤ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان جـ١ ص ٢٨٢

هذا وكم من غمة كشفتهـــا — بشبا الظبا وتوقد الخرصـان(١)

وكذلك (بائيته) في الفخر :

لمن الجدود الأكرمــو — ن من الورى الا لـيـه(٢)

وكذلك تأتى فى الكامل (ميميته) التى يتغنى فيها بشجاعته ولقائـه الاعداء :

لاعز الا بالحسام المخـــذم — وضراب كل مدجج مستلئـم(٣)

ومن هذه القصائد (نائيته) التى نظمها حين عتب عليه سيف الدولـة لامساكه عن اختيار شىء من خيوله لنفسه :

غيرى يغيره الفعال الجافـى — ويحول عن شتم الكرام الوافـى(٤)

وكذلك جاءت فى الكامل مقطوعة أبى فراس (الميمية) فى الفخر :

انا اذا اشتد الزمـــا — ن وناب خطب وادلهــم(٥)

والى جانب الوافر والكامل فقد نظم ابو فراس قبل أسره فى الطويـل نظم فى هذا البحر قصيدتين أولاهما هى أطول قصائده جميعاء بل هـى

---

(١) ديوان ابى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص

(٢) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٨١

(٣) أبو فراس الحمدانى ، السيد محسن الأمين العاملى ص ٩١

(٤) ديوان ابى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٥) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٦١ .

هى أطول قصيدة فى الفخر فى الشعر العربى ، وهى (رائية) أبـــى فراس التى يستهلها بقوله :

لعل خيال العامرية زائـــــر ـــ فيسعد مهجور ويسعد هاجر (1)

وثانيتهما (ميمية) فى الفخر ، والتى يستهلها بالوقوف على الأطـلال الذى يوظفه أبو فراس لخدمة غرضه الذى يرومه ، والذى يقصد من ورائـــه التغنى بنفسه، وتجسيد احساسه ببطولته وانتصاراته ٠

سل الدهر عنى هل خضعت لحكمه ـــ وهل راعنى اضلاله وأراقـــه (2)

ونظم كذلك أبو فراس قبل أسره فى البسيط، ولكنه نظم فيه مقطوعـــة واحدة هى (نونيته) فى الفخر التى يقول فى مستهلها :

اذا مررت بواد جاش غاربـــه ـــ فاعقل قلوصك وانزل ذاك وادينا (3)

ويقع ابو فراس فى اسر الروم ، ومن بلاد الروم يسجل اعذب أشعـــاره الذاتية ، ويختار لاشعاره الذاتية تلك اربعة بحور هى على الترتيب الطويل والكامل ، والوافرة ، والمتقارب ٠

ينظم ابو فراس فى الطويل ست قصائد ومقطوعة ، هذه القاصد هـــى (داليته) التى كتب بها الى سيف الدولة يناشده التعجل فى افتدائـــه مجسدا من خلالها بجرح هزيمته :

---

(1) ديوان ابى فراس الحمدانى تحقيق الدهان ج ٢ ص ١٠٣
(2) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣٨٠
(3) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٧٠ ٠

دعوتك للجفن القريح المسهـــــد ـــ لدى وللنوم القليل المشرد(1)

و (رائيته) التى نظمها متغنيا بنفسه ورادا على الروم حين بلغـــه أنهم يمنون عليه أن خلوا سلاحه :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ـــ أما للهوى نهى عليك ولا أمـر(2)

وكذلك قصيدته (السينية) التى كتب بها أيضا الى سيف الدولة والتى يستهلها بقوله :

وماكنت أخشى أن أبيت وبيننـا ـــ خليجان والدرب الاشم وباليس(3)

وكذلك (عينيته) التى كتب بها بعد أن أحس ضيق سيف الدولـــة من توالى كتابات أبى فراس له . والتى يستهلها بقوله :

أبى غرب هذا الدمع الا تسرعـا ـــ ومكنون هذا الحب الا تضوعـا(4)

وكذلك جاءت فى الطويل (بائيته) التى كتب بها الى سيف الدولـة معاتبا أيضا حين علم أنه قد امتنع عن اخراج ابن أخت ملك الروم الا بفـــداء عام ، والتى يتجسد من خلالها كذلك احساس أبى فراس بألم أسره وجـرح هزيمته :

أما لجميل عندكن ثـــــواب ؟ ـــ ولا لمسيئ عندكن متـاب ؟(5)

وكذلك (لاميته) التى كتب بها من أسره الى أمه ، وقد ثقلت علتـــه وزادت آلامه والتى يستهلها بقوله :

---

(1) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٧٨
(2) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٩
(3) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٤
(4) المصدر السابق جـ١ص ٢٤٥
(5) المصدر السابق جـ١ص ٢٢

مصابي جليل والعزاء جميل — وظني بأن الله سوف يديل[1]

أما المقطوعة التي نظمها أبو فراس في الطويل بعد أسره فهي (لاميته) التي نظمها حين سمع بالقرب منه حمامة تنوح على فرع شجرة تلك المقطوعة التي يستهلها أبو فراس بقوله :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة — أيا جارتا هل تشعرين بحالي[2]

ومما سبق يتضح أن أبا فراس قد اختار بحر الطويل بتفعيلاته المتعددة وآثره لينظم فيه جل رسائله الى ابن عمه ، والى أمه ، تلك الرسائل التي يصب فيها أشجانه ، ويجتر من خلالها أحزانه ، ذاكرا ماضيه ، وما كان له في ذلك الماضي من أمجاد وانتصارات .

وما أظن الا أن الدكتور/ ابراهيم أنيس كان ينظر الى أبي فراس وهو يسجل رؤيته عن بحر الطويل قائلا : " في هذا البحر يصب الشاعر أحزانه ويجتر فيه ذكريات ماضيه الحزين في رزانة ، وتوسل ، وجلال وتؤدة تلائم مقام الحسرة ، والأسف الهادئ " [3]

والى جانب بحر الطويل ، فقد نظم أبو فراس بعد أسره في الكامل نظم فيه أربع قصائد ، ومقطوعة ، هذه القصائد هي (لاميته) التي كتب بها الى سيف الدولة أيضا ، مناشدا اياه التسرع في المفاداة به ، والتي تجسد كذلك احساسه بالألم بعد أن هزم وأسر :

---

(1) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٣

(2) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٢٧

(3) موسيقى الشعر . د / ابراهيم أنيس ص ١٧٥ .

هل تعطفان على القليـــــل ـــ لا بالأسير ولا القتيـــــل (١)

وكذلك (نونيته) التي كتب بها الى سيف الدولة لا مطالبا بافتدائـــه بل محذرا اياه من خروج الدمستق في جموع من جيوشه ، قاصدا سيف الدولة تلك النونية ، التي يستهلها أبو فراس بالوقوف على الأطلال للمحبوبـــة ولكنها أطلال أهله وذويه ، الذين حرم منهم بأسره وبعادة :

أتعز أنت على رسوم كثفـــان ـــ فاقيم للعبرات سوق هـــوان (٢)

وكذلك جاءت في مجزوء الكامل (يائيته) التي كتب بها الى امـــه مناشدا اياها الصبر، وحسن التأسي ، والتي يستهلها بقوله :

لولا العجوز بمنبـــــج ـــ ماخفت أسباب المنيـــــة (٣)

وكذلك ينظم أبو فراس في مجزوء الكامل (رائيته) التي نظمها حين مـر (بخرشنة) وهو أسير ، فهيجت هذه المدينة ذكرياته ، وأعادت اليه صـــورا من أيام مجده ، وانتصاراته ، تلك القصيدة التي يستهلها أبو فراس بقوله :

ان زرت خرشنة أسيـــــرا ـــ فلكم احطت بها مغيـــــرا (٤)

ومقطوعة أبي فراس التي نظمها في مجزوء الكامل الى جانب هـــــذه القصائد السابقة هي (بائيته) التي رثى بها نفسه ، وخاطب فيها ابنتـــه مناشدا اياها الصبر ، والتجمل به ، والتي يقول في مستهلها :

---

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٤٤

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ (٣) المصدر السابق ص ١٨٢

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٠٧ .

أبنيتى لاتحزنى ـــ كل الأنام الى ذهاب[1]

والى جانب الطويل والكامل فقد نظم أبو فراس بعد أسره كذلك فى الوافر ، نظم فيه ثلاث قصائد ، احداها (بائيته) التى يرد بها على سيف الدولة حين عاتبه ، والتى تجسد احساسه بجرح الهزيمة ومرارة الأسر

زمانى كله غضب وعتب ـــ وأنت على والأيام الب[2]

وثانيتها (ميميته) التى نظمها بعد مناظرة جرت بينه وبين الدمستق والتى يستهلها بقوله :

يعز على الأحبة بالشام ـــ حبيب بات ممنوع المنام[3]

وثالثة هذه القصائد التى نظمها أبو فراس فى الوافر بعد أسره هى (رائيته) فى رثاء أمه ، وقد ماتت وهو بأرض الروم ، والتى يستهلها بقوله

أيا أم الأسير سقاك غيث ـــ بكره منك مالقى الأسير[4]

وينظم أبو فراس فى المتقارب أيضا بعد أسره ، ويأتى له فى هذا البحر قصيدة واحدة هى (بائيته) التى كتب بها الى سيف الدولة معاتبا حين نسب اليه سيف الدولة كلاما لم يقله ، والتى تظهر كذلك احساس أبى فراس بالألم من جراء ماحدث له وما جرى عليه :

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧

(٢) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٨

(٣) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٥٨ .

(٤) ديوان أبى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢١٦ .

أسيف الهدى وقريع العـــرب — علام الجفاء ؟ وفيم الغضب ؟ (١)

والى جانب أبي الطيب المتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، فقد نظـــم شعراء القرن الرابع الهجرى أشعارهم الذاتية فى هذه البحور التى نظم فيها المتنبى وأبو فراس .

نظم الشريف الرضى أشعاره الذاتيةفى أربعة بحور هى على الترتيـــب كما جاءت عنده — الكامل ، والوافر ، والطويل ، والبسيط .

فقد نظم فى الكامل احدى وعشرين قصيدة ، ونظم فى الوافر ستعشرة ونظم فى الطويل سبعا ، وفى البسيط ستا ، ويمكن الرجوع الى الفصـــل الثالث من الباب الأول من هذا البحث ، الذى عقدناه لدراسة الشعـــر الذاتى للشريف الرضى ليتضح أن الشريف الرضى لم يتعد هذه البحـــور الأربعة فى أشعاره الذاتية .

فاذا جئنا الى شعراء المجون والاتجاه العبثى وجدنا اختيارهـــم للبحور مغايرا لما وجدناه عند المتنبى وأبى فراس والشريف الرضى ، فهـــم يجعلون أغلب شعرهم فى البحور الغنائية أو القصيرة ويضربون — الا فيمـــا ندر — عن البحور المعقدة الطويلة التى لا تتناسب مع أغراضهم الذاتيـــة وما تتميز به من خفة وسرعة ونزق وطيش ورغبة فى الوصول الى عامة الجمهـــور فابن الحجاج ، وابن سكرة ، ينظمان اشعارهما الذاتية ، التى جسدا من خلالها مجونهما ، وعبثهما ، وفحشهما ، وانحلالهما ، الخلقى فى خمســـة

---

(١) ديوان ابى فراس الحمدانى تحقيق الدهان جـ ٢ ص ٢٦

بحور هى : الوافر ، والكامل ،والطويل ،والمتقارب ، والبسيط نظم ابن الحجاج فى الوافر اثنتي عشرة قصيدة ، وفى الكامل تسعا ، وفى كل من الطويل والمتقارب قصيدتين وواحدة فى البسيط .

ونظم ابن سكرة فى الوافر سبعا ، وفى الكامل ستا ، وفى البسيط ثلاثا ، وفى كل من الطويل ،والمتقارب قصيدتين .

ونظم الواسانى أشعاره الذاتية فى المنسرح ، والكامل ، والسريع والخفيف ، وجاء شعر الوأواء الدمشقى الذاتى فى البسيط والكامل والمتقارب والوافر والخفيف والطويل ، والرجز ، والرمل .

وكذلك نظم الخالديان أشعارهما الذاتية فى هذه البحور نفسها اذ نظم أبو بكر الخالدى أشعاره الذاتية فى الكامل والبسيط ، والمنسرح والمتقارب ، والوافر ، والطويل ، والخفيف ، والرمل .

وجاء شعر اخيه أبى عثمان فى الكامل ، والبسيط ، والوافر ، والمنسرح والرمل ، والرجز ، والسريع ، والطويل ، والخفيف .

هذا من ناحية الأوزان ، أما من ناحية القوافى ، فقد نهج شعراء القرن الرابع الهجرى فى شعرهم الذاتى نهج الاقدمين فى سيرهم على نظام القافية الواحدة .التى ساعدت ــ كما يقول أستاذنا د / محمد مصطفى هدارة ــ على استكمال البناء الموسيقى للشعر ، وأسهمت فى سهولة حفظه ، وروايته .(1)

(1) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى د /محمد مصطفى هدارة ص ١٠ .

وان كانت القوافى لم تحظ بما حظيت به الأوزان من اهتمام الدارسين من قدامى ، ومحدثين الا أن واحدا كابن طباطبا قد أشار الى شيء من التناسب بين القوافى ، وأفكار الشاعر ، وأوزانه ، عندما تحدث عن صناعة الشعر قائلا : " اذا أراد الشاعر محض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرا ، وأعد مايلبسه اياه من الألفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس له الوزن عليه " (١)

أما د / محمد غنيمى هلال ، فان له رأيا ربما يخالف ماذهب اليه ابن طباطبا فهو يرى : أن ليس ثمة قاعدة تربط حروف القوافى بموضوع الشعر ، والأمر فى ذلك كالعلاقة بين بحور الشعر وموضوعاته (٢) ولكن الدكتور / محمد النويهى ممن يؤيدون الربط بين القوافى والأغراض اذ يقول : (فالقارىء المتطلع على الشعر القديم ، يلاحظ مثلا كثرة ورود حرف العين رويا لقصائد الرثاء ، الأمر الذى يلفتنا الى مافى العين من مرارة ، وتعبير عن الوجع ، والجزع ، والهلع ، كما يلاحظ ورود حرف السين رويا لقصائد كثيرة عاطفتها الأساسية الأسى والحسرة " (٣)

والواقع أن رأى د / غنيمى هلال الذى يخالف ماذهب اليه ابن طباطبا ود / النويهى ، هو الأقرب الى الواقع والمنطق ، لأن ربط حروف القوافى بموضوع الشعر شيء يبدو مستحيلا ، ودليل ذلك أننا لوطبقنا ماذهب اليه

---

(١) عيار الشعر لمحمد بن طباطبا العلوى تحقيق د /طه الحاجرى ، ود / محمد زغلول سلام ، شركة فن الطباعة بالقاهرة سنة ١٩٥٦م ص ٥ .

(٢) النقد الأدبى الحديث د /محمد غنيمى هلال ، دار مطابع الشعب بالقاهرة ــ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤م ص ٤٧٧ .

(٣) الشعر الجاهلى ، منهج فى دراسته ، وتقويمه د /محمد النويهى جـ١

د /النهويهى من أن حرف العين قد جاء رويا لأكثر قصائد الرثاء قديما وأن حرف السين يعبر عن الأسى والحسرة ، أقول لو طبقنا ذلك على شعر التعبير عن الذات في القرن الرابع الهجرى لم نجد له نصيبا من الصحة .

فالشريف الرضى — مثلا — وهو من أكثر شعراء القرن الرابع نظما في الرثاء قد استخدم حرف (اللام) رويا لقصائد فى الرثاء أربع مرات بينما استخدم الميم ، والقاف ، والراء ، والعين مرتين ، واستخدم الفاء والكاف والدال مرة واحدة .

وكذلك أبو الطيب المتنبى فى مراثيه استخدم الميم رويا لقصائد الرثاء ثلاث مرات ، بينما استخدم العين ، والياء ، واللام ، والراء مرة واحدة وأبو فراس الحمدانى فى أعذب قصائده الذاتية ، والتى رثى بها أمه قد استخدم فيها حرف الراء رويا .

من كل هذا يتضح لنا أن شعراء القرن الرابع الهجرى قد سلكوا فى شعرهم الذاتى مسلك القدماء فى أوزانهم ، وفى محافظتهم على نظام القافية الموحدة ولكنهم استطاعوا أن يخرجوا عن حدود (التقليدية) فى أشعارهم بما صاغوه من أحاسيس ذاتية صادقة عبروا بها عن أنفسهم بل عن أعماق أنفسهم بما يكون فيها من عقد ومشكلات نفسية ، وبما استخدموه من لغة وصور وأخيلة تتناسب مع شعرهم الذاتى .

ثانيا : الصورة الفنيـــــة

مما لاشك فيه أن الصورة الفنية لها مكانتها المهمة فى عالم الفـــــن عامة ، اذ لايمكن أن يخلو أى عمل فنى منها ، فالفنون مهما اختلفـــت انواعها ، وتباينت اقسامها تعتمد اولا وقبل كل شىء على التصويـــــر والشعراء أكثر من غيرهم تبدو حاجتهم الى التصدير ماسة ، لأنهـــــم لايعبرون ــ حين يعبرون ــ عن فكر مجرد من الاحساس ، والشعور أو عن علم له نظرياته العقلية والثابتة ، وحقائقه المستقرة الراسخة عنـــــد اصحابه ، وعند الناس .

أما الشاعر فمهمته تتعدى ذلك الى بعث المتعة ، وايقاظ الاحساس بها عند المتلقى ، من هنا كانت الصورة الفنية ، أو الصنعة الشعريـــة هدفا من اهداف الشعر ، وغاية من غايات الشعراء على اختـــــلاف ألسنتهم وبيئاتهم ، وظروف حيواتهم .

يقول أستاذنا د / محمد مصطفى هدارة : " حينما قال الجاحـــظ أن الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير ، لم يكـــن يتحدث عبثا ولكنه كان يعى مايقوله بعقل المفكر ، واحساس الفنـــان فالشعر لايمكن أن يسمى شعرا مالم تدخله الصناعة الفنية الدقيقة لتبـــرز معانيه ، وتضعها فى صور رائعة معجبة يضفى عليها الخيال الوانــــا جذابة فتعلق بالنفوس ، وتناط بالعقول ، ويحس الانسان معها بمتعــة الحس ، ولذة القراءة ، والتفكير معا ، ان المعانى المجردة قد تكـــون أساسا فى حقائق العلوم ، والمعارف الانسانية ، ولكنها لايمكن أن تكـون

أساس الشعر وغايته بل لابد أن يصوغها الشاعر صياغة جديدة تظهر فيها براعته وقوة تخيله ، ودقة فنه ، وصدق احساسه ، وهذه الصياغة هي ماتعبر عنه بالصنعة الشعرية .(1)

ومادام الشعر لايكون شعرا الا اذا دخلته الصفة الشعرية فكل مايهمنا فى هذا المقام هو تبين مدى مافى شعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع الهجرى من صنعة فنية .

وشعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع الهجرى قد اعتمد — فى كثير من الأحيان — على التصوير الذى يضفى به الخيال على الشعر ألوانا جذابة فيستطيع بذلك أن يجذب اليه عقل قارئه ، وسامعيه ، ويعلق بنفسه ،فيحس الانسان ساعتها باحساس الشاعر، ويستطيع أن يشارك الشاعر مشاعرة واحساساته .

والصورة الفنية انما هى التجسيد الحى لفكر الشاعر وذاتيته وأحاسيسه وتشارك عناصر كثيرة فى هذا التجسيد قد تبدو أحيانا فى الصنعة اللفظية : وهى مافى الشعر من زخرف لفظى يرجع الى الجناس والطباق ، والمقابلة ، والتورية .

كما تشارك فيها وسائل التخيل التى تتمثل فى الكتابة ، والاستعارة والتشبيه ، والتمثيل ، والمجاز وما الى ذلك .

---

(1) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د /محمد مصطفى هدارة ص ٥٦٦ .

وسنجد أن كل هذه العناصر تتحد مع المضمون لابراز الصورة التعبيرية الفنية فى الشعر فالمتنبى فى قصيدته الميمية التى نظمها فى حماة التى داهمته بمصر يجسد كثيرا من الاشياء عن طريق التصوير الفنى الذى يعطى شعره مذاقا خاصا ، فيعجب من الانسان الذى توفرت له كل أسباب القوة لكنه ليس بحازم فى الامور فيشبهه أبو الطيب بسيف قد نبا حده وهى صورة قد وظفها أبو الطيب كذلك لتحقيق ذاته الكامنة فى احساسه بطولة النضال :

عجبت لمن له قد وحد ـــ ويبنو نبوة القضم الكهام (١)

ويصور الشاعر طول مرضه ، فيعبر عن ذلك بصورة فنية فى قوله

وملنى الفراش وكان جنبى ـــ يمل لقاءه فى كل عام (٢)

تجسد نضال أبى الطيب ضد المرض ، وحين يتحدث عن الحمى يجعلها زائرة حيية تخشى أن يراها الناس ، فهى لاتأتيه الا فى الظلام ولاشك فى أنها صورة رائعة لافتة للذهن ، محركة للخيال :

وزائرتى كأن بها حياء ـــ فليس تزورا الا فى الظلام

وعندما يريد تصوير مدى الاجهاد الذى يحل به نتيجة مايتصبب منه من عرق عند مفارقة الحمى لجسده فيجسم ذلك عن طريق صورة فنية يجسد فيها نضاله ضد المرض الذى هو واحد من خطوب الدهر الذى ناضله أبو الطيب كثيرا :

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ ص ١٤٥ .

اذا مافارقتنى غسلتنى ـــ كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى ـــ مدامعها بأربعة سجام

وعندما يبلغ الضيق بأبى الطيب كل مبلغ ، وينال منه المرض كل منال يناجى الحمى مجسما اياها ، شاكيا لها ، ويصوغ ذلك فى صورة فنية قائمة على الاستعارة التى تجسد المعنوى فى صورة الحسى يقول أبوالطيب

أبنت الدهر عندى كل بنت ـــ فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق فيه ـــ مكان للسيوف ولا السهام

وهى صورة توحى بتاريخ أبى الطيب الطويل فى النضال ، ويجهل الطبيب المعالج كنه مرض أبى الطيب ، ويحار فى علاجه ، ويشخص المرض على غير حقيقته ، ويصور المتنبى ذلك فى صورة فنية يرى فيها نفسه جوادا قد تعود دخول المعارك وكان يراها غايته وهدفه ، ولايجد لذة نفسه ومتعة روحه الا فيها ، ثم هاهو ذا يحرم مما كانت تهواه نفسه ويهفو اليه فؤاده ، لأنه عاش مناضلا لم يتعود الهدوء والسكون والجمود .

يقول لى الطبيب أكلت شيئا ـــ وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد ـــ أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر فى السرايا ـــ ويدخل من قتام فى قتام
فأمسى لايطال له فيرعى ـــ ولا هو فى العليق ولا اللجام

والقصيدة تمتلىء بمثل هذه الصور الفنية التى يضيق المقام هنا عن ايرادها كلها والتى وظفها أبو الطيب ـ كما قلت لتحقيق ذاتيته التى يستشعرها أبو الطيب فى نضاله ، والمتنبى فى قصيدته الدالية التى نظمها عند خروجه من مصر يهجو بها كافورا ويجتر من خلالها أحزانه وآلامه

وقد قدم العيد عليه ، وهو غريب عن اهله ، فى هذه القصيدة يجسد المتنبى العيد فيناجيه فى شكوى المناضل الذى لايهدا والذى تحالفت عليه خطوب الزمان فيقول :

عيد بأية حال عدت ياعيد — بما مضى أم بأمر فيك تجديد (١)

ويتحدث أبو الطيب عن اهل مصر انذاك ، اولئك الذين غفلوا عن حقوقهم وتركوا حكامهم يعيثون فى الارض فسادا ، ويصور المتنبى ذلك من خلال صورة فنية يتعانق فيها عالم الحيوان مع النبات ، ويتجسد فيها حزن مناضل يرى الناس قد كرهت النضال وأثرت السلامة مع الذل :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها — فقد بشمن وماتفنى العناقيد

وعندما يهجو ابو الطيب كافورا يصوره فى اقبح صورة تأنف منها النفس الانسانية :

ما كنت أحسبنى أبقى الى زمن — يسيء بى فيه كلب وهو محمود

ويموت فاتك الرومى ، وقد كان يحتل فى نفس أبى الطيب منزلة عالية ومكانة رفيعة ، فيبكيه المتنبى ، ويذم الزمن الغادر ، فيصور ذلك الزمن انسانا منافقا ، خداعا ، ويأتى ذلك من خلال تصوير الزمان فى صورة كريهة يعرفها حق المعرفة ، ذلك المناضل لزمنه ، المعارف مكر عدوه وخداعه من كثرة ما ناضله وجربه :

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ٢ ص ٣٩ .

قبحا لوجهك يازمان فانــــه ــ٭ــ وجه له من كل لؤم برقـــع (١)

ويصوغ المتنبي احدى نصائحه للانسان في صورة فنية تبرز مدى ما حـل بالناس من خداع ، ونفاق :

ولا تشك الى خلق فتشمتـــه ــ٭ــ شكوى الجريح الى الغربان والرخم (٢)

وهى صورة قائمة على تجسيد النضال والصبر وقوة التحمل التى تميـز المناضلين عن غيرهم ، ومن صور المتنبى الرائعة تجسيده للموت فحين ماتت (خولة) أخت سيف الدولة ، أخذ المتنبى فى مناجاة الموت مجسـدا ومجسما ، يقول أبو الطيب مخاطبا الموت الذى لا يجدى معه نضال مهمـا كانت قوة المناضلين :

غدرت ياموت كم أفنيت من عـــدد ــ٭ــ بما أصبت وكم أسكت من لجبــه (٣)

ومن جميل الصور الفنية للمتنبى تصويره للدهر راميا بسهام حصائبـه التى لا تخطىء متخذا من قلب الشاعر هدفا لنباله وسهامه :

رمانى الدهر بالأرزاء حـــتى ــ٭ــ فؤادى فى غشاء من نبـال
فصرت اذا أصابتنى سهـــام ــ٭ــ تكسرت النصال على النصـال (٤)

وهى أيضا صورة تجسد نضال أبى الطيب لزمنه ، واحساسه ببطولتـه الذاتية تلك .

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٢ ص ٢٧٥ .
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٨٧
(٤) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى جـ ٣ ص ٩ .

ويظل أبو الطيب مناضلا زمنه في سبيل تحقيق أهدافه ، وغاياته في غير طائل ، ويصور ذلك من خلال هذه الصورة :

أريد من زمني ذا أن يبلغني ـ ـ ماليس يبلغه من نفسه الزمن (١)

ويدفع أبا الطيب احساسه ببطولته النضالية الى ذم ملوك زمنه الذين تقاعسوا عن النضال ، ويصوغ ذلك من خلال صورة تمتلئ بالسخرية والتهكم

ودهرناسه ناس صغـار ـ ـ وان كانت لهم جثث ضخـام

وما أنا منهم بالعيش فيهـم ـ ـ ولكن معدن الذهب الرغـام

أرانب غير أنهم ملـوك ـ ـ مفتحة عيونهم نيـام (٢)

وتظهر في الأبيات الصنعة الشعرية بجانبيها اللفظي والمعنوي فالبيت الأول والبيت الثالث فيهما صنعة لفظية ، تظهر فيهما في البيتين من طباق بين (صغار ، وضخام ، وبين أرانب وملوك ، وبين مفتحة عيونهم ونيام) وقد أراد بهذه المطابقات أن يظهرنا على التناقض الذي يعيش فيه العصر والذي تحسه نفسه الأبية .

وتظهر في البيت الثاني صورة فنية معنوية قوامها التشبيه الضمني الذي يفرق به الشاعر بين نفسه الأبية العظيمة ، وبين نفوس الناس من حوله ، والتشبيه الضمني يأتي عند المتنبي كثيرا ، فمن نماذجه التي يجسد بها أبو الطيب بطولته النضالية ، التي وجد فيها ذاته قوله :

---

(١) المصدر السابق ج٤ ص ٢٣

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٧٠

ان تريني أدمت بعد بياض ـــ فحميد من القناة الذبـــول (١)

وهي صورة فنية تبدو فيها الصنعة الشعرية بشقيها المعنوي واللفظي فالصنعة اللفظية في الطباق بين (أدمت وبياض) والصنعة المعنوية تظهر في ذلك التشبيه الضمني الجميل الذي لم ير المتنبي نفسه من خلاله الا قناة لوحتها الشمس حتى ذبلت وصلب عودها ، وهكذا فعل به نضاله ضد الزمن والحياة والناس ، حتى خرج منها صلبا صلابة هذه القناة .

والمتنبي يدافع عن احساسه بنضاله يرى ان شيبه يعوقه عن مواصلة ذلك النضال الذي ضمن له البطولة ، فيتحسر على مقدم ذلك الشيب الذي الم به ، ويجسد ذلك التحسر من خلال صورة فنية يجسم من خلالها أبو الطيب شيبه :

ضيف ألم برأسي غير محتشم ـــ والسيف احسن فعلا منه باللمم (٢)

فالتشبيه في قوله (ضيف) يوحي ببعد همة أبي الطيب لأن فيه همة الشباب وقوتهم لذا فالشيب غريب عليه لا يعرفه ، ثم يزيد أبو الطيب هذه الصورة جمالا بقوله (غير محتشم) مما يوحي بثقل ذلك الضيف على نفسي ذلك المضيف ، واذا كان الضيف غير محتشم ، فيالنكبة مضيفه به .

وهذه الأمثلة التي قدمتها لشعر أبي الطيب المتنبي الذاتي ، والتي تمثل قدرته على التعبير الفني اكتفاء بها عما سواها فكلها تظهر أن أبا الطيب في أشعاره الذاتية يجسد بطولة النضال عنده في صور يوظفها

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٤ .

مثلما وظف اللغة من قبل ـ لتحقيق ذاتيته التى يستشعرها أبو الطيب فى نضاله المستمر مع الزمن والحياة والتى يحسها فى بطولته التى كفلها له ذلك النضال .

وأبو فراس الحمدانى كأبى الطيب المتنبى يوظف صوره الفنية لتحقيق ذاتيته التى يجسدها فى احساسه ببطولة النصر كما يجدها فى احساسه بجرح الهزيمة ، يجسد أبو فراس احساسه ببطولة النصر حتى وهو أسير من خلال صورة فنية قوامها التشبيه فى قوله :

لقيت نجوم الليل وهى صوارم ـــ وخضت سواد الليل وهو يهول [1]

ويقول فى صورة أخرى مجسدا أيضا احساسه ببطولة النصر تلك :

صبور ولو لم تبق منى بقية ــ قؤول ولو أن السيوف جواب
وقور وأهوال الزمان تنوشنى ــ وللموت حولى جيئة وذهاب

ورائعة تلك الصورة الأخيرة (للموت حولى جيئة وذهاب) وكأن الشاعر يرى الموت فى كل لحظة تمر عليه وهو فى ميدان القتال ، ولكنه على الرغم من ذلك ـ صبور ، وقور ، لم تتزعزع نفسه ، ولم يرتجف فؤاده . هذا الى جانب ما فى الأبيات من صوت يضفى على هذه اللوحة جمالا حين يشيع فيها تلك النغمة التى تلائم جو التغنى والتى اكتسبتها هذه الصورة من كلمات جاءت فى ايقاع صوتى واحد (صبور ، قؤول ، وقور) .

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ـ تحقيق الدهان جـ٢ ص٣١٧
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢ .

وتتكرر الصورة ذاتها فى أشعار أبى فراس وكأنه اعتاد أن يرى الموت ويحسه فى كل لحظة تمر عليه ، وهذا شأن من تهون عليه نفسه فى ميادين الدفاع عن الشرف والعرض، يقول راسما صورة لنفسه وهو فى أسره وقد تغافل عنه ابن عمه :

ولكن نا منه يكفى صـــارم ـ ـ وأظلم فى عينى منه شهاب
وأبطأ عنى والمنايا سريعة ـ ـ وللموت ظفر قد أطل وناب (١)

فسيف الدولة سيف ولكن نبا فى يد الشاعر ، وشهاب ولكنه قد أظلم فى عينى أبى فراس ، فى الوقت الذى أحدق فيه الموت به من كل جانب وخيل للشاعر فى تلك اللحظات التى يستشعر فيها ألم الجرح الذى أصابه بهزيمته ، أن ذلك الموت وحش سوف يفترسه لا محالة ، فهى صورة موظفة لتعبر عن احساسات أبى فراس فى لحظة من لحظات الضعف الانسانى أمام عتو الزمن ، وجبروت الأحداث .

ومن الصنعة اللفظية التى ترددت كثيرا فى شعر أبى فراس ووظفها كذلك فى التعبير عن احساساته ومشاعره ، تلك الصورة التى يدير من خلالها حوارا مع حمامة سمعها تنوح :

أيضحك مأسور وتبكى طليقة ـ ـ ويسكت محزون وينطق سالى (٢)

ويضم هذا الاستفهام التعجبى ألوانا من الطباق تكشف عن سبب العجب فى نفس الشاعر وهو واقع فى محنة التناقض والتردد بين الأضداد .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤
(٢) أبو فراس الحمدانى تحقيق السامرائى ص ١٢٧ .

كذلك تأتى الصنعة اللفظية فى لوحة فنية يرسمها أبو فراس مقارنـــا فيها بين أيام عزه ، ونصره ، وبين ما أصبح فيه من هزيمة وأسر :

ولقد سررت غما غمت عشائـــرى — زمنا وهنأنى الذى عزانـــى
وأسرت فى مجرى خيولى غازيـــا — وحبست فيما أشعلت نيرانـى (1)

وهى صورة الى جانب ما فيها من صنعة لفظية الا أنها تحمل معـــنى التحسب والتألم هذا التحسر وذلك التالم اللذان يجسد أبو فراس خلالهما احساسه بجرح الهزيمة التى نالته بعد أسره .

واذا تركت أبا فراس مكتفيا بما أوردت له من نماذج ، وأمثلة توضـــح الى اى مدى قد وظف صوره الفنية فى التعبير عن اتجاهه الذاتى الـــذى استشعره فى داخله من خلال احساسه ببطولة النصر ، وجرح الهزيمـــة الى شاعر آخر من شعراء القرن الرابع كان للتصوير الفنى فى شعره الذاتى نصيب وافر هو الشريف الرضى لترى — كذلك — الى أى حد قد استطـــاع ذلك الشاعر أن يوظف صوره الفنية فى التعبير عن احساسه ببطولة الانتماء التى ظل يستشعرها فى نفسه طوال حياته ، فاننا سنجد — كذلـــك الشريف الرضى موظفا صوره الفنية فى التعبير عما يحسه ، وعما يستشعـــره فى داخله من اعتزاز بالانتماء الى قوم شرفاء ، يمثلهم آل بيت رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم من صور الشريف الرضى التى تجسد استعداده للاحساس ببطولة قوله :

ويوم وغى على الاعداء هـــول — تماز به السراع من البطـــاء

(1) المصدر السابق ص ١٧٥ .

رميت فروجه حتى تقـــــرى — بايدي الجرد والاسل الظماء (١)

وكذلك قوله مصورا رجاله ، وجنوده فى الحرب :

فمن غلب كأنهم اســـــود — على قب ضوامر كالظبـــــاء (٢)

وكلها صور تجسد شجاعة الشريف الرضى التى هى عامل من عوامـــــل استعداده النفسى للاحساس ببطولة الذاتية ، يطولة الانتماء الى ال البيت

وتتكرر مثل هذه الصور كثيرا عند الشريف الرضى — وذلك من مثل قولـه عن نفسه مخاطبا بهاء الدولة :

فـ جربنى تجدنى سيف عـــزم — يصمم غربه وزنــــــــاد راء (٣)

واسمر شارعا فى كل نحــــر — شروع الصل فى ينبوع مــــــاء

فالصورة فى البيت الاول ، يجرد فيها من نفسه سيف عزم حادا قاطعا وزنادا واريا ، وفى البيت الثانى يجرد من نفسه رمحا شارعا ، وصـــــلا قاتلا ، وهو فى كل ذلك انما يجسد شجاعته وقدرته القتالية بوصفهمـــا عاملين من عوامل احساسه ببطولته الذاتية .

ومثل ذلك أيضا قوله :

لنا حق غبار الخيل فى كل غارة — وثوب العوالى والحديد المذرب (٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضى المجلد الاول ص ١٤ .
(٢) المصدر السابق المجلد الاول ص ١٤
(٣) المصدر السابق المجلد الاول ص ١٧
(٤) المصدر السابق المجلد الاول ص ٧٩ .

ومن صور الشريف الرضى الفنية التى يوظفها فى التعبير عن احساسه ببطولة الانتماء تلك اللوحة التى يرسمها لأبيه :

وأبى الذى حصد الرقاب بسيفه — فى كل يوم تصادم ونطاح
ردت اليه الشمس يحدث ضوءها — صيحا على بعد من الاصباح
سائل به يوم الزبير مشمرا — يختال بين ذوابل وصفاح
واسأل به صفين ان زئيره — أودى بكبش أمية النطاح
------------ — ------------(١)
من قاسى ذا شرف به فكأنما — وزن الجبال القود بالاشباح

فالصورة التى فى كل بيت من هذه الأبيات انما تجسد قوة أولئك القوم الذين ينتمى اليهم الشريف الرضى ، وشدة بأسهم ، وهو يستعين بشخصيات تاريخية لتجسيد هذا الشرف الذى يتميزون به وتلك المهابة التى لهم .

وهكذا كانت كل الصور الفنية فى شعر الشريف الرضى ، انما جاءت لتحقق ذاتيته التى يجدها فى الاحساس ببطولة الانتماء التى عاش يجسدها فى أشعاره موظفا كل عناصر الشكل والمضمون لابرازها وتجسيدها

والى جانب أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، والشريف الرضى فان الخالديين يعدان من الشعراء الفنانين فى القرن الرابع الهجرى ، اذ زخرت أشعارهما الذاتية بالصور الفنية ، واعتمدا على التصوير الفنى اعتمادا ملحوظا فى التعبير عن ذاتيتهما التى يستشعرانها فى الافتتان بالمتعة أيا كان أشكال هذه المتعة ، وألوانها ، من هذه

(١) ديوان الشريف الرضى ـ المجلد الأول ص ٢٥٢ .

الصور ما رسمه الخالدى الاكبر أبو بكر لدير (الاعلى) الذى عشقه ولزمه

واستشرقت نفسى الى مستشرف ... للدير تاه بحسنه وبطيبه
متفرق آذى دجلة تحته ... بغديره وخليجه وقليبه
فنعمت بين رياضه وغياضه ... وسكرت بين شروقه وغروبه
غنى الجمال به فزاد الثغر من ... تفضيضة والخد من تذهيبه
واهتز غصن البان فى زناره ... وأضاء جيد الرئم تحت صليبه (١)

وهى لوحة تعتمد على الخيال كثيرا ، وان كان الشاعر يرسم ماتراه عيناه ، وتدركه حواسه ، وهى حواس رجل عرف الملذات وافتتن بها وتعلق قلبه بالجمال ، والرياض ، والغياض ، والشروق ، والغروب والثغور والخدود ، والقدود ، تلك القدود التى لم هراها عيناه الا غصون بان تهتز أم عينيه المشدوهتين ، المسجلتين لكل حركات الدير وسكناته .

وهكذا لم يشغل الخالدى الاكبر نفسه الا بتصوير ملذات الحياة التى ترتبط بالاديرة ، بمن فيها ، ومافيها :

يقول راسما صورة أخرى لدير (مارمخايل)

بيا مخايال ان حاولتما طلبى ... فأنتما تجدانى ثم مطروحا
ياصاحبى هو العمر الذى جمعت ... فيه المنى فاغد والدير أوروحا
بر وبحر به يهدى نسيمهما ... للروح مسكا بماء الورد مفتوحا
يجر صياده الشبوط مضطربا ... حيا وقانصة اليعقورمذبوحا (٢)

وهى صورة قائمة على القسوة ، والفتك ، والصيد ، والقتل ، ولكنه صيد الحسان ، والفتك بالغيد من النساء ، وهى صورة تبدو للوهلة

---

(١) ديوان الخالدين ص٢٩ (٢) المصدر السابق ٣٥، ٣٦

الأولى منافية لحقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولكن بعد امعان النظر نجد أنها صورة حقيقية مطابقة لواقع الشاعر، لامخالفة له ، فعلاقة الرجل بزوجه هى التى تقوم على المحبة والوئام ، والحنان ، والمودة ، أما علاقة سكير قد افتتن بالمتعة ، بسكيرة فلا تقوم الا على القسوة ، فهما لايتمتعان بحلال بل هما كما يصورهما الخالدى صائد وشبوطه المضطرب وقانص وغزاله المذبوح .

وتتردد هذه الصورة ذاتها كثيرا عند الخالدى الاكبر، من ذلك تلك الصورة التى يرسمها لليلة قضاها شاربا ، ساكرا ، ناعما بامرأة هى الشمس جمالا ، وهى الغزال ضعفا :

شربتها من يدى حوراء مقلتها ... تدنى القلوب بتبعيد وتقريب
شمس اذا طلعت قالت محاسنها ... هاقد طلعت فيا شمس الضحى غيبى
ونمت سكرا ونامت لى معانقة ... فلاتسل عن عناق الظبى والذيب (1)

ومادام الخالدى يرى تلك المرأة غزالا ، فهو لايرى نفسه ذئبا قد استحل افتراس ذلك الغزال ، مما يجسد احساس الشاعر بفتنة المتعة التى شغلت قلبه وعقله فعاش لها مغنيا عمره فى تتبعها حيث كانت ، وأينما وجدت ، ومن الصور الموظفة لتحقيق ذاتية أبى بكر الخالدى تلك الصورة التى يرسمها لدير (سعيد)

سعدت صحبتى بدير (سعيد) ... يوم عيد فى حسنه ألف عيد
كم فتاة مثل المهاة سلبنا ... هاصليبا من بين نحر وجيد
وغرير مثل الغزال حللنا ... عقد زنار خصره المعقود

---

(1) المصدر السابق ص ٢١ ، ٢٢

وحططنا رحالنا بفناء الـــــ ـــهيكل المونق البعيد المشيـــد
والروابى مشهرات كغلمـــا ن لنا فى محبرات البـــرود
فخدود مثل الشقائق فى اللـو ن تليها شقائق كالخـــدود
واذا ما الهزار غرد فى الغصـ ن حكته الاوتار فى التغريـــد
من رآنا ونحن فى الارض صرعى قال قوم موتى بغير لحـــود (١)

وهكذا تتكاتف الحركة ، والصوت ، واللون ، والسكون ، والجمود فـى رسم خطوط هذه الصورة العريضة التى يرسمها ذلك الشاعر الفنان لمكان قد أحبه ، وتعلق به قلبه ، وسمعه ، وبصره فلم ير النساء فيه الا مهـا ولم ير الغلمان الا غزلانا ، واختلط عليه الامر ، ولعبت الخمر بلبه فلم يعد قادرا على أن يفرق بين الخدود ، والشقائق ، فالخدود كالشقائق والشقائق كالخدود ، وصوت الهزار فى غصنه شبيه به صوت الاوتار فى العيـد ان وجميلة تلك الصورة الاخيرة التى يرى من خلالها ذلك الشاعر نفسه وأصحابه وقد هدتم الخمر فلا حراك لهم ــ موتى ولكن لم يقبروا بعد .

والخمر مما شغل أبا بكر الخالدى اذ هام بها هيام الاعشى والاخطـل وأبى نواس ، فى أزمانهم ، ورسم لها صورا فنية تعبر عن احساس ذلـك الشاعر بفتنة المتعة ، والخمر احدى متع الحياة ، وملذاتها عند الخالدى وأمثاله :

ألا فاسقنى والليل قد غاب نـوره لغيبته بدر فى الغمام غريـــق
وقد فضح الظلماء برق كأنـــه فؤاد مشوق مولع بخفـــوق
نعاينها نورا جلاه تجســـد ونشربها نارا بغير حريـــق (٢)
كأن حباب الكأس فى جنباتهـا كواكب در فى سماء عقيـــق

(١) المصدر السابق ص٤٨ / ٤٩ (٢) ديوان الخالديين ص ٧٤

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الأبيات من صورة جميلة رائعة ، فريدة فى جمالها ، وروعتها فالبدر غريق وسط الغمام ، والبرق كأنه فؤاد مشوق كثير الخفوق ، وسريعة ، والخمر نور فى العين ، ونار فى الأحشاء ، والكأس سماء من عقيق ، وحبابها كواكب در فى تلك السماء .

ومن صور أبى بكر الخالدى الفنية التى تحقق ذاته التى يراها فى الافتتان بالمتعة تلك اللوحة التى يرسمها للطبيعة من حوله :

لو أشرقت لك شمس ذاك الهودج ... لأرتك سالفتى غزال أدعج
أرعى النجوم كأنها فى أفقها ... زهر الأقاحى فى رياض بنفسج
والمشترى وسط السماء تخاله ... وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصفر ركبته ... فى فص خاتم فضة فيروزج
وتمايل الجوزاء يحكى فى الدجى ... ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض ... هى فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ ... كملت محاسنها ولم تتزوج (1)

وهى صورة كلية رائعة تحتوى على صور جزئية عديدة مركبة فى مجملها فالمشترى الذى يترجرج سناه مثل الزئبق ، كمسمار من تبر أصفر ركب فى فص خاتم من فضة ، تلك الصورة صورة مركبة معقدة لا يستطيع أن يبتكرها الا من رزق رهافة الحس ، ولطافة الشعور ، وشغل الافتتان بالمتعة أيا كان شكل هذه المتعة أو نوعها ، الى جانب امتلاكه ملكة التصوير وأدواته وكذلك صورة الجوزاء التى تتمايل فى الدجى تمايل شارب خمر صرف أفقدته تلك الخمر السيطرة على نفسه ، ثم تنقبها بغيم خفيف أبيض يشبه

---

(1) ديوان الخالديين ص ١٣٥ .

ماتحدثه زفرات حسناء تكامل حسنها ولم تتزوج ، على مرآة صافية اللون ، ناصعة البياض ، ولاشك فى أنها جميعا ــ صور لم يسبق اليها ولم يبدعها من قبل خيال شاعر فنان :

ولا تختلف صور الخالدى الأصغر عن صور أخيه كثيرا فى توظيفه هذه الصور الفنية لتحقيق ذاته التى جسدها افتتانه بالمتعة ، وان كان أبو بكر صاحب قصب السبق فى هذا المضمار ، فلأبى عثمان صور لاتخلو هى الأخرى من طرافة وجدة ، الى جانب تجسيدها لذلك الجانب الذاتى عند الخالدى الأصغر جانب الافتتان بالمتعة ، من ذلك قوله :

أما ترى الغيم يامن قلبه قاسى ... كأنه أنا مقياسا بمقياسى
قطر كدمعى وبرق مثل نار جوى ... فى القلب منى وريح مثل أنفاسى (1)

وهى صورة ــ كما قلت ــ شبيهة ــ الى حد بعيد ــ بصور أخيه أبى بكر ، ولاعجب فى ذلك فقد اتحدت مشاربهما ، وتشابهت روحاهما ، وافتتنا بالمتعة معا ، وتلازما فى الأديرة ، وفى كل مكان يضمن لهما هذه المتعة التى افتتنا بها .

وهكذا حظت الأشعار الذاتية فى القرن الرابع الهجرى بالصور الفنية التى وظفها كل شاعر من شعراء ذلك القرن لتحقيق ذاته ، وابراز احساساته ومشاعره .

ونكتفى بما أوردناه من أمثلة ونماذج للصورة الفنية عند بعض شعراء ذلك القرن الذين يعدون من أئمة الصنعة الفنية فيه .

(1) ديوان الخالديين ص ١٣٥ .

ولا أرى ضرورة لايراد الصور الفنية الزاخرة بألوان التقزز المثيرة للغثيان في اشعار امثال ابن الحجاج وابن سكرة ، وهي على الرغم من شناعتهـــــا محققة لذاتية أصحابها ، قادرة على التعبير عما يحسونه ومايفكـــــرون فيه .

****

الخاتمـــــــة

الخاتمــــة

بعد هذه الدراسة لاتجاهات شعر التعبير عن الذات فى القـــرن الرابع الهجرى عند أهم شعراء ذلك القرن ، من أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ، وابن الحجاج ، وابن سكـــرة الهاشمى ، والخالديين ، ومهيار الديلمى ، والأحنف العكبرى فأولئك الذين اختلفت اتجاهاتهم الذاتية فى أشعارهم اختلافا كبيرا وان كانــوا جميعا افرازات طبيعية لمجتمع القرن الرابع الهجرى . أقول ــ بعـــد هذه الدراسة لاتجاهات شعر التعبير عن الذات عندهم استطعنا الوصول الى عدة نتائج لعل من أهمها :

أولا : أن مفهوم البطولة عند من استشعروا الاحساس بالبطولة مــــن شعراء القرن الرابع الهجرى قد اختلف من شاعر الى آخر نتيجـــة للظروف الحياتية لكل واحد منهم ، تلك الظروف التى اختلفـــت وتباينت ، فبطولة أبى الطيب تكمن فى نضاله المستمر وان كـــان النضال عنده متعدد الجوانب فناضل بالسيف والقوة ، وناضـــل بالقلم واللسان ، وناضل الأعاجم ، وناضل الزمن نفسه ، وناضـل حسادة والحاقدين عليه من معاصريه .

بينما كانت بطولة سيف الدولة تكمن فى انتصاراته العديدة علـى الروم ، فقد عاش وتربى فى بيت سيف الدولة الذى حمل على عاتقه عبء قتال الروم ومناهضتهم .

أما بطولة الشريف الرضى فكانت تكمن فى احساسه بالانتماء الى بيت كريم ، ونسب شريف هو بيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم

ثانيا ــ اختلفت كذلك مناحى الانحلال الخلقى عند شعراء القرن الرابع الذين اتسموا بالانحلال ، ذلك الانحلال الذى كان نتيجة حتمية لفساد الحياة الاجتماعية آنذاك فجسدت أشعار ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمى صدمة التقزز لما فى أشعارهما من قذر وسخف وفحش ، ومجون .

فى الوقت الذى جسد فيه الوسائى والوأواء الدمشقى العبث واللهو والهزل فى أشعارهما الذاتية وجسد الخديان الافتتان بالمتعة تلك المتعة التى تنوعت أشكالها وأنواعها وتعددت طرقها وأساليبها فافتتنا بالأديرة وما فيها من خمر ، وسكر ، وغناء ، وطرب ، ونساء وغلمان ... الى غير ذلك من ألوان اللذة والمتعة الدنيوية .

ثالثا ــ تعددت كذلك أشكال مركبات النقص أو العقد النفسية عند بعض الشعراء فى القرن الرابع الهجرى ، وان كانت كلها محصلات طبيعية لظروف الحياة والمجتمع فى ذلك القرن فأحس مهيار بعقدة الشعوبية بوصفه فارسى الأصل يؤرقه دائما ما أحدثه العرب ببنى جنسه حين فتحوا بلادهم ، ونشروا الاسلام فيها ، ودكوا عروش امبراطوريتهم القديمة فظل كل فارسى يحس الكره للعرق والحقد عليهم وان حاول أن يخفى ذلك . ولكن مهيارا لم يخفه بل راح يجاهر به من خلال أشعاره مجسدا مجد الفرس القديم وعزهم التالد وحاطا من قدر العرب ، وغاضا من شأنهم اما من خلال شعوبيته أو من خلال تشيعه ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة هى عقدته النفسية .

وثلما أحس مهيار بعقدته النفسية تلك ، فقد أحس الأحنف العكبرى ، بعقدة الفقر وأرقته هذه العقدة حين تضخمت فى نفسه وتملكت ذاته وأطلقت لسانه بالتعبير عنها فجسدها من خلال أشعاره فكان بذلك شاعر المكدين ولسانهم والمعبر عن احساساتهم ومشاعرهم تجاه ما يحسونه من فقر وحاجة .

رابعا ـ عند دراسة العناصر الفنية للشعر الذاتى فى القرن الرابع اتضح ما يلى :

١ ـ أن شعراء ذلك القرن قد التزموا فى بناء قصائدهم الذاتية نهجا يخالف نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم ، وذلك يبدو شيئا طبيعيا لأنهم قد تأثروا بمن سبقوهم بقرنين من الزمان من المجددين من شعراء القرن الثانى الهجرى من أمثال أبى نواس ومعاصريه من تلاهم من شعراء القرن الثالث الهجرى فهم أقرب اليهم زمنا من شعراء الجاهلية . فاستغلوا بدايات قصائدهم فى التعبير الحر عن أنفسهم ومشاعرهم ونوازع حياتهم ، كما أنهم نظموا شعرهم الذاتى فى قصائد مطولات وفى مقطعات صغيرة .

٢ ـ وظف شعراء القرن الرابع الهجرى لغة شعرهم الذاتى لتحقيق ذاتيتهم والتعبير عن احساساتهم ومشاعرهم ، ونوازع حياتهم وأثر شعراء المجون منهم اللغة السائدة فى المجتمع حتى تصلهم بجماهير مجتمعهم بطريق مباشر وسريع .

٣ ـ اعتمد شعراء هذا القرن فى أشعارهم الذاتية على موسيقى الشعر العربى القديم ، وبحور الخليل بن أحمد ، وقد جاء شعرهم الذاتى فى عشرة من هذه البحور هى : الطويل

والبسيط والكامل ، والوافر ، والسريع ، والخفيف ، والمنسرح والرمل والرجز ، والمتقارب ، وآثر شعراء المجون والانحلال الخلقى منهم البحور الغنائية والأوزان السريعة الايقاع لتلائم جو الغناء، والطرب واللهو الذى عاشوا فيه طويلا ، والى جانب ذلك فقد حافظ شعراء ذلك القرن على نظام القافية الواحدة التى تساعد على استكمال البناء الموسيقى وللشعر وتسهم فى سهولة حفظه وروايته .

٤ ـ وظف شعراء القرن الرابع صورهم الفنية ـ كما وظفوا اللغة لتحقيق ذاتهم والتعبيرعن أنفسهم ومشاعرهم ونوازع حياتهم ، فجاءت الصور الفنية مجسدة لذاتية كل شاعر فاختلفت هذه الصور باختلاف الاتجاهات الذاتية لكل واحد منهم .

وهكذا تلاحم الشكل والمضمون فى الأشعار الذاتية لشعراء القرن الرابع الهجرى فى تحقيق ذاتية هؤلاء الشعراء وفى التعبير عن احساساتهم ومشاعرهم .

وبعد ..

فاننى ارجو أن تكون هذه الدراسة قد سدت فراغا فى تاريخ أدبنا العربى وحسبى أننى ما ضننت بجهد ، ولا بخلت بوقت فان كل ثمة مواطن اجادة فهى من توفيق الله سبحانه وتعالى ، وتوجيه صاحب الفضل على هذه الدراسة الأستاذ الدكتور/ محمد مصطفى هدارة ، ونصحه وارشادة ، وان كان ثمة مواضع ذلك فمرد ذلك الى النفس ، وما أنسب الكمال لنفسى ، فالكمال لله واحده .